
المجمع العلمي
بغداد
مجلة المجمع العلمي
مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الاول - المجلد الثامن والاربعون
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



مجلة المجمع العلمي



الفهــرس

الموضــوع	الصفحــة

مستقبل خلايا الوقود كمصدر للطاقة الكهربائية

الدكتور جلال محمد صالح
عضو المجمع العلمي

الملخــص :

خلية الوقود تقوم بتحويل الطاقة الكيميائية بشكل مباشر الــــى طاقة كهربائية دون المرور بأية خطوات وسطية • وسميت بخلية الوقود لان عملها ينشأ من خلال اكسدة مادة فيها تدعى الوقود • معظم خلايا الوقود التي شاعــت في حقبــة زمنية طويلــة أعتمدت الهيدروجين والاوكسجين (أو الهواء) اللذين عند اتحادهما معا يتكون الماء ناتجا عرضيا • إن المبادىء الاساسية التي يستند اليها عمل خلايا الوقود قديمة الا ان تصنيع هــذه الخلايا واستعمالها لتوليد الطاقة الكهربائية بشكل ملحوظ لم يبدأ الا خــلال القرن العشرين • تتمتع هذه الخلايا بكفاءة عاليةلانتاج هذه الطاقة باستخدام مواد وقود تتوفر عادة محليا وتكون رخيصة الثمن • طورت انــواع كثيرة من خلايا الوقود الا ان خلية الوقود الميثانولي المباشرة أثبتت فاعليتها ولانها لاتحتاج الى منظومة خاصة بتوليد الهيدروجين كما هو الحال مع خلايــــا الوقود الاخــرى • تتوقف كفاءة هذه الخلية ، وكذلــك الحــال مع خلايا الوقود الاخرى ، على طبيعــة الفلز الذي يدخل في تركيــب مصعد الخلية (أنود الخلية) • والفلز الوحيد الذي ثبتت فعاليته العالية وتحقق نجاحــــه حتى الان هو البلاتين .• ويتم نشر البلاتــين عادة علــى سطح مادة موصلة كهربائيا مسامية القوام مثل الكربون الكرافيتي • دلت التجارب على ان اضافة كميات ضئيلة من بعض الفلزات الى البلاتين تسبب زيادة هائلة لفعلــــه المساعد والى زيادة ملحوظة في فعالية المصعد (الانود) الذي تتم عليه عملية

الاكسدة عادة • ولعل من أفضل هذه الفلزات المضافة الى البلاتين في خلية الوقود الميثانولي المباشرة هو عنصر الروثينيوم • فالمزدوج المؤلف من البلاتين والروثينيوم يعد أفضل عامل مساعد معروف حتى الآن لتحفيز التفاعلات الكيميائية التي تحدث في هذه الخلية • ولا تزال البحوث جارية بكثافة عالية في أنحاء مختلفة من العالم لتطوير خلايا الوقود بصورة عامة ، وخلايا الوقود الميثانولي المباشرة بشكل خاص ، وذلك من خلال تطوير أقطابها وتحسين الالكتروليت الذي يستعمل فيها ، ومن خلال تعميق فهمنا لآليات التفاعلات الكيميائية التي تحدث عند أقطابها •

تمهيد : ـ

اكتشف السير وليام كروف (Sir William Grove) عام ١٩٣٨ المبدأ الذي تستند اليه عمل خلايا الوقود (fuel cells) • فقد لاحظ أنه عقب ايقاف التيار الكهربائي الذي كان يمرره في خلية لتحليل الماء كهربائيا سريان تيار كهربائي في الاتجاه المعاكس في دائرة الخلية • فقد تبين له ان هذا التيار المعاكس ناجم عن تفاعل نواتج التحليل الكهربائي (وهما الهيدروجين والاوكسجين) • وغازا الاوكسجين والهيدروجين يتولدان عادة من عملية التحليل الكهربائي للماء ، وأنهما يعانيان امتزازا على هيئة ذرات على قطبي البلاتين اللذين يستخدمان في عملية التحليل الكهربائي •

وأدرك العالم وليام استوولد (william ostwald) بعد سنين قلائل على ملاحظات السير وليام كروف أهمية خلايا الوقود والجهد الكبير نسبيا الذي تنتجه خلية الوقود • فخلية الوقود تحول الطاقة الكيميائية بشكل مباشر الى طاقة كهربائية في عملية تتم بثبوت درجة الحرارة ، ولا تخضع الى تحديدات القانون الثاني للدينميية الحرارية ، وهي تحديدات كارنوت بشكل خاص • اذ ان القانون الثاني للدينمية الحرارية لايسمح بانتاج شغل

مثمر الا اذا وجد فوق ملحوظ في درجات الحرارة بالشكل الـذي يسمح بانتقال الحرارة من المصدر الذي يتمتع بدرجة حرارة أعلى الى المخرج الذي تكون درجة حرارته أقـل • فظهـرت القناعة لدى المختصين انذاك بدور وأهمية خلايا الوقود في توليد التيار الكهربائي الا أنه لم يكن بالامكـان في ذلك الوقت بناء خلايا وقود لتحقيق هذا الغرض •

نالت بحوث خلايا الوقود دفعا كبيرا من قبل مشاريع سبر الفضـاء (space probe projects) فـي الخمسينيات والستينيات مـن هذا القرن • وكان أول خلية وقود يتم صنعها من قبل الباحث ايف تى بيكين (F. T. Bacon) في أوائل الاربعينيات • وهـذه الخلية وأنواع مطورة قليلا منها قد أستعملت في بعثة أبولو وفي بعض مشاريع مكـوك الفضاء • صنعت خلايا وقود في أوائـل الخمسينيات لاغـراض الاستخدام المنزلي ولاغراض السحب • ان مشاريع البحث والتطوير على خلايـا الوقود أنجزت بشكل أساسي في اليابان والولايات المتحدة الامريكية • وصممت مشاريع بحوث لانتاج هذه الخلايا في شركة وستنك هاوس وفي معاهد بحوث الطاقة لانتاج خلايا قابلة للحمل (portable) وكذلك لصنع الخلايـا الكبيرة باستعمال مادة حامض الفسفوريك أو من منصهرات الكربونات •

تتكون خلية الوقود عادة من قطبين همـا المصعد (الأنود anode) والمهبط (الكاثود cathode مع مادة الكتروليتية مناسبة • وخلية الوقود تشبه النضيدة (البطارية) الى حد كبير • والفرق الأساسي بين خليـة الوقود والنضيدة هو ان مواد النضيدة يتم تحميلها في النضيدة معمليا في حين يكون تجهيز مواد خلية الوقود بشكل مستمر وجرياني • تتكون مواد خلية الوقود من مادة تدعى الوقود (Fuel) مع مادة مؤكسدة • والوقود يكون بمثابة عامل مختزل من مادة مثل الهيدروجين أو الميثان يتم توجيهها نحـو المصعد (الانود) • أما العامل المؤكسد فهو الهواء أو الاوكسجين الذي يوجه نحـو

المهبط (الكاثود) • والاقطاب لها وظائف متعددة ، ومنها أنها تعمل عوامل مساعدة في تفاعل اكسدة الوقود عند المصعد واختزال العامل المؤكسد عند المهبط • والاقطاب تعمل كسطوح بينية بين الوقود والعامل المؤكسد والالكتروليت وتعمل على ايصال الالكترونات الى مواقع التفاعل او ايصالها الى خارج الخلية •

التفاعل الذي يتم في خلية الوقود هو من النوع الكهروكيميائي ويحدث عادة عند السطوح البينية للقطب مع الالكتروليت ، ويتم فيه تحويل الطاقة الكيميائية مباشرة الى طاقة كهربائية • ويتمتع التفاعل نظريا بكفاءة تصل الى ٦٠٪ • وباستغلال الحرارة المصاحبة للتفاعل يمكن زيادة الكفاءة الى ٩٠٪ • ولو ان التفاعلات التي تتم عند الاقطاب تعتمد على نوع الالكتروليت وعلى طبيعة المواد المتفاعلة المستعملة الا ان بالامكان صياغة التفاعل بشكل عام على النحو :

$$H_2 + \frac{1}{2} O_2 \rightarrow H_2O + \text{Heat} + \text{Electricity}$$

هيدروجين أوكسجين ماء حرارة كهرباء

ويتم الحكم على أداء خلية الوقود من منحنى الاستقطاب ، اذ يتم رسم علاقة بين فولطية الخلية مقابل كثافة تيارها • تكون فولطية تحت الحمل (under load) اقل دائما من فولطية الدارة المفتوحة البالغة ١ر٢٣ فولت بالنسبة الى خلية الهيدروجين والاوكسجين • والكتروليت الخلية يكون ناقلا جيدا للايونات ولكن ليس للالكترونات • وتضاف مادة خاملة عادة الى الكتروليت الخلية وهذه المادة تعمل فاصلا بين الوقود والمادة المؤكسدة وتمنع تفاعلها معا داخل الخلية نفسها

تتراوح فولطية خلية الوقود من ٧ر٠ الى ـــر١ فولت بحسب نوع الخلية ، وتكون كثافة تيارها (١٠٠ ــ ٣٠٠) مللي أمبير على السنتمتر المربع ($mA\,cm^{-2}$) • وعلى هذا تصل كثافة الطاقة المستحصلة من خلية

الوقود الى (٥و٠ ـــ ر٢) كيلو واط على المتر المربـع ($KW m^{-2}$)
ويتم ربط الخلايا على التوالي أو على التوازي للحصول على فولطيات أو تيارات أعلى • الشكل (١) يبين مخططا لخلية وقود أستعمل فيها المثيانول كوقـــود •

معمل خلية الوقود **Fuel Cell Plant**

يتكون معمل خلية الوقود من ثلاث وحدات (الشكل ٢) ، الوحدة الاساسية فيها تتكون من مجموعة من خلايا الوقود مرتبطة معا على التوالي أو التوازي • وتحتوي الخلية على مادة مهذبة تقوم بمهمة الوقود الاوليـــة مثل النفثا أو الميثانول أو الغاز الطبيعي وتحول هذه المواد الى هيدروجـين أوالى غاز غني بالهيدروجين التي تعد بمثابة مادة الوقـود للخلايا • ويتحقق هذا في الوحدة الثانية للمعمل • أما الوحدة الثالثة فانها تقوم بتحويل التيار المباشر المتولد من الخلايا الى تيار متناوب •

تتمتع خلايا الوقود بالكفاءة والنظافة والمرونة والهـدوء • والكفاءة الكهروكيميائية المستحصلة في درجـات الحـرارة الاعتياديـة تصـل الى (٤٠ــ٦٠)٪ ، وبالنسبة للخلايا التي تعمل في درجات الحرارة العالية ، فـان الكفاءة المستحصلة تصل الى (٨٠ــ٩٠) ٪ اذا تم استغلال القدرة الكهربائية والحرارية للخلية معاً • وخلايا الوقود لا تولـد غـازات سامـة أو مسببة للتأكل ، ولا تولد الضوضاء • ونظراً لعدم احتواء خلايا الوقود على أجـزاء متحركة ، فان متطلبات صياتنها تكون قليلة ومحدودة • وخلايا الوقود تكون عادة غاليـة الثمـن لان المـواد المستعملة في صناعتها يجب أن تتوفـر فيها مواصفات عالية • ويصـل عمر استعمال خلية الوقـود الى (٤٠) الف ساعة (او ٥ر٤ سنة تقريبا) • تستعمل خلايـا الوقـود حاليـا في مجسات الفضاء وفي المركبات التي ترسل الى الفضـاء وكوحدات قـدرة قابلة للتنقـل في الأغراض العسكرية •

تصنيف خلايا الوقود

ان مميزات خلية الوقود مثل درجة حرارة التشغيل ونوع الوقود المستعمل فيها يمكن تحديدها بحسب الالكتروليت المستعمل فيها • ويجري تصنيف خلايا الوقود بحسب نوع الالكتروليت المستعمل فيها ، ونذكر في هذا الباب بعض انواع خلايا الوقودة الأخذة بالانتشار :

١ ـ خلايا حامض الفسفوريك (FAFC)

وهي من خلايا الوقود المتطورة في الوقت الحاضر ، والمتوقع أن يصبح تداولها تجاريا في اوائل القرن الحادي والعشرين • والتفاعلات التي تحدث عند قطبي الخلية هي •

المهبط ــ ويحدث عنده التفاعل :

$$\frac{1}{2}O_2 + 2H^+ + 2e \rightarrow H_2O$$

المصعد ــ ويحدث عنده التفاعل :

$$H_2 \rightarrow 2H^+ + 2e$$

فالالكتروليت المستعمل في الخلية هو محلول حامض الفسفوريك المركز (٩٥٪) في وسط كربيد السليكون ويقوم بايصال البروتونات (H^+) المتولدة عند المصعد الى المهبط كي يتحقق عنده التفاعل المهبطي المشار اليه آنفا • وتتراوح درجات الحرارة التي تعمل عندها الخلية من ١٥٠ الى ٢٠٠ مئوية • وتحتوي الاقطاب المستعملة في الخلية على بلاتين مسند يعمل كعامل مساعد كهروكيميائي ، اذ يستخدم (٢٥ر٠ ــ ٥ر٠) ملغم من البلاتين لكل سنتمتر مربع من سطح القطب • وزيد هذا المقدار الى ٩ ملغم للسنتمتر المربع في خلايا الوقود المستعملة لاغراض استكشافات الفضاء ••

٢ ـ خلية وقود منصهر الكربونات (MCFC)

وهي أقل تطورا من خلية وقود حامض الفسفوريك ، ولكنها مرغوبة أيضا • والالكتروليت فيها هو منصهر من مزيج كربونات الليثيوم بنسبة مولية ٦٢٪ وكربونات البوتاسيوم بنسبة مولية ٣٨٪ ودرجة حرارة التشغيل تصل الى ٦٥٠ مئوية • ويضاف الالكتروليت الى وسط خامل من اوكسيد الليثيوم والالمنيوم مع ألياف الالومينا والتفاعلات التي تتم عند قطبي الخلية هـي :

المهبط ـ ويحدث عنده التفاعل :

$$CO_2 + \frac{1}{2} O_2 + 2e \rightarrow CO_3^{2-}$$

والمصعد ـ ويتم عنده التفاعل :

$$H_2 + CO_3^{2-} \rightarrow CO_2 + H_2O + 2e$$

ويقوم الالكتروليت بايصال أيونات الكربونات من المهبط الى المصعد • ويُصنَعُ القطبان عادة من النيكل الذي يكسى باوكسيد النيكل • وتتمتع الخلية بالاداء الجيد ويعمل النيكل كعامل مساعد في تفاعلات الاقطاب • والتفاعل المحتمل حدوثه أيضا في الخلية يشمل على :

$$CO + H_2O \rightarrow CO_2 + H_2$$

وهذا التفاعل ينحرف بشكل كبير نحو اليمين بحيث لايبقى أي فائض من غاز أحادي اوكسيد الكربون السام • ولعل من مساوىء هذه الخليــة

أنها تحتاج الى عملية تدوير لغاز CO_2 المتولد عند المصعد الى المهبط كي يكتمل التفاعل المهبطي بالشكل الذي أشرنا اليه سابقا • وقد ينتج عن عمل الخلية فقدان في كمية الالكترولبت بسبب تكوين ثم تطاير الهيدروكسيد القلوي من الخلية •

٣ ـ خلية الوقود القلوية (AFC)

يستخدم محلول مائي من هيدروكسيد البوتاسيوم الذي يحتوي على (٣٥ ــ ٧٥)٪ وزناً من الهيدروكسيد كالكترولبت • وتتراوح درجة حرارة التشغيل من ٦٠الى ٩٠ مئوية وتفاعلات الأقطاب تشتمل على ما يأتي :

المهبط ــ ويحدث عنده التفاعل :

$$\frac{1}{2} O_2 + H_2O + 2e \rightarrow 2OH$$

والمصعد ــ ويتم عنده التفاعل :

$$H_2 + 2\overline{OH} \rightarrow 2H_2O + 2e$$

ووجود غاز CO_2 في الجو يسبب تعكر محلول الهيدروكسيد وتكوين الكربونات التي تسد مسام الاقطاب وفتحاتها وتسبب نقصاً في تركيز الهيدروكسيد • وازالة غاز CO_2 من الجو عملية مكلفة • المقاومة الداخلية للخلية تكون عالية • وتصنع الاقطاب والألواح الثانوية للخلية من مواد رخيصة مثل الكرافيت او النيكل او حديد الصلب المقاوم للصدأ • يستعمل النيكل أو البلاتين كعامل مساعد للتفاعل المصعدي ويستعمل البلاتين او الفضة كعامل مساعد للتفاعل المهبطي ، وتنتج الخلية تيارا يصل الى ١٠٠٠ مللي أمبير على السنتمتر المربع عند ٠٫٧ فولت •

٤ ـ خلية وقود الحامض الفائق (SAFC) Superacid Fuel Cell

تستعمل مادة رباعي فلوري ميثان حامض السلفونيك (TFMSA) كألكتروليت في هذه الخلية • وتكون كثافة قدرة الخلية عالية • والمـــادة المستخدمة كألكتروليت في الخلية تتمتع بضــغط بخاري عال ، لذا فانهـــا عرضة للتطاير والفقدان •

٥ ـ خلية وقود البوليمر الصلب (SPFC)

يعمل غشاء تبادل أيوني مثل النافيون (Nafion) وهو بوليمر مشارك يتكون من مــادة فوق فلوري حامــض السلفونيك كألكتروليــت في هذه الخلية •

ولا يحدث فقدان في كمية الالكتروليت • وكثافة القدرة لهذه الخلية عالية تصل الى ثلاثةأضعــاف كثافــة القدرة لخلايــا وقود حامض الفسفوريك (PAFC) • والعمر الزمني لهذه الخلية يصل الى اكثر من (١٠٠) الــف ساعة • ومن مساوىء هذه الخلية الكلفة الباهضة لغشاء التبادل الايونــي • والغشاء يتشبع عادة بالماء ، وهذا يقيد حدود درجات حرارة تشغيل الخلية •

٦ ـ خلية وقود الاوكسيد الصلب لدرجة الحرارة العالية (HTSOFC)

ودرجة حرارة تشغيل هذه الخلايا تصل الى ١٠٠٠ مئوية • وهــــذه الدرجة الحرارية العالية مطلوبة لجعل الالكتروليت الصلب موصلا لايونــات الاوكسيد • تجري عادة اشابه ثنائي اوكسيد الزركونيوم باليتريوم أو باكاسيد اليتريوم والكلسيوم وتستخدم المادة المتكونة كالكتروليت في الخلية • وتكون أقطاب الخلية من مواد فلزية سيراميكية • فالمصعد يصنع من النيكل أو من سرميت النيكل (النيكل والسيراميك) ، أما المهبط فانه يصنع من الباراسيديوم أو من اوكسيد الانديوم • والتوصيلات التي تحدث بين الخلايا تؤلف مشكلة كبيرة في هذا النوع من خلايا الوقود لان المواد يجب أن تكون مقاومة بدرجة كبيرة لظروف التأكسد والاختزال القوية •

٧ ـ خلية وقود حيوية **Bio Fuel Cell** ، وتكون من نوع :

(−) Pt / E. Coli in Glucose / Glucose+air / Pt (+)

اذ تستخدم مادة انزيمية في وسط زرعي كألكتروليت للخلية .، وامكـن الحصول على فولطية ٤ر٠ وكثافة تيار ٢ر٠ مللي امبير على السنتمر المربع ،

خلايا الوقود الميثانولي المباشرة Direct Methanol Fuel Cells

ذكرنا فيما مضى ان خلايا الوقود تقوم بمهمة تحويل الطاقة الكيميائية الى تيار كهربائي مباشر (d. c.) دون المرور بخطوات وسيطة ، ان معظم خلايا الوقود تعتمد الهيدروجين والاوكسجين (أو الهواء) اللذين عند اتحادهما معا يتكون الماء ناتجا عرضيا ، وخلية الوقود الميثانولي المباشرة (DMFC) تعمل من خلال اكسدة الوقود السائل (الميثانول) الى ماء وغاز CO_2 وبهذا تنتفي الحاجة الى استخدام وقود الهيدروجين ، ويمكن الحصول بهـذه الخلايا على منظومة تتراوح قدرتها من عدة واطات الى عدة كيلو واطات ، وتكون هذه الخلايا بديلة مناسبة عن بطاريات الخزن (الحامضية او القاعدية) الشائعة في يومنا هذا ، وهي تستعمل وحدات مستقلة لتوليد الطاقـة الكهربائية حيثما تدعو الحاجـة الى مخرجـات عالية الطاقة ، واستعمالاتهـا الاخرى تكون في كاميرات الفديو والمسجلات وفي الزوارق والكرافانات ،. وخلايا الوقود في هذه الحالات لها قدرة الاستعمال المستمر لآماد طويلـة طالما أحتوت على الوقود السائل بكفايـة ، ولعل من مزايا هذه الخلايا ان الوقود السائل فيها أمين ، ويمكن استعمالها في درجات الحرارة الاعتيادية والمنخفضة ، وهي البديل المناسب للاستعمال في المركبات عموما ،

ان امكان استعمال وقود من الكحولات والالديهيدات في تركيـب خلايا الوقود اصبح امرا مقبولا منذ اوائل الخمسـينيات ، أما البحـوث الجدية في هذا الميدان فانها لم تبـدأ الا في اواسط الستينيات ، والميثانـول بشكل خاص جلب اهتمام العلماء والباحثين في استعماله وقودا في الخلايـا

الكهربائية لانه رخيص الثمن ، ويتوفر بكثرة ، ويمكن تداوله ونقله بسهولة ويسر وأمان • وخلية الوقود الميثانولي المباشرة يمكنها أن تعمل في وجود الكتروليتات حامضية او قاعدية .• وقد تمت فعلا دراسة هاتين المنظومتين بكثافة عالية خلال العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن لاسيما من قبل شركات عالمية مثل (Shell) وايسو (Esso) • والشركة الاخيرة عملت بعقد للجيش الامريكي لتطوير منظومة خلايا ١٠٠ واط لاستخدامها في المعدات العسكرية ، واستجابةللحاجة الى مصادر طاقة كهربائية خفيفة الوزن لاستعمالها في معدات الاتصالات وأجهزتها • وكانت الوحدة الاولى التي أنتجتها شركة أيسو تمتاز بكثافة تيار تصل الى ٥٥ مللي أمبير على السنتمتر المربع ($55mA\ cm^{-2}$) بفولطية ٤و• فولت باستعمال عامل مساعد كهروكيميائي من فلز نبيل ، ولكن عمر الخلية كان محدودا • واستمرت الصناعة بعد ذلك في تحضير خلايا أطول عمراً •

درست° شركة شيل العامل المساعد المصعدي الذي يتم عنده تأكسد الميثانول ووجدت° أن منظومة البلاتين الروثينيوم كانت اكثر فعالية وكفاءة ولو أنها لم تكن تماماً بالمستوى المطلوب • وكلتا الشركتين (شيل وايسو) أنهتا هذا الاتجاه البحثي في أواخر السبعينيات لان الفعالية المساعدة التي حصلتا عليها لاكسدة الميثانول لم تكن كافية لادخال هذه التقانة في الميدان التجاري • وتمت محاولات أخرى من قبل جهات كثيرة أخرى لمعالجة هذه المشكلة ولكنها كلها لم تكن مثمرة •

أستطاعت شركة هيتاشي اليابانية خلال الثمانينيات اعادة بحث هذا الموضوع عندما عاد الاهتمام ثانية الى خلايا الوقود الميثانولي • واستهدفت الشركة من بحث الموضوع مجدداً ادخال هذا النوع من الخلايا في الاستخدامات الداخلية .• أستخدمت شركة هيتاشي البلاتين عاملاً مساعدا مهبطياً ومنظومة البلاتين والروثينيوم للمصعد • والخلية كما أشرنا الى ذلك سابقا تعمل في الوسط الحامضي والوسط القاعدي على السواء ، الا ان

الوسط الذي يقع عليه الاختيار يجب أن لا يسبب تأكل فلزات العامل المساعد المستخدمة في قطبي الخلية ، وأن لاتكون له تأثيرات سمية او ضـارة ، وأن يتمتع بتوصيلية أيونية عاليـة • وبالتقيد بهـذه التحديـدات يتضـح ان الالكتروليتات القاعدية تتمتع بكفاءة أعلى قياساً بالالكتروليتات الحامضية • وباستخدام الوسط القلـوي كالكتروليت ظهـرت مشكلة تولـد أيونات الكربونات في مثل هذا الوسط والذي يتم وفق التفاعل :

$$CO_2 + \overline{OH} = H\overline{CO_3}$$

والشكل (١) يبين مخططا لخلية الوقـود الميثانولي باستعمال حامض الكبريتيك كألكتروليت • اذ يتفاعل الميثانول مع جزئية ماء عند المصعد محرراً غـاز CO_2 مـع (٦) بروتونات و (٦) الكترونات ، وهذا يؤلف منتوجا عاليا من الالكترونات : وغاز CO_2 المتولد في التفاعل يتم طرده بوساطة الالكتروليت الحامضي ، أما الاوكسجين فانه يتم اختزاله عنـد المهبط مولدا الماء الذي تتم ازالته بواسطة تيار من الهواء الذي يمرر في الجزء المهبطي مـن الخلية • والفولطية القصوى المستحصلة من الخلية تبلغ ١٨٦ر١ فولت ، ولكن ليس بالمستطاع بلوغ هذه الفولطية عمليا للاسباب الاتية :

أ ــ عدم اكتمال الجهد الرجوعي لاكسدة الميثانول في اثناء تفاعل الخليـة بسبب حدوث تفاعل ثانوي يشتمل على جزئيات الفورمالديهيد وحامض الفورميك • لذا فان الجهد الفعلي للعملية المصعدية لم يكن غير جهـد خليط للتفاعلين معا •

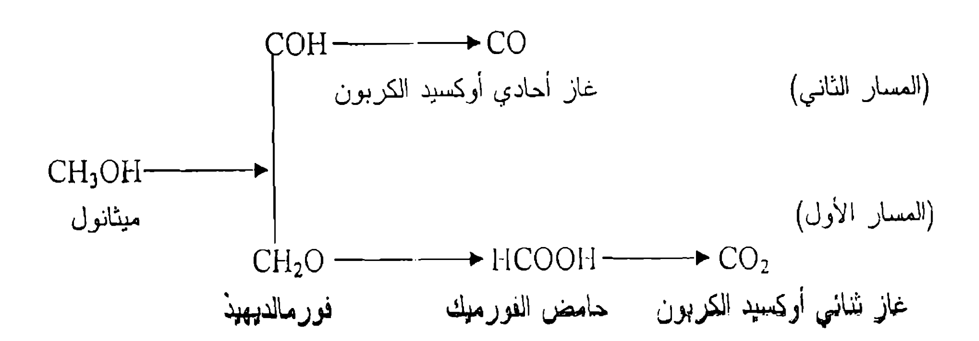
ب ــ يكون فوق الجهـد اللازم للحصول علـى تيار كهربائي مناسب عاليا بسبب حدوث تسمم للعامل المساعد •

جـ ـ يكون جهد اختزال الاوكسجين عند المهبط خليطا أيضا بسبب تكوين البروكسيد بجانب تفاعل الاختزال الاساسي • ويعاني المهبط أيضا من فوق جهد عال نسبيا ولكن أقل مما في حالة المصعد •

تطوير خلية الوقود الميثانولي المباشر

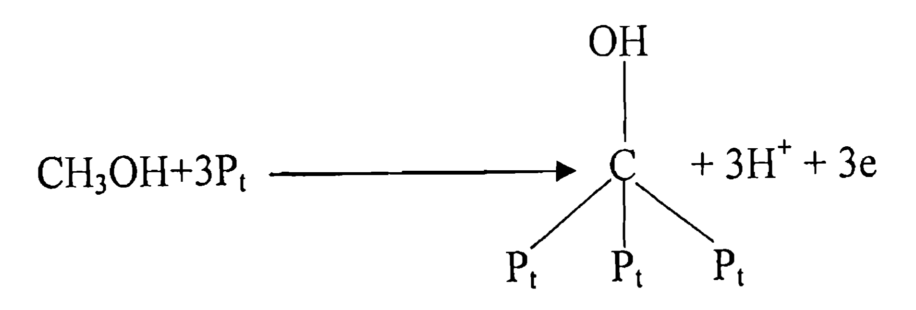
إن المشكلة التي تواجه تطوير خلية الوقود الميثانولي المباشرة هي في العمل على خفض قيمة فوق الجهد (overvoltage) المصعدي • ولفهم هذه المشكلة والعمل على معالجتها لابد من التطرق الى آلية اكسدة الميثانول على قطب البلاتين • ولم ترد في الادبيات المتوفرة أية معالجة لهذه المشكلة لحد الان •

قدمت خلال العقود الثلاثة الاخيرة تصورات مختلفة عن آلية اكسدة الميثانول ، وكان افضلها ما تقدم بها الباحث برايتر (Breiter) الذي أقترح مسارات متوازية في تفاعل اكسدة الميثانول عند المصعد •وتناول أحد المسارات المقترحة تحول الميثانول الى الفورمالديهيد والى ثنائي اوكسيد الكربون CO_2 • أما المسار الاخر فاشتمل على امتزاز الميثانول على المصعد ومن ثم انتزاع الهيدروجين منه لتكوين COH- على سطح قطب البلاتين .• وتستمر العملية بانتزاع الهيدروجين من COH لتكوين هيدروجين ممتز على القطب وتحرير غاز أحادي اوكسيد الكربون (CO) :



وامكن فعلا تشخيص آثار من الفورمالديهيد وحامض الفورميك في محلـول الخليـة •

وحصلت القناعة لدى الباحثين بان تكوين COH في أثناء التفاعل وفق المسار الثاني هو بسبب تناقص تيار الخلية • واجريت دراسات مسفيضة لفهم طبيعة المادة السمية المسببة لتناقص التيار ، وأشارت الدلائل المستحصلة الى حدوث التفاعل على وفق ما ورد في المسار الثاني • وان ازالة الهيدروجين من الميثانول على سطح القطب تتم بخطوات لتكويـن COH- التي تعانـي امتزازاً قويا على بلاتين القطب كما في :



$$CH_3OH + 3P_t \longrightarrow C(OH)(P_t)_3 + 3H^+ + 3e$$

وقام باحثون عديدون بدراسات طيفية على الدقائق الممتزة علـى سطح البلاتين وتبين لهم ان الدقائق الممتزة هي احادي اوكسيد الكربون (CO) المرتبطة بأواصر منفردة بسطح البلاتين •

والخطوة اللاحقة تشتمل على تفاعل الدقائق السمية المتكونة على السطح مع دقائق H_2O أو OH الممتزة على سطح العامل المسـاعد لتكوين غـاز CO_2 • وامتزاز مثل هذه الدقائق المشتملة على الاوكسجين يتطلب جهوداً عالية ، لذا فان التفاعل المصعدي يتم عند جهود أعلى بكثير من الجهد الرجوعي للميثانول مع القطب • والمخطط المقبول لتفاعل دقائق COH- مع دقائق OH- الممتزة على البلاتين يشتمل على الخطوات الاتية :

$$3P_t + 3H_2O \longrightarrow 3P_t - OH + 3H^+ + 3e \qquad \text{..........(a)}$$

$$\begin{matrix} OH \\ | \\ C \\ / \; | \; \backslash \\ P_t \; P_t \; P_t \end{matrix} + P_t - OH \longrightarrow \begin{matrix} P_t \\ \vdots \\ C \\ | \\ P_t \end{matrix} = O + H_2O \qquad \text{..........(b)}$$

$$\begin{matrix} P_t \\ | \\ C \\ | \\ P_t \end{matrix} = O + P_t - OH \longrightarrow P_t - COOH + 2P_t \qquad \text{..........(c)}$$

$$P_t - COOH + P_t - OH \longrightarrow 2P_t + CO_2 + H_2O \qquad \text{..........(d)}$$

وتفترض هذه الالية توفر خصائص وظيفية مزدوجة في العامل المساعد. فالعامل المساعد لابد من ان يمتز الميثانول والماء معا على سطحه في نفس منطقة الجهد على السطح .

إن فعالية القطب الذي تتم عليه اكسدة الميثانول تعتمد على عوامل عدة تشمل تركيب العامل المساعد ، والمادة الساندة للعامل المساعد ، وبنية القطب بلوريا ، وظروف التشغيل . إن معظم البحوث التي أجريت لتطوير خلايا الوقود الميثانولي أنصبت فقط على تغيير بنية العامل المساعد . وجد الباحثون ان العوامل المساعدةالمشتملة على عناصرعائلةالبلاتينهي الانظمة الوحيدةالتي تظهر فعالة عالية في اكسدة الميثانول عند جهود منخفضة . وقام باحثون آخرون بتحضير عوامل مساعدة من فلزين أو ثلاثة مع البلاتين على أمل تقليل او ازالة التأثير السمي للبقايا الميثانولية على القطب . وقد جربت معظم العناصر الانتقالية وكذلكالجرمانيوم والقصديروالرصاص والزرنيخ والانتمون والبزموث والكبريت والسلينيوم والتليريوم والليثيوم لهذا الغرض . وضعت نظريات مختلفة لتفسير التأثير التحفيزي للعناصر المضافة الى البلاتين. ولعل أفضل جمع كان للروثينيوم مع البلاتين ، والقصدير مع البلاتين ، والرينيوم مع البلاتين ، والتيتانيوم مع البلاتين والأوزميوم مع البلاتين ، والقصدير والروثينيوم معاً مع البلاتين ، والذهب والروثينيوم معاً مع البلاتين، ولم تعرف حتى الأن كيفية عمل هذه العناصر المضافة في زيادة فعالية البلاتين بحوالي ٤٠ مرة . ودلت كافة الدراسات ان منظومة الروثينيوم مع البلاتين تمثل أفضل العوامل المساعدة المعروفة لحد الأن لاكسدة الميثانول .

وبدأت دراسات أوروبية مكثفة خلال الثمانينيات على خلايا الوقود الميثانولي المباشرة ، واكتملت هذه الدراسات في أوائل التسعينيات مع الحصول على خلايا وقود بكثافة قدرة تصل ٥٠ مللي واط للسنتمتر المربع من سطح القطب بعد تحميل القطب بفلز نبيل يصل مقداره الى (١) مللي غرام على السنتمتر المربع . وتعمل هذه الخلايا في درجات حرارة تصل الى ٦٥ مئوية . الجدول (١) يبين برامج البحوث التي جرت في بعض الدول الأوروبية لتطوير خلايا الوقود .

ان ظروف التشغيل المناسبة لخلية الوقود الميثانولي المباشرة تشتمل على :

أ ــ درجة الحرارة تكون بحدود ٦٠ مئوية •

ب ــ تركيز الميثانـــول في محلــول الخليــة يبقــى مساويا الى ١ مــول للدسمتر المكعب •

جـ ــ اذا كان الالكتروليت حامضاً ، يكون تركيزه (٣) مول للدسمتر المكعب وما يوازي هذا التركيز اذا كان المحيط قاعديا •

ويُصنَعُ المصعد من الكرافيت (الكربون) الذي يسند بالبلاتين .•وتزداد فعالية هذا القطب في أكسدة الميثانول باضافة مواد مرقية (Promoters) اليه • وقد أظهر الروثينيوم أعلى فعاليـــة كمادة مرقيـــة للبلاتـــين • يوضح الشكل (٣) علاقة جهد المصعد مقابل التيار لكل ملغم من البلاتـــين المستعمل في اسناد القطب • والشكل يعكس في الواقع تغير فعالية البلاتين المستخدم في المصعد كعامل مساعد باضافة مرقيات من بعض الفلـــزات اليـــه • وقامت شركة جونسون ماتثي (Johnson Matthey) بدراســـة جهـــد المصعد البلاتيني (نصف الخليـــة في خلية الوقـــود) فحصلت على تيار تبلغ شدته (٥ــ٦) مللي أمبير لكل ملغم من البلاتين المصروف في إسناد المصـــــعد وذلك عند جهد يوازي (٤٠٠) مللي فولت قياسا بجهد قطـــب الهيدروجـــين الدينمي • وازدادت هذه القيمة بمقدار (٤٠ــ٤٥) مللي أمبير لكل ملغم مـــن البلاتين باضافة عنصر الروثينيوم (كمادة مرقية) الى البلاتين • ويبين الشكل (٤) أداء المصعد في خلية الوقود الميثانولي باستعمال الكتروليتات مختلفـــة في الخلية • كما يبين الشكـــل (٥) تأثير درجـــة حرارة التشغيل على فعالية العامل المساعد المستخدم في المصعد • والملاحظ في الشكل أنه بدرجة (٨٠) مئوية يمكن الحصول على فعالية تصـــل الى ١٠٠ مللي أمبير لكل ملغم من البلاتين المستعمل في اسناد المصعد ، والتفاعل يتطلب طاقة تنشيط تتراوح من

(٣٦) الى (٤٩) كيلو جول للمول • ولما كانت درجة غليان الميثانول تبلغ ٦٥ مئوية فان الفقدان في كمية الوقود المستعمل في الخلية يكون محسوسا ان لم تتخذ احتياطات لمنع تسرب بخار المادة من الخلية • ويبين الشكل (٦) تأثير التراكيز المختلفة لحامض الكبرتيك المستعمل في الخلية على كفاءة الخلية • إذ يلاحظ ان فعالية العامل المساعد ، وبالتالي كفاءة الخلية ، تزداد بخفض تركيز الحامض • يبين الشكل (٧) أداء خلية الوقود الميثانولي عند استبدال الميثانول بأنواع أخرى من الوقود باستعمال الالكتروليت الحامضي ومصعد من البلاتين المرقى بالروثينيوم • وكان افضل فعالية للمصعد ، وللخلية عند استعمال حامض الفورميك وقودا للخلية على الرغم من ان جزيئة هذا الحامض تولد فقط الكترونين في عملية الاكسدة عند المصعد قياسا بالميثانول الذي تولد جزيئته (٦) الكترونات في عملية الاكسدة •

أستمرت جهود الباحثين في تطوير خلايا الوقود ، وبشكل خاص خلايا الوقود الميثانولي ، من خلال فهم أعمق للعمليات والتفاعلات التي تتم عند اقطابها ،وبتحسين المواد المستخدمة في بنية أقطابها ، وباضافة المرقيات الفاعلة المختلفة الى العوامل المساعدة المرسبة على الاقطاب • فقد صنعت مؤخرا خلية الوقود الميثانولية من الكربون المحسن الذي جرى ترسيبه على قطب الكربون المستعمل في الخلية ، فأدى ذلك الى تحسين جهد الخلية بمقدار (١٠٠ ــ ٢٠٠) مللي فولت • واستخدمت مع العامل المساعد المضاف الى الاقطاب مرقيات من معقدات الروثينيوم أو الثنائي بيريميدين •

وشملت التطورات الاخرى استعمال اقطاب من الكربون المطعم بمادة النافيون التي اشرنا اليها سابقا ، وتم بعد ذلك ترسيب العامل المساعد والمرقي معا في آن واحد على سطح هذا القطب ، وكان من شأن ذلك الحصول على كثافة قدرة بلغت ٣٥ر٠ واط على السنتمتر المربع باستعمال الاوكسجين وقودا أو الى ٢٢ر٠ واط على السنتمتر المربع باستعمال الهواء وقودا • كما شملت التطورات الاخرى التي أدخلت في أقطاب خلية الوقود ترسيب

عجينة من الكربون المحفز مع مادة PTFE البوليمرية على غشاء كربوني ثم كبس المزيج بعد ذلك في غشاء من مادة النافيون ، فامكن الحصول بذلك على كثافة قدرة بلغت ٠٫٧٩ واط على السنتمتر المربع .

الجدول (١) ـ بعض الدراسات الاوروبية على خلية الوقود الميثانولي وعلى موضوعات ذات العلاقة بها .

جهة البحث	موضوع البحث
١ ـ شركة جونسون وماتثي في المملكة المتحدة .	ـ استخدام فلزات نبيلة مواد أساسية في العمل المساعد لاكسدة الميثانول . دراسات لنصف الخلية والخلية الكاملة المشتملة على هذه المنظومة .
٢ـ جامعة اوكسفورد (انكلترة) بالتعاون مع شركة جونسون وماتثي .	ـ دراسة أساسية للتفاعل المصعدي على فلز نبيل مع أكاسيد فلزات مضافة عليه كمواد مرقية .
٣ـ جامعة ساوث هامبتون (انكلترة) .	ـ دراسات الفراغ الفائق للسلوك الكهروكيميائي لاكسدة الميثانول على بلورات البلاتين المنفردة .
٤ـ شركة CNRS الفرنسية .	ـ دراسة كهروكيميائية لاكسدة الميثانول على سطوح بلورات البلاتين المنفردة .
٥ـ جامعة بوتير / فرنسا	ـ قياسات الرسم اللوني ودراسات طيفية بالاشعة تحت الحمراء الانعكاسيةلتفاعل اكسدة الميثانول كهربائيا على سطوح البلاتين متعددة البلورات .
٦ـ جامعة بون في ألمانيا	ـ دراسة العوامل المساعدة المشاركة للاكسدة الكهربائية للميثانول على البلاتين .
٧ـ شركة سيمنز الألمانية بالتعاون مع جامعة بون .	ـ دراسة المواد المستخدمة عوامل مساعدة للاكسدة الكهربائية للميثانول .
٨ـ جامعة كورك في ارلندة	ـ تطوير مهابط بعض الفلزات النبيلة لاختزال الاوكسجين عليها .

بعض الاستنتاجات

أقترحت تطبيقات كثيرة لخلايا الوقود الا ان استخداماتها الحاليةلاتزال محدودة وتتناول بشكل رئيس الميادين التي نتطرق اليها كالاتي :

١ ـ أستخدمت في بعثات استكشاف الفضاء الخارجي خلايا وقود من نـوع خلية الوقود القلوية (AFC) وخلية وقود البوليمر الصلب(SPFC) بنجاح كبير منذ الخمسينيات من القرن العشرين ، ولاتزال تستخدم لهذه الاغراض بكثافة عالية •

٢ ـ خلايا الوقود مهمة للاغراض العسكريـة بسبب سهولـة حملها ونقلها وبسبب قلة المخاطر الحرارية والصوتية التي تنجم عنها في الاستعمال ، وبسبب عمر استخدامها الطويـل قياسـا ببطاريات الخزن الحامضية والقاعدية وبالبطاريات الجافة •

٣ ـ استعمال خلايا الوقود لاغراض الدفع والسحب كان موضوع دراسات كثيرة الا ان التطبيقات الميدانية لهذه الخلايا في هذا المضمار لاتزال محدودة •

٤ ـ ساعدت خلايـا الوقـود على تشجيـع مفهوم لامركزية توليد الطاقة الكهربائية • فقد أستخدمت بهذا المفهـوم وحدات توليد طاقة كهربائية مستقلة في المباني والدوائر والمستشفيات وفي المناطق النائية حيـث تزداد الحاجة الى الكهرباء • وأستخدمت كذلك في المنشآت الصناعية وفي المحركات بأنواعها المختلفة •

٥ ـ أستخدمت خلايـا الوقود كمعمل قدرة دائمة لاجراء عمليات التحليـل الكهربائي ، فهي لاتحتاج الى معدات اضافية لتحويل طاقتها الكهربائية الى تيار مباشر كي تفي باغراض التحليـل الكهربائـي • وباستعمال الحرارة المتولدة من تفاعل الخلية بجانب الطاقة الكيميائية للتفاعـل يمكن الحصول الى كفاءة قدرة تزيد على ٩٠٪ •

٦ – يمكن في المستقبل القريب بناء خلايا وقود متكاملة تشتمل على محولة لتحويل الفحم الى غاز الذي يمكن استعماله كوقود للخلايا والحصول على قدرات تصل الى (١٥٠–١٠٠٠) ميكا واط (MW) بكفاءة تزيد على ٥٠٪ ٠

٧ – يؤمل انتشار خلايا وقود حامض الفسفوريك (FAFC) في الاسواق في مستهل القرن الجديد لتوليد قدرة تصل الى ١١ ميكا واط (II MW)

٨ – بسبب كفاءة التحويل العالية لخلايا الوقود فان هذه الخلايا تفيد في تجهيز القدرة الكهربائية حيثما تدعو الحاجة اليها ٠ إن معظم البحوث الجارية في العالم في الوقت الحاضر تصب في هذا المجال ٠

٩ – لخلايا الوقود مجال واسع للتطبيق في تشغيل السيارات الكهربائية في المستقبل القريب ٠

مزايا خلايا الوقود ومستقبلها :

تمتلك خلايا الوقود كثافة تحويل عالية ، وتمتاز بسهولة حملها ونقلها، وبقلة المخاطر الحرارية والصوتية التي تنجم عن استعمالاتها ، وبعمر استخدامها الطويل قياساً ببطاريات الخزن الحامضية والقاعدية والبطاريات الجافة ٠ ويصل عمر استخدام خلية الوقود الى اكثر من ٤٠ ألف ساعة (أي حوالي ٤٫٥ سنة) ، والبحوث جارية بكثافة عالية لاطالة هذا العمر ٠ وخلايا الوقود عموماً لاتولد غازات سامة أو مسببة للتأكل أو التلوث أو ذات أضرار على البيئة ، كما أنها لاتولد الضوضاء ٠ ونظراً لعدم احتواء خلايا الوقود على أجزاء متحركة فان متطلبات صيانتها تكون قليلة ومحدودة ٠ وخلايا الوقود تكون عادة غالية الثمن لان المواد المستعملة في صناعتها يجب أن تتوفر فيها مواصفات عالية ، وقد تصل الى (٣) أمثال كلفة الكهرباء المستحصل حاليا من المصادر الأخرى، الا ان محاولاتجادة تجرى حاليا للتقليل عن هذه الكلفة ٠

تتمتع خلايا الوقود بالكفاءة العالية وبالنظافة والمرونة والهدوء • فالكفاءة الكهروكيميائية المستحصلة منها في درجات الحرارة الاعتيادية تصل الى (٤٠–٦٠)٪ والى (٨٠–٩٠)٪ بالنسبة لخلايا الوقود التي تعمل في درجات الحرارة العالية وذلك باستعمال القدرة الكهربائية والحرارية للخلايا معا • ولهذه الاسباب وغيرها فقد شاع استعمال خلايا الوقود في شتى مجالات الحياة في دول كثيرة ، والاعتماد عليها آخذ بالتوسع لاسيما خلال العقدين الاخيرين من القرن العشرين • فقد اصبحت تستخدم كوحدات توليد طاقة كهربائية مستقلة في الدوائر والمستشفيات والمباني والمنشآت الصناعية •ويعتمد تطور استعمال سيارات المستقبل الكهربائية وشيوعها على خلايا الوقود لاسيما بسبب انعدام آثارها التلوثية واعمرها الطويل ولعدم حاجتها الى عمليات إعادة الشحن •

تعتمد خلايا الوقود منذ زمن طويل في مركبات ومشاريع الفضاء الخارجي بكثافة عالية • وخلايا الوقود لها أهمية خاصة وبالغة للاغراض العسكرية • وتستخدم خلايا الوقود معامل قدرة دائمة في اجراء عمليات التحليل والطلاء الكهربائي ، فهي لاتحتاج الى معدات اضافية لتحويل طاقتها الكهربائية الى تيار مباشر • تعدّ خلايا الوقود بدائل مناسبة عن بطاريات الخزن وعن المولدات الكهربائية ، واصبحت تستعمل في تشغيل المحركات بأنواعها المختلفة بما فيها التي تستخدم لاغراض الدفع والسحب وغيرها •

ولخلايا الوقود استعمالات مكثفة حاليا في أجهزة الفيديو وكاميراته وفي المسجلات وفي تشغيل الزوارق والكرافانات • ولعل من المزايا المهمة الاخرى لخلايا الوقود ان الوقود السائل المستعمل فيها أمينة لاتترتب على استخداماتها أية مخاطر • ويمكن استخدامها في درجات الحرارة الاعتيادية والمنخفضة ، وكذلك العالية نسبياً ، فهي تعد الآن البديل المناسب للوقود المستعمل في تشغيل المحركات والمركبات • ان التقانة المستخدمة لتصنيع خلايا الوقود ليست أعقد من تلك التي تستخدم في صناعة خلايا الخزن الحامضية والقاعدية وغيرهما من الخلايا • وقد آن الأوان لادخال هذه التقانة الى العراق تمهيداً لاقامة صناعة وطنية لها •

بعض المصادر المعتمدة

1 — N. Davis , Chem. Ind., 1982, 424.

2 — A. F. Sammells, J. Chem. Fdu., 1983, 60, 320.

3 — D. Linden, Handbook of Batteries and Fuel Cells, New York, Macraw - Hill, 1984.

4 — G. J. Kleywegt and W. L. Driessen, Chem. Br., 1988, 24 (6), 447.

5 — D. S. Cameron, G. A. Hards, B. Harrison and R. J. Porter, Platinum Metals Review, 1987, 31 (4) , 173.

6 — G. Ciprios, J. Batzold and M. Lieber man, Advances in Energy Conversion Engineering. A. S. M. E., 1967, 357—364.

7 — R. W. Glazebrook, J. Power Sources, 1982, 7, 215.

8 — P. A. Attwood, A. G. Dixon, A. C. Houston and R.T. Short, J. Chem. Tech. Biotechnol., 1984, 34 A, (1), 10.

9 — B. D. McNicol, Proc. of the Workshop on Electrocatalysis of Fuel Cell Reactions, Electrochem. Soc, 1979, 79, 93.

10 — W. Vielstich, Fourth Intr. Symp. Batteries, Brighton, England, 1964, Pergamon, P. 271.

11 — B. D. McNicol in « Studies in Electrical and Electronic Engineering II — Power Sources for Electric Vehicles, Ch. 8, ed. B. D. McNicol and D. A. J. Rand, Elsevier, Amsterdam, 1984 .

12 — M. W. Breites, Electrochemical Processes in Fuel Cells, Springer Verlag, Berlin, 1969.

13 — J. T. G lass, G. L. Cahen, G. E. Stoner and E. J. Taylor, J. Electrochem. Soc., 1987, 134 (1), 58.

14 — S.S. Krupit, Intersoc. Energy Convers. Eng. Conf., 1975,222.

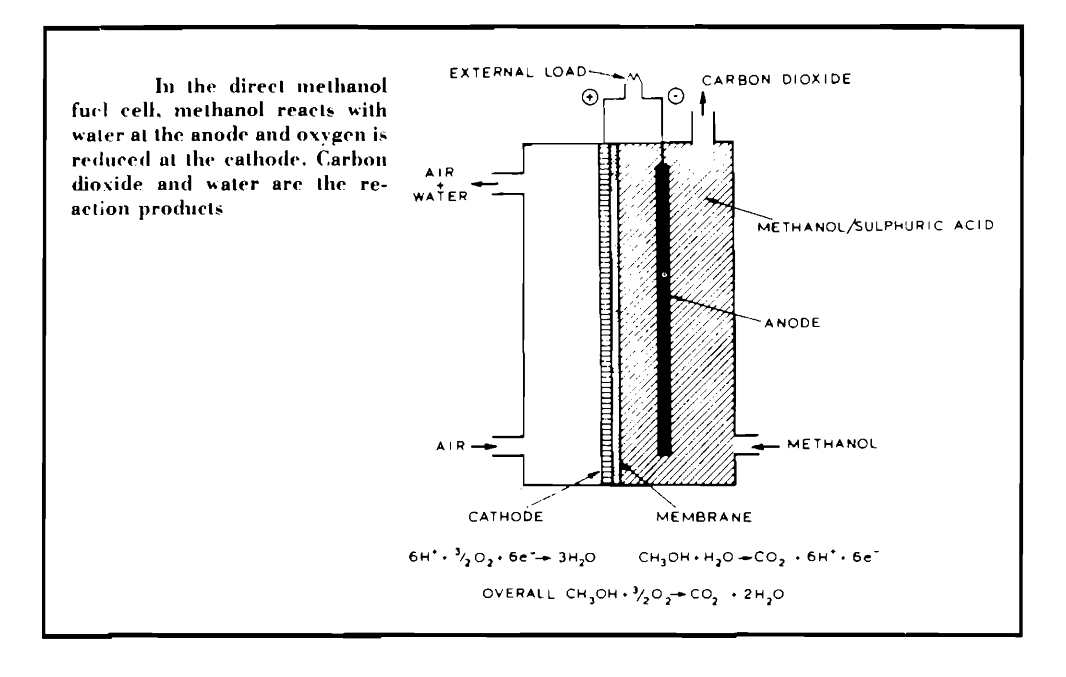
15 — S. Sarangapani, U.S. Patent No. 5683829A, 4. November 1997, Ser No. 447, 114.

16 — M. Hogarth, P. Christensean, A. Hammett and A. Shukla, J. Power Sources, 1997, 69 (1 - 2), 125 - 136 .

17 — M. Hogarth, etal, J. Power Sources, 1997, 69 (1 - 2), 113 - 124 .

18 — P. S. Kauranen, Ph.D thesis, School of Teknillinen Korkeakoulu, Helsinki, Finland. Winter, 1996. No. 5766.

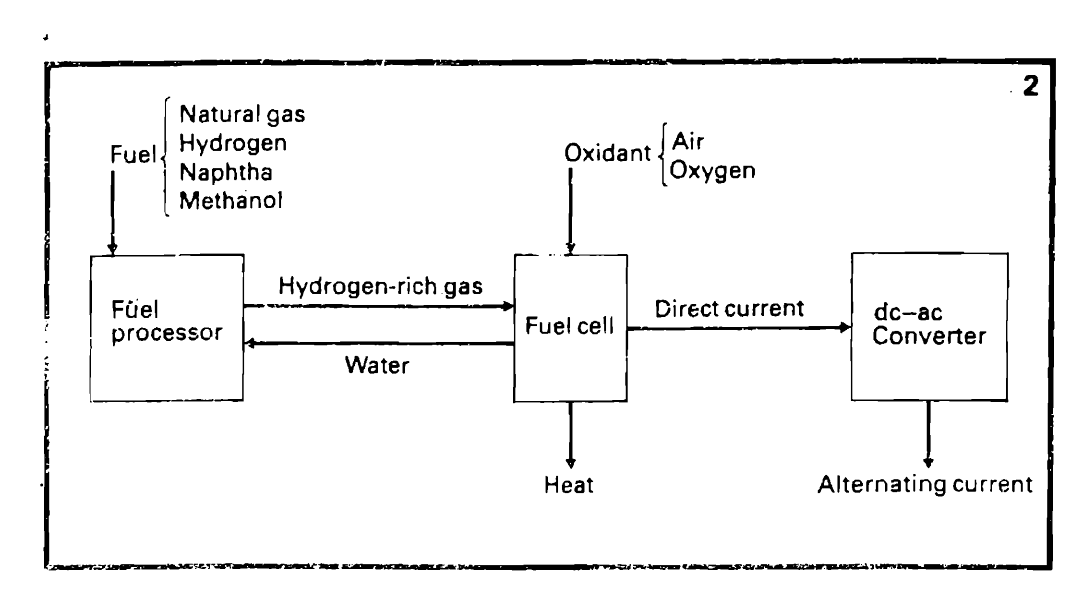
19 — S. Sarangapani. U. S. Patent 0.95 - 447114,22 May 1995.



الشكل (١)

مخطط يبين تركيب خلية الوقود الميثانولي المباشـــرة باستعمال حامض الكبريتيك كألكتروليت. يتفاعل الميثانول مع المـاء عند المصعد(أنود anode) .

في حين أن الاوكسجين يعاني اختزالاً عند المهبط (كاثود cathode) وينتج عن التفاعل غاز ثنائي اوكسيد الكربون(CO_2) والماء (H_2O).



الشكل (٢)

معمل من خلايا الوقود مربوطة معا لتوليد الطاقـــة الكهربائيـــة . يلاحظ في المعمل المراحل الثلاثة الاساسية في عمليــــة الطاقـــة الكهربائية.

الشكل (٣)

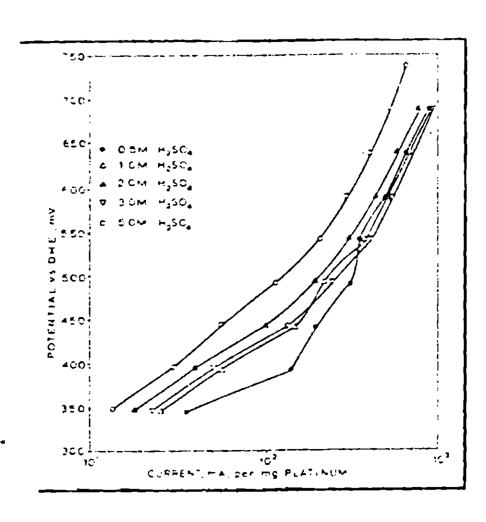
علاقة الجهد المقاس لقطب المصعد (مقابل جهد قطب الهيدروجين الدينمي) الذي تتم عنده اكسدة الميثانول مقابل كثافة التيار المتولد.يبين الشكل آن في عملية الاكسدة الكهربائية للميثانول تزداد فعالية البلاتين المستخدم عاملا مساعدا على المصعد باضافة مواد فلزية مرقية اليها.

الشكل(٤)

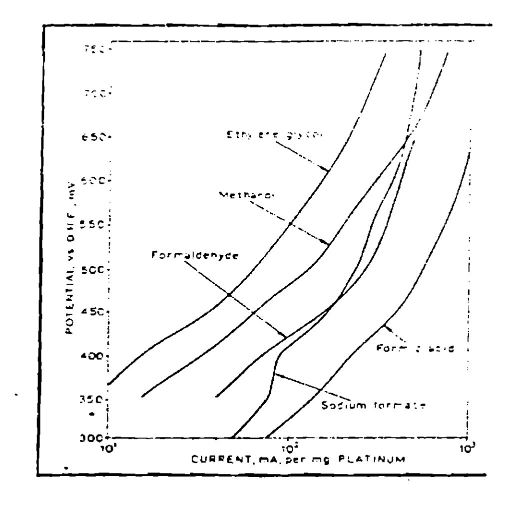
يبين أداء قطب المصعد الذي تتم عليه اكسدة الميثانول بتغير طبيعة الالكتروليت المستخدم في الخلية.

الشكل (٥)

يبين أداء خلية الوقود الميثانولي المباشرة بازدياد درجة حرارة التشغيل.



الشكل(٦)
يبين ازياد فعالية خلية الوقود الميثانولي المباشرة المشتملة على حامض الكبريتيك كألكتروليت بخفض تركيز الحامض.



الشكل (٧)
يبين تغير فعالية خلية الوقود الميثانولي المباشرة باستعمال وقود من مواد اخرى بدل الميثانول.

الاساليب المستخدمة في التنبؤ بالزلازل

الدكتور امين ابراهيم الياسي
كلية العلوم ـ جامعة بغداد

الملخـــص

يتناول البحث العديد من التقنيات التي طـُورّت في مجال التنبــؤ العلمي بالــزلازل قبل حصــولها • تتضــمن معظــم هــذه الطــرق المراقبة الدقيقــة للتغــيرّات التي تحصــل وبشــكل ضــئيل في الصخور القريبــة من الصــدع قبل تكســرها وتحــرر الطــاقة الزلزاليــة منها • هنــالك ظواهــر عديــدة اخرى يمكــن اســتخدامها في التنبــؤ بالزلازل ايضــا ، مثل دراســة الثغــرات الزلزاليــة ، الارتفــاع والهبــوط غــير الطبيعــي في ســطح الارض ، مراقبة ميــلان الارض ، نشــاط الهــزات الدقيقــة ، النشــاط المغناطيســي ، تركيــز غــاز الــرادون والتصرفــات الشــاذة لبعــض الحيوانــات ، كمــا تنــاول البحث التطــرق الى بعض الوســائل الحديثة جــدا في هــذا المجــال •

تمهيـــد :

هل يمكن التنبؤ بالزلازل قبل حصولها ؟ سؤال يوجهه الناس بصــورة مستمرة الى الاختصاصيين والعاملين في مجال علم الزلازل • ويتكرر هــذا السؤال كلما وقع زلزال مدمر في منطقة معينة من العالم وقد ازداد تكراره في شهر آب من السنة الماضية بعد سلسلة الزلازل المدمرة التي ضربت تركيــا آنذاك • إن الاجابة عن هذا السؤال لا يمكن ان تكون إجابة مباشرة وذلــك لان موضوع التنبؤ بالزلازل هو موضوع شائك ومعقد ، فضلا عن ان الجهود الجدية العلمية في هذا المجال تعد حديثة نسبيا • وسيصل القارىء الكــريم

بنفسه الى الاجابة اذا إطلّع على الجهود المبذولة من قبل علماء الزلازل في بقاع العالم كافة سواءً في محطات الرصد الزلزالي أم في المختبرات العلمية أم في الجامعات للوصول الى افضل الاساليب التي تمكنهم من التنبؤ بالزلازل التي سيستعرضها هذا البحث بشكل موجز •

تطور فكرة التنبؤ بالزلازل

لقد بدأت فكرة التنبؤ بالزلازل منذ قرون عديدة وكانت تلك الطرق في حينها مجرد وصف محتمل للزلازل التي سوف تحصل أو ملاحظات متعلقة بترتيب الكواكب او التصرفات الغريبة لبعض الحيوانات • وكانت معظم هذه الطرق غير كافية للوصول الى تنبؤات دقيقة •

ومنذ عام ١٩٦٠ أخذت الجهود العلمية في مجال التنبؤ بالزلازل تنمو بشكل متسارع وانفجاري في اليابان وروسيا والصين والولايات المتحدة ، وكانت هذه الجهود تهدف في أقل تقدير الى وضع تنبؤ معتمد للزلازل قدر الامكان وبأسلوب يماثل التنبؤات الخاصة بالارصاد الجوية • حيث كانت معظم الاهتمامات منصبة على التنبؤ بوقت حصول الزلزال المدمّر ومكانه ، وبشكل خاص تلك التي يحتمل وقوعها خلال فترة زمنية قريبة جدا • فضلا عن ذلك كان هنالك اتجاه آخر وهو التنبؤ بشدة الزلزال أو مقداره في الموقع الذي يُحتمل وقوعه فيه • وهذا العامل يؤدي دورا مهما في اختيار المواقع التي ستقام عليها المنشئات المهمة مثل السدود او المستشفيات او المفاعلات النووية وكل المرافق الحيوية الاخرى التي يجب ان تقام في اماكن خالية من الزلازل أو هادئة زلزاليا لابعادها عن خطر الكوارث مستقبلا •

قبل نحو اربعين عاما ، كانت احتمالية التنبؤ بحصول زلزال هي مجرد حُلُم بالنسبة لعلماء الزلازل ، لكن الجهود العلمية التي بُذلت في الربع الاخير من القرن العشرين اعطت الكثير من التفاؤل والامل • لقد اوضحت هذه الجهود ما نصه : « تحت بعض الظروف هنالك احتمال للتنبؤ بأنواع

معينة من الزلازل وبدقة معتدلة ومقبولة ، إلاّ ان الطموح للتنبؤ بكل انواع الزلازل المحتملة سيحتاج الى بذل جهود علمية كبيرة لوجود عـدد كبير مـن المتغيرات والاحتمالات وبسبب التغيرات الشاذة في خواص الزلازل » •

إنّ أبرز الاحداث التي بعثت الامل من جديد في حقل التنبـؤ بالزلازل هو البلاغ الذي نُشر في روسيا عام ١٩٦٩ حول ما حصل في منطقة غـارم في سيبيريا • حيث أن هذا المكان كان مسرحا لاحداث زلزال مدمر عـام ١٩٤٦ ، وبعد ذلك قامت مجموعة من العلماء بنصب اجهزة للرصد الزلزالي في المنطقة للحصول على معلومات اكثر عن الزلزالية التأريخية لهـذه المنطقة المهجورة • وبعد فترة من البحث الجاد توصلت الجهود العلمية الى ملاحظـة وجود تغيرّ مهم في النسبة بين سرعة الموجة الزلزالية الطولية (P) وسرعة الموجـة المستعرضة (S) • يحصل هذا التغير بشكل ثابت قبيل وقوع الزلزال الرئيس • إذ تتناقص هذه النسبة من ١ر٧٥ الى ١ر٦ وبعد حصول الـزلزال تعود هذه النسبة الى قيمتها الطبيعية • وعندما وصلت هذه المعلومات الـى العلماء الامريكيين قاموا باعـادة فحص السـجلات الزلزاليـة القديمة لبعض الزلازل المعروفة وتوصلوا منها الى نتائج مشجعة • فعلى سبيل المثال ، كـان يُعتقد بأن زلزال سان فرناندو لا يمتلك زلازل محسوسة تسبق الـزلزال المدمر ، ولكن بعد المراجعة لتلك السجلات وجد بأنه يمتلك تاريخا زلزاليـا يُشير الى وجود تغير في النسبة (P/S) للاهتزازات التي سبقت الـزلزال الرئيس المدمر •

لقد وُضعت هذه النظرية تحت الاختبـار من قبل علمـاء الـزلازل في نيويورك ، وقامت جامعة كولومبيا بوضع شبكة مـن اجهزة الرصد الزلزالي قرب منطقة الزلزال عام ١٩٧١ • وفي عام ١٩٧٣ كان العالم ياش أغراول علـى ثقة كبيرة من المعطيات التي حصل عليها وتنبأ بحصول زلزال في الاول مـن آب ١٩٧٣ او خلال يومين بعد هذا التاريخ وبمقدار (٥ر٢) على مقياس رختر •

وقد حصل بالفعل زلزال في الثالث من آب عام ١٩٧٣ وبمقدار (٥ر٢) على مقياس رختر • ومنذ ذلك الوقت بدأ إستخدام هذا الاسلوب في محاولات اخرى للتنبؤ ، وكان العديد منها ناجح وبدقة مقبولة •

إن كل هذه النتائج اعطت قوة دافعة جديدة لدراسات التنبؤ وحثت على ظهور نظريات جديدة لتوضيح الخواص الفيزياوية للصخور والمواد المساهمة بتوليد ظاهرة الزلزال • وقد ظهرت في هذا المجال نظريتان كان لهما رواج كبير وهما : الاولى نظرية التمدد ــ الانتشار التي يفضلها معظم علماء الزلازل الامريكيين ، والثانية نظرية التمدد ــ عدم الاستقرار المستخدمة من قبل العلماء الروس (شكل ــ١ــ) • إن المكونات الاساسية لكلا النظريتين تتضمن حصول تمدد نتيجة لمطاوعة الصخور الموجودة في القشرة الارضية • وخلال عملية تراكم الاجهاد تتولد كسور دقيقة ينتج عنها تمدد في الحجم ضمن الكتلة الصخرية • يحصل هذا التمدد قبل القص النهائي على امتداد مستوى الصدع او الفالق الرئيس • إن الصخور التي تتعرض للتمدد تولد تغيرات اخرى مثل تغير مقدار المقاومة النوعية الكهربائية للصخور والتغير في النسبة بين سرعة الموجتين الطولية والمستعرضة وغيرها من التغيرات •

الاحداث التي تسبق الزلزال (النذر الزلزالية)

تسبق اغلب الزلازل نذر او احداث مختلفة ولاختلاف هذه النذر كانت هنالك انواع متعددة ومختلفة من اساليب المراقبة والرصد التي يستخدمها علماء الزلازل اليوم في محاولة للوصول الى تنبؤات اكثر دقة تتعلق بمعرفة اوقات حدوث الزلازل الرئيسة • ويمكن تصنيف هذه الاحداث او النذر الى اربعة أصناف ، هي :

١ ــ التغيرات في الزلزالية •

٢ ــ التغيرات الفيزياوية ــ الكيمياوية •

٣ ــ التغيرات في شكل سطح الارض •

٤ ــ تصرفات بعض الحيوانات •

هنالك وسائل واساليب حديثة جدا في هذا المجال فضلا عما ذُكر آنفا ، كما أن هنالك نُذُرا للزلازل التي ستحصل ضمن فترات زمنية قصيرة فضلا عن وجود نُذُر للزلازل التي يُحتمل وقوعها ضمن مدى زمني بعيد والمتمثلة بنظرية الثغرات الزلزالية في التنبؤ • وفيما يأتي شرح توضيحي مبسط لكيفية الاستفادة من هذه التغيرات وغيرها من الظواهر في عملية التنبؤ بالزلازل •

١ ـ التغيّرات في الزلزالية :

وهي تشمل نوعين من التغيّرات هما : (شكل ـ ١)

آ ـ التغيّر الحاصل في نسبة سرعة الموجتين الطولية (P) المستعرضة (S) علما ان هذا التغيّر قد يحدث في انواع معينة من الزلازل دون غيرها اي انها قد لا تحدث على نطاق عالمي •

ب ـ التغيّر في عدد وتردد الزلزالية الدقيقة او الهزات التي تسبق الزلزال الرئيس • إن مثل هذه الهزات والاسراب قد تمثل إنذارات بقدوم زلزال اكبر • ومع ذلك ، فأن هنالك بعض الزلازل التي لا تسبقها مثل هذه النذر والتي يصعب التنبؤ بها • وقد يحدث احيانا ان تأتي اسراب الزلازل في موقع معين ويحصل الزلزال والدمار في موقع آخر ، كما حصل في جزيرة آزو في اليابان خلال زلزال الخامس عشر من كانون ثانٍ ١٩٧٨ •

٢ ـ التغيّرات الفيزياوية ـ الكيمياوية :

وهي تشمل :

آ ـ التغيّر في المقاومة النوعية الكهربائية للصخور في موقع الزلزال (شكل ـ ١) • ويعتمد هذا العامل على كمية الماء التي تحتويها

الصخور • فعندما تكون الصخور مشبعة بالماء يكون هنالك انخفاض في المقاومة النوعية الكهربائية (أو زيادة في التوصيلية) خلال فترة التمدد وبسبب انفتاح الشقوق الصغيرة سيسمح لمزيد من الماء باختراق المنطقة المتأثرة • وعليه يمكن الاستفادة من الانخفاض في المقاومة الكهربائية للصخور بوصفه دليلا على قدوم احداث زلزالية • وقد حصلت هذه الحالة في منطقة غارم في سيبيريا التي أشير اليها في بداية الموضوع •

ب ــ التغيّرات في مستويات المياه في الآبار : (شكل ــ١)

لقد اصبح معروفا منذ اكثر من نصف قرن بأن الزلازل لها القدرة على ان تسبب تذبذبا في مستوى مياه الآبار • فعلى سبيل المثال ، تذبذب الماء في احد الآبار بولاية وسكونسن بسعة بلغ مقدارها اربعة امتار بعد زلزال آسام الذي حصل في آب عام ١٩٥٠ • كما ان مستويات المياه في العديد من الآبار القريبة من موقع زلزال الاسكا عام ١٩٦٤ تذبذب قبيل وقوعه ، وهنالك الان دليل على ان بعض الآبار تستجيب للتغيّرات في مستوى المياه في مواقع الزلازل خلال حدوثها وهذا ما حصل ايضا في الزلزال الذي ضرب اليابان في أيار عام ١٩٧٤ والزلزال الذي ضرب برث في استراليا في تشرين الاول عام ١٩٦٨ • كما حدثت تغيّرات في مستويات المياه قبل حصول زلزال هايجنغ المشهور في الصين الذي حصل في الرابع من شباط عام ١٩٧٥ ، وقد ادى مثل هذه التغيّرات دورا مهما في تقدم عملية التنبؤ بالزلازل • كما لوحظ في كالفورنيا ان التغيّرات في مستوى الماء قد تسبق وقوع الزلزال ببضع ساعات •

جـ ـ انبعاث غاز الرادون :

لقد لوحظ إنبعاث هذا الغاز الخامل من الآبار العميقة او حتى مــن انطقة الصدوع او الفوالق في المناطق الزلزالية في عدة اماكن في العالم • مثال ذلك تحرر هذا الغاز في منطقة طاشقند عام ١٩٦٦ • يزداد محتوى الرادون في مثل هذه الحالات الى ضعف قيمته في الحالات الاعتيادية قبل حصول الزلزال • وبعد وقوع الزلزال يعود غاز الرادون الى قيمتــــه الاعتيادية • إن طريقة انبعاث غاز الرادون غير مطبقة بشكل واسع وذلك لعدة اسباب منها ، عدم توفر تسجيلات عن الكميات الاعتيادية لهذا الغاز وصعوبة المراقبة المستمرة فضلا عن العديد القليل من الآبار العميقـــة الموجودة في المواقع النشطة زلزاليا •

٣ ـ التغيرّات في شكل سطح الارض :

من المحتمل انتكون التغيرّات الشاذة فيشكل سطحالارض هي من اكثر النذر الزلزالية المسجلة • ومن افضل الامثلة الموثقة بشكل جيد ولمدى زمني طويل هو ما حصل في زلزال بيجاتا في اليابان عام ١٩٦٤ (شكل ـ٢) ، الذي بلغ مقداره حوالي ٧٫٥ على مقياس رختر • لقد بـــدأت القياســـات الدقيقة للمنطقة في اواخر القرن التاسع عشر ، واظهرت معدلا ثابتا وبطيئا من الارتفاع منذ عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٥٥ • وفي عام ١٩٥٨ حصل معدل عالٍ في الارتفاع اعقبته حركة بسيطة استمرت الى وقوع زلزال نيجاتا • تتطابق هذه المراحـــل المختلفة مع نموذج التغيرّات الموضح في الشكل (١) •

لقد استخدم جهاز قياس الميل لتسجيل العديد من النذر التي تســـبق الزلازل وفي عدة مواقع • ففي اوديغاهارا في اليابان حيث وقع زلزال بمقـــدار ٦ على مقياس رختر عام ١٩٦٠ اوضحت اجهزة قياس الميل وجــود ارتفاع في مناطق تبعد حوالي ١٠٠ كيلومتر عن المركز السطحي للزلزال حيث ازداد فيهـــا معدل الارتفاع في الاشهر الستة التي سبقت الزلزال • قبل الزلزال بشـــهر

واحد سجلت العديد من المحطات مَيلا باتجاه المركز السطحي للزلزال . ربما يُفسر هذا الانقلاب في الميل على انه إنذار قصير الامد ناتج عن الانضغاط القليل على الحجم المتمدد . كما سبق زلزال كالفورنيا عام ١٩٧١ الذي كان بمقدار ٤٫٥ رختر ميلان في الارض قبل حصول الزلزال بشهر واحد ، مع حدوث ميلان عكسي باتجاه المركز السطحي للزلزال قبل عشر ساعات فقط من وقوعه .

٤ ـ تصرفات بعض الحيوانات :

لقد تم حديثا توثيق الكثير من الظواهر التي تشير الى ان انواعا مختلفة من الحيوانات تُظهر تصرفات شاذة او غير طبيعية قبل وقوع بعض الزلازل بفترة وجيزة . لقد طوّر الصينيون بشكل خاص اساليب مراقبة الحيوانات وسجلوا التصرفات الغريبة والشاذة التي يمكن الاستفادة منها كدلائل او علامات للتنبؤ بزلزال وشيك الوقوع . فقد تم تدريب العديد من الناس في اغلب المدن الكبيرة على مراقبة تصرف الحيوانات وتسجيل اية علامات غير اعتيادية في مراكز مُعدة ومتخصصة لهذا الغرض . لقد طُبع كتيب بست صفحات من قبل دائرة الزلازل في تاينتسن في الصين عام ١٩٧٣ ، وفيما يأتي مقتطفات من الجمل التي كان يحتويها :

« تستطيع الحيوانات أن تدرك الانذارات التي تسبق وقوع الزلزال ، دعنا نوجز لك بعض هذه التصرفات الشاذة والمستخدمة لاغراض التنبؤ بالزلازل .

* الدجاج والاغنام والبغال والخيول ترفض الدخول الى الحضائر .
* الفئران تبقى متحركة او تهجر مساكنها .
* الثعابين التي في دَور السبات تترك مخابئها بوقت مبكر .
* الصقور خائفة وتطير باستمرار وترفض العودة الى اعشاشها .
* ترفع الارانب آذانها وتقفز يائسة وتقوم بتقليب الاشياء .
* تكون الاسماك في حالة هلع وتقفز فوق مستوى سطح الماء .

إن كل اسرة ، وكل قاطن في منزل يشارك في تدوين الملاحظات ، ويجب ان ينتصر الناس في حربهم ضد الزلازل ومخاطرها في نهاية المطاف » .

على الرغم من ان تصرفات الحيوانات هي ليست عنصر الانذار الوحيدة التي تست مراقبتها إلا ان تصرفاتها الغريبة مضافة الى علامات اخرى وفرت للصين سنة غير اعتيادية من التنبؤ عام ١٩٧٦ حيث استطاعت الصين التنبؤ بنجاح بثلاثة زلازل . هذه الزلازل هي في منطقة يننان في ٢٩ مايس وفي منطقة تشيكوان في ١٦ آب وعلى الحدود بين منطقتي يننان ـ تشيكوان في ٧ تشرين الثاني . وصلت مقادير هذه الزلازل الى نحو ٧ على مقياس رختر . إلا ان اهم الانجازات التي توجت جهود التنبؤ هو التنبؤ بزلزال هايجنغ الشهير في ٤ شباط عام ١٩٧٥ الذي وصل مقداره الى ٧٫٤ على مقياس رختر . لقد دمر هذا الزلزال المدينة عن بكرة ابيها ، ولكن عدد القتلى كان قليلا ، علما بأن عدد السكان قرب المركز السطحي للزلزال يصل الى نحو مايون شخص . ويعود الفضل في قلة الخسائر في الارواح الى الانذار المبكر والامر بالاخلاء الذي تبلّغ به الناس قبل حصول الزلزال . لقد كانت الثعابين واحدة من الانذارات المبكرة المفيدة ، حيث انها تركت مخابئها وخرجت الى سطح الارض في منتصف شباط وهي الفترة التي تكون فيها الثعابين مازالت متجمدة وفي دور السبات . مع كل هذا ، فأن الحيوانات وحدها ليست دليلا مؤكدا او بعيدا عن الخطأ في عملية التنبؤ ، لأن مثل هذه الانذارات لم تعمل بشكل كفوء لا هي ولا النذر الاخرى واخفقت في التنبؤ بزلزال تانكشان المأساوي عام ١٩٧٦ .

وسائل وطرق حديثة اخرى في التنبؤ :

هنالك عدد من الوسائل والطرق الحديثة في التنبؤ بالزلازل نذكر فيما يأتي قسما منها وذلك لكثرتها وتعددها :

فالثغرات الزلزالية مثلا هي واحدة من هذه الوسائل • وتعرف الثغرات الزلزالية بانها المناطق الموجودة على امتداد انطقة الصدع او الفالق الفعّال ولها القدرة على توليد هزات ارضية ولكنها لم تُوّلد حديثا اية زلازل كبيرة • حيث يُعتقد بأن هذه المناطق تخزن مطاوعة تكتونية (انفعال) ، وعليه فهي مرشحة لان تكون اماكن لزلازل مستقبلية كبيرة • فمثلا قيست معدلات الحركة على طول اجزاء من صدع سان اندريز قبل حصول الزلازل الحديثة منذ عام ١٩٧١ الى وقتنا الحاضر وقد حُددت مثل هذه الثغرات الزلزالية بشكل تجريبي في مناطق عديدة على امتداد هذا الصدع •

من الطرق الحديثة في التنبؤ ايضا ، التي استخدمها علماء الزلازل الصينيون هي مراقبة الارتفاع المفاجىء في درجة حرارة قشرة الارض بصور تلتقطها الاقمار الصناعية • ويشير زهو لين الاستاذ في الاكاديمية الصينية للتكنولوجيا الفضائية بان هذه الطريقة مكنتهم من التنبؤ بثمانية عشر زلزالا من اصل اربعة وعشرين زلزالا وقعت بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٢ • لقد اكتشف الخبراء الصينيون إرتفاعا مفاجئا في درجات الحرارة تتراوح من درجتين الى ست درجات في المنطقة التي تصيبها الزلازل نجمت اساسا عن الطاقة الحرارية المنبعثة • وعبر مراقبتهم للقشرة الارضية بشكل منتظم بأنظمة الاستشعار عن بُعد يأمل هؤلاء الخبراء في تحسين قدرتهم على التنبؤ في بلد تضربه الزلازل بصورة مستمرة •

ومن الاساليب الحديثة في هذا المجال ما تقدم به باحث يوناني حول امكانية التنبؤ بوقوع الزلازل قبل عدة اسابيع وذلك بقياس التيارات الكهربائية التي تحدث في صخور القشرة الارضية • وقد طُرح هذا الاسلوب بعد النجاح في التنبؤ بثلاثة زلازل حدثت في اليونان عام ١٩٩٥ ولوحظ فيها ارتفاع في التيار الكهربائي تزامن مع التشققات التي سبقت هذه الزلازل•

ومن الظواهر الغريبة التي تسبق الزلازل هي الضوضاء والاصوات المميزة فقسم من هذه الاصوات يماثل اصوات الرعد ، وقسم منها يماثل اصوات القصف المدفعي وقسم آخر يماثل اصوات تمزيق القماش او تكسير الخشب . إن مثل هذه الاصوات سُجلت قبل لحظات او ساعات وحتى قبل ايام من وقوع الزلزال .

هنالك بعض التغيّرات التي تسبق الزلازل لا يمكن التحري عنهما او التحسس بوجودها إلاّ باستخدام اجهزة خاصة كالتغيّرات التي تحصل في الضغط الجوي والتشويه الذي يحصل في المجال المغناطيسي الارضي او في الخواص المغناطيسية للصخور القريبة من موقع الزلزال .

وختاما لابد من القول بأن الوصول الى تنبؤ دقيق للزلازل سيحتاج الى وسائل وتقنيات وجهود علمية كبيرة ، يتركز معظمها في مراقبة التغيّرات الطفيفة التي تحصل في خواص الصخور القريبة من الفالق او الصدع الذي يحدث عنده الزلزال المحتمل فضلا عن مراقبة التصرفات الغريبة للحيوانات .

المصادر العربية

١ ـ مقدمة في الزلازل ـ١٩٨٥ـ د. سهيل السنوي ـ الموسوعة الصغيرة ١٥٣.

٢ ـ الزلازل الكتاب الرائد ـ١٩٨٨ـ تأليف بروس بولت ـ ترجمة د. سهل السنوي ود. امين ابراهيم ـ الطبعة الاولى / بيت الحكمة.

٣ ـ مجلة الجيولوجيا والتنمية ـ١٩٩٩ـ طريقة جديدة للتنبؤ بحصول الزلازل ـ ص ٢٥.

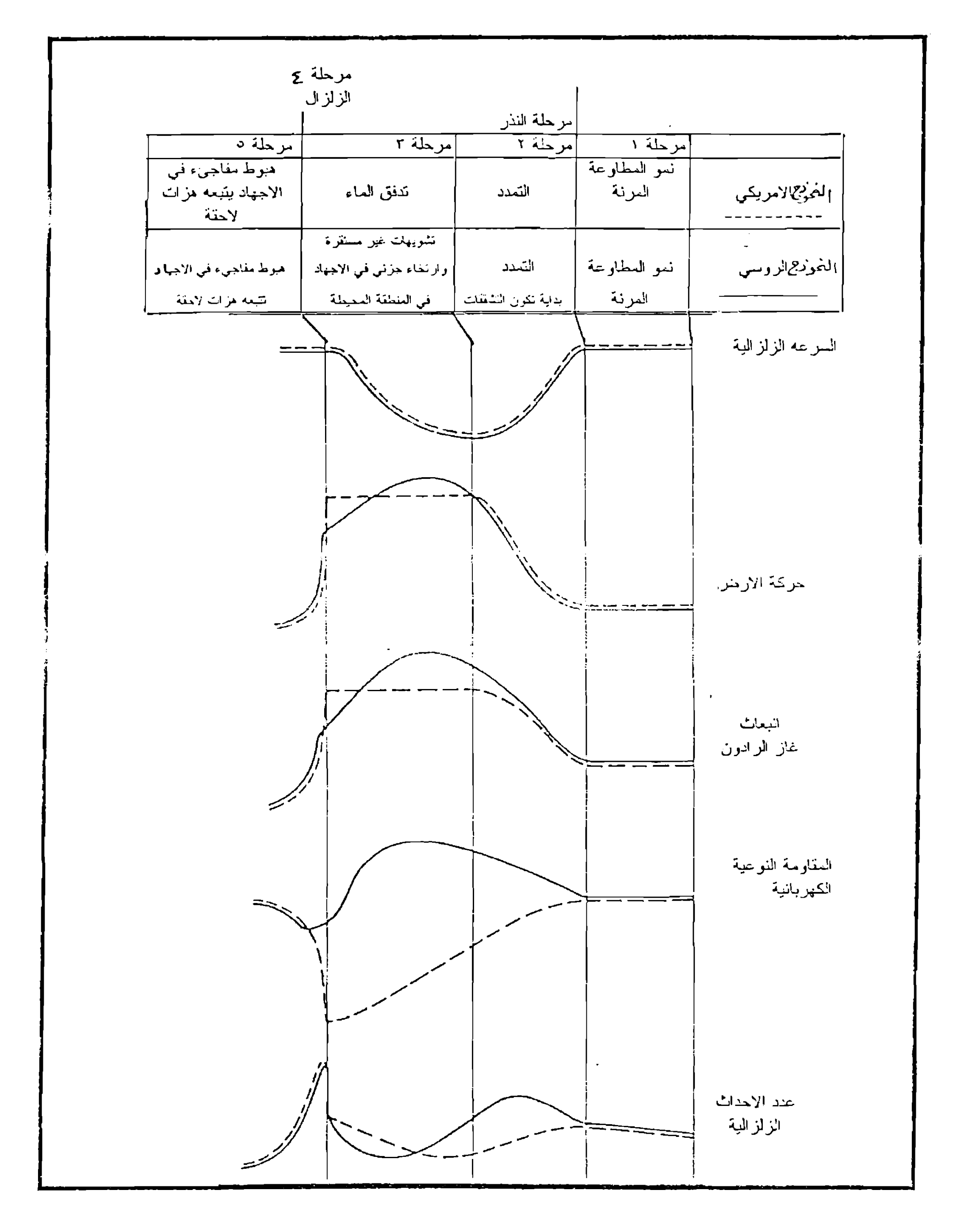
المصادر الاجنبية

1 - Introduction to seismology ; M. Bäth, 1973, Birkhauser Verlag .

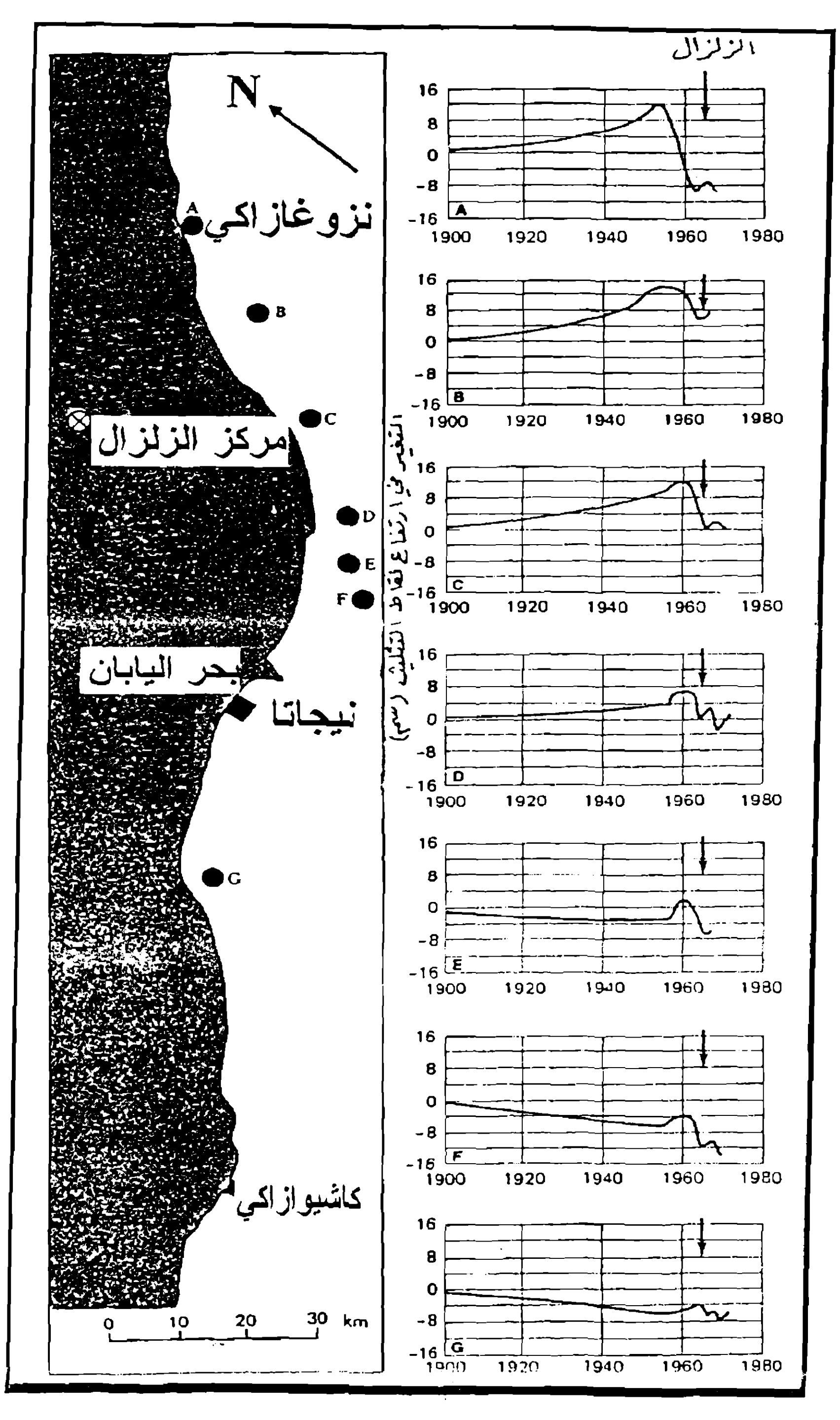
2 - Environmental Geology, D. R. Coates, 1981, John Wiley and sons .

3 - Environmental Geology, E. A. Keller, 1985, 4th Ed. Charles E. Merrill publishing company .

4 - Fundamentals of Geology, C. W. Montgomery, 1997, 3rd. Ed., Wm. C. Brown puplishers .



شكل -- ١- النموذجان المقترحان لتوضيح الميكانيكية المسؤولة عن الزلزال . لقد استخدم نموذج التمدد - الانتشار في الولايات المتحدة { الخط المتقطع } واستخدم نموذج التمدد - عدم الاستقرار في روسيا { الخط المتصل } فالمنحنيات المتقطعة توضح علامات النذر المحتملة وفقا للموذج الامريكي والمنحنيات المتصلة توضح علامات النذر المحتملة وفقا للموذج الروسي.



شكل -٣- الارتفاع الشاذ في قشرة الارض والذي لوحظ لما يقارب عشرة سنوات قبل ان يضرب مدينة نيجاتا زلزال عام ١٩٦٤ والذي كان بمقدار ٧,٥ رختر .

جوانب من النظرية اللغوية العربية
في ضوء الدراسات الحديثة

د. هدى محمد صالح الحديثي
استاذ مساعد ـ قسم اللغة العربية
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

الملخص

تمثل اللغة وسيلة التواصل بين ابنائها ، واداة الفهم التي من خلالها يعبرّ كل قوم عن حاجاتهم ، والاستعمال اللغوي بهذا المفهوم هو حيز الاداء الوظيفي للفظ الذي ينتقل به من اللامحسوس الى المحسوس .

وقد تجاوزت الدراسات اللغوية العربية النظرة الى اللفظ بمفرده معزولا عن معناه الى مجال اوسع يشمل نسيجه النصّي متضمنا ذلك في مصطلحاتهم (النسيج ، التصوير ، التأليف ، الترصيف) وصولا الى اندراج المعنى في السياق عامة لتكون بذلك دلالة اللفظ في التفكير العربي آلية مبناها على الانتقال من الدال الى المدلول ، وهذا المنطلق مشترك بين عموم اللغات رغم تمايزها وتغايرها عن بعضها .

ويحاول هذا البحث تأصيل ذلك من خلال عرض نصوص من علماء العربية المختصين بشأن اللغة ووظيفتها امثال عبدالقاهر الجرجاني وابن جني ومتابعة اثر ذلك في نصوص علماء لغويين غربيين امثال دي سوسير وتشومسكي دليلا على تواصلية المعرفة بين بني البشر مع اختلاف اجناسهم .

تمهيـــد :

تمثل اللغة وسيلة التواصل بين ابنائهـا ، واداة الفهم التي من خلالهـا يعبرون بها عن حاجاتهم فهي كما حدّدها ابن جني في قوله : « اللغة اصـوات يعبرّ بها كل قوم عن حاجاتهم »[1] وهذا التعريف او التحديد قد اعطى اللفظ دلالته وهويته التي ينتقل بها من اللا محسوس الى المحسوس فيمثل الاستعمال اللغوي حيز الاداء الوظيفي للفظ حتى تتجلى دلالته بهذا الاستعمال فتكـون الدلالة او المعنى المتحصل نتيجة الاستعمال « عملية اقتران الدال بالمدلول »[2] لان كلمة « معنى » تشير الى ما يميل عليه الدال[3] وذلك ان « الالفاظ ادلـة على المعاني وليس للدليل الا ان يعلمك الشيء على ما يكون عليه .. »[4].

وقد تجاوزت الدراسات اللغوية العربية النظرة الى اللفظ بمفرده معزولا عن معناه متخطية حدوده الضيقة كدال معرّى من كل سياق الى مجال اوسع ليشمل نسيجه النصّي والدليل على ذلك اقتران دراساتهم اللغوية المنطلقـة من اللفظ اساسا بمصطلحات اخرى كالنسيج والتصوير والتأليف والترصيف وصولا الى اندراج المعنى في السياق عامة لتكون بذلك دلالة اللفظ في التفكير العربي « آلية مبناها على الانتقال من الدال الى المدلول »[5] وهذه الاليـة مشتركة بين عموم اللغات على الرغم من تمايزها وتغايرها عن بعضها فانتظـام الدوال اللسانية في الظاهرة اللغوية اساسا في بيان نوعية الدلالات وطـرق توليدها وصولا الى ترجمة تلك الظاهرة اللغوية الى الواقع بعد ان اسـهمت ثلاثة عناصر اساسية في ذلك وهي النموذج النحوي الذي ينشأ من العلاقـة بين الدلائل ، والنموذج التواصلي الذي ينشـأ من العلاقـة بين الدليـل والمرسل والمتلقي ، والنموذج الدلالي الـذي ينشـأ من العلاقة بين الدليـل

---

(١) الخصائص ٤٣/٢ .
(٢) الاسلوب والاسلوبية : عبدالسلام المسدّي ص ١٥٣ .
(٣) ينظر بنية اللغة الشعرية / جان كوهين ص ١٩٤ .
(٤) دلائل الاعجاز / عبد القاهر الجرجاني ط ١٩٨٩ ص ٤٨٣ .
(٥) التركيب اللغوي للادب / لطفي عبد البديع / ص ٤٢ .

والواقع ، فاذا تمت عملية الاخبار والابلاغ الوظيفي للغة فان غائية الحدث النصّي وقصديته تكمن في تجاوز الابلاغ الى الاثارة ودراسة الخصائص اللغوية التي يتحول بها الخطاب عن سياقه الاخباري الى وظيفته التأثيرية والجمالية محولة اللغة من جهد فكري محض الى جهد فكري بقصد جمالي .

وقد اكد العرب المنهج العقلي في دراساتهم عناصر التركيب اللغوي لان الغرض من نظم الكلم ان تتناسق دلالاته على وفق ما يقتضيه العقل وهذا ما اشار اليه عبدالقاهر الجرجاني بقوله : « ليس الغرض بنظم الكلم ان توالت الفاظها في النطق بل ان تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل »[٦] مؤسسا القول في مبدأ من اهم مبادىء نظريات العلاقات الحديثة هو مبدأ التعلق والارتباط بين اجزاء الكلم واضعا الحدّ بقوله : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها يسبب من بعض »[٧] راسما اوجه التعلق هذه على ثلاثة طرق معلومة « تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما »[٨] وصولا الى وضع اساس بنيوي للجملة المفيدة فان « مختصر كل الامر انه لا يكون كلام من جزء واحد وانه لابد من مسند ومسند إليه »[٩] جاعلا ذلك كله محكوما بما اصطلح عليه بـ (معاني النحو واحكامه) جاعلا منه « السبيل في كل شيء له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئا من ذلك يعد وان يكون حكما من احكام النحو ومعنى من معانيه ثم إنّا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركا بينهم »[١٠].

---

(٦) دلائل الاعجاز ص ٥٠ .
(٧) نفسه ص ٤ .
(٨) نفسه ص ٤ .
(٩) نفسه ص ٧ .
(١٠) نفسه ص ٨ .

والذي اشار اليه الجرجاني يمثل لبنة اساسية في النظرية اللغوية العربية التي يقابلها في الدراسات الحديثة مصطلح الكليات اللغوية التي اهتم بهـــا العالم اللغوي نعوم تشومسكي في كتابه جوانب من نظرية النحو[11] وكتابـه اللغة والعقل[12] فيعدها « المشكلة النظرية في علم اللغة التي تثير اكبر قدر من التحدي هي مشكلة اكتشاف مبادىء النحو الكلي التي تتداخل مع قواعـد النحو الخاص لتقدم تفسيرات لظواهر تبدو اعتباطية ومشوشة »[13] فاللغـة عنده لغة كلية عامة وان قواعدها كامنة عند الانسان حين يولد يجسدها الـى الواقع كفايته اللغوية وحدسه لتكون دالة على قواعد لغته الخاصة ومن هنـا جاء الاشتراك في بعض نواحي اللغات على اختلافها مشيرا الى ان هناك نقاطـا مشتركة بين اللغات جميعها مكونة ما يعرف بالقواعد العامة مثل نطق الاصوات ورموزها وطبيعة الكلمات وطريقة انتظامها في تركيب معين[14].

ولا يعني تشومسكي بهذا وجود مطابقة تامة بين جميع الاساسـيات في اللغات ومن هنا تأتي مهمة اللساني في الكشف عن المشترك بين اللغات وما يميز لغة من اخرى[15] لكن لا يمنعنا القول من وجود تماثل في المستوى الظاهري ــ فضلا عن المستوى العميق ــ بين اللغات يشير الى وجود ضوابط وقواعـد كلية تجمع بين اللغات ــ وقد تجسد هذا في نص الجرجاني فيما يتعلق بنظرية العلاقات وطرق تعليم الكلم بعضها ببعض ؛ القائمة على فرضية الارتبـــاط البنياني او بنائية اللغة المعتمـدة على ثلاثة انواع من الكليـات هي الكليات الجوهرية والكليات الصورية والكليات التنظيمية معتمدة على العناصر الخاصة

---

(١١) نفســـه ص ٢٩ .
(١٢) نفســـه ص ٦٨ .
(١٣) نفســـه ص ٦٨ .
(١٤) ينظر جوانب من نظرية النحو / تشومسكي ص ٢٩ .
(١٥) ينظر المبادىء والاعلام ص ٢٦٥ ونظرية النحو العربي في ضوء مناهـــج النظر اللغوي الحديث / نهاد الموسى ص ٢٩ .

بكل لغة من فئات مثبتة يكوّن مجموعها الكليات الجوهرية وتتمثل في اية لغة بوجود فئات الاسم والفعل والحرف ، اما الكليات الصورية فتندرج ضمنها القوانين المشتركة بين اللغات واما الكليات التنظيمية فتظهر الطريقة التي تترتب بها قواعد كل مستوى من مستويات اللغة وتحدد تداخل العلاقات فيما بين هذه القواعد كما انها تترتب اجراء القوانين في كل مستوى قياسا الى المستوى الاخر والى قوانين من نوع آخر(١٦) ؛ يقابل ذلك كله في قوانين البحث الدلالي بوجود ثلاث صور تمثل الكليات اللغوية تلك التي ذكرها تشومسكي وهي صورة (سميوتركيبية) تفترض وجود نموذج نحوي ، وصورة تداولية تفترض حضور نموذج تواصلي ؛ وصورة (سميودلالية) تفترض حضور نموذج للواقع ؛ وفي هذه الصور الثلاث تعمل انماط العمليات اللسانية كأنماط تحويلية حيث تحول المعيار اللساني الاولي (النحوي) في بعض المواقع من النص الى معيار دلالي وهذا يعني وقوع انزياح على مستويات ثلاثة هي :

انزياح في العلاقة بين الدلائل وانزياح في التداول بين الدليل والمرسل والمتلقي وانزياح في الدلالة اي في العلاقة بين الدليل والواقع ؛ وقد اشار الجرجاني الى هذه التحولات البنيوية في عناصر اللغة حين تحدث عن تعلق الكلم بعضها وبعض مقيدا جميعها بمعاني النحو واحكامه على وفق مقتضيات العقل جاعلا من الالفاظ دوالا على معان مشيرا الى ان اللفظ قبل الاستعمال ليس له دلالة وان العلم بمواضع اللغة علم مشترك وانما يحكم قيمتها الاستعمال فلو « ان واضع اللغة كان قد قال (ربضَ) مكان (ضربَ) لما كان في ذلك ما يؤدي الى افساد ؛ واما نظم الكلم فليس الامر فيه كذلك لانك تقتفي في نظمها اثار المعاني وترتبها على حسب ترتّب المعاني في النفس ... ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير

---

(١٦) ينظر الالسنية ولغة الطفل العربي ص ١٤١ والنظرية الالسنية ص ٨٧ .

وما اشبه ذلك مما يوجب اعتبار الاجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث و ضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح »[17] وفي ذلك اشارة الى الجملة الاصولية القائمة على التركيب السليم وصحة العلاقات بين اجزائه المؤدية غرضها في المعنى المؤثرة في نفس السامع فربما تكون الجملة اصولية القواعد غير صحيحة المعنى فتخرج بذلك من وضعها بالتواصل والى ذلك اشار سيبويه في كتابه بان الاستفاضة من الكلام والاحالة حيث قسم الكلام الى مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب فان (المستقيم الحسن قولنا « اتيتك امس وسآتيك غدا .. والمحال نقضنا اول الكلام باخره بأن نقول : اتيتك غدا وسآتيك امس .. والمستقيم الكذب قولنا حملت الجبل وشربت ماء البحر والمستقيم القبيح وضعنا اللفظ في غير موضعه كأن نقول « قد زيدا رأيت وكي زيدا يأتيك .. والمحال الكذب ان يقال : سوف اشرب ماء البحر امس »[18].

ونجد السيرافي في اشارته الى معاني النحو وحركات اللفظ وسكناته وحروف اللفظ واثر التركيب الدقيق وتأليف الكلام بتقديم بعضه على بعض في قبول معنى الجملة او رفضه تبعا لحسن نظمه[19].

كذلك عني الخطابي بتأليف الكلام وسلامته بنيويا ومعنويا في اعتبار النظم الجيد في ان « تنتظم اجزاء الكلام ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان »[20] فتتشكل عنده العناصر النظمية الثلاثة متمثلة باللفظ دالا والمعنى الاصلي مدلولا ونظوم تأليف العبارة وصولا الى

---

(١٧) دلائل الاعجاز ص ٤٩ .
(١٨) الكتاب ١/٨ .
(١٩) ينظر الامتاع والمؤانسة / ابو حيان التوحيدي ١/١٠٧ .
(٢٠) بيان اعجاز القرآن / الخطابي ص ٢٧ .

التأثير المعنوي الدقيق لبيان العبارة في النفس بعد الاستعانة بما يمتلكه المنشيء من ثقافة وحذق ومهارة تتجسد في صياغة امكانات اللغة على الوجه الـــذي يميزه من سواه •

اذن يمكننا القول بادراك علمائنا حقيقة اعتماد منطق اللغة على العقــل مميزين في ذلك بين مستويات اللغة وانها لا تتمثل الى الواقع الملموس الا مــن خلال اجتماع ثلاث قوى : النطق الخارج وهو اللفظ الحادث للصوت والنطق الداخل وهو المعنى والمفهوم مما كان مستقرا كامنا في النفس والقوة الانشائية التي جبل عليها الانسان وقدرته في الربط بين الالفــاظ والمعانــي على وفق مقتضيات العقل وقدرته الذهنية لان عملية ادراك المعنى تبدأ من المســتوى الباطنــي وعملية التأويل الــدلالي تدرك من المســتوى اللفظي المحســوس بالتركيز على العلاقات النحوية بين المفردات لان العملية الوصفية وسيلة ادراك الجانب العقلي في الصياغة ومن ثَمَّ فان ايّ تغير في المستوى العقلي الباطني يتبعه تغير في الشكل الخارجي للصياغة وعلى هذا فان المتكلم يخلق انماطــا تركيبية ترتبط به وتدل عليه وبهذا يتميز مبدع عن اخر بقدرته على ان يوقــع اختياره على بعض الامكانات دون بعضها الاخر[٢١]•

لقد ادرك علماؤنا وعبدالقاهر الجرجاني من بينهم على وجه التحديــد حقيقة المستوى العميق للبنية اللغوية التي اول ما تقوم عليه هو مبدأ التعالــق بين اجزاء الكلم يقابل ذلك ما قال به تشومسكي بالبنيــة العميقة ليؤكد كــل منهما على وجوب امتلاك المتكلم مقدرة لغوية يكتسبها عن طريق النحو تسمح له بانشاء عبارات لا منتهى لها عند تشومسكي اما عند عبدالقاهر الجرجانــي فمقيدة بمعاني النحو القائمة على فروق ووجوه كثيرة للكلام يتحكم بصورها مقدرة المتكلم وكفايته اللغوية • ويرى كلاهما ان الجملة التي تولدها القواعد النحوية يجب ان تكون مقبولة من ابناء اللغة[٢٢] ويضرب تشومسكي مثالين

---

(٢١) ينظر / النحويين عبدالقاهر وتشومسكي مجلة فصول ١٩٨٩/ ص ٣١-٣٢

(٢٢) ينظر البنى النحوية / تشومسكي ص ١٧ .

على قواعدية وعدم قواعدية جملة يكون المعنى هو الفاصل بينهما من حيث القبول او الرفض[٢٣] :

١ ـ الافكار الخضراء التي لا لون لها تنام بشدة • (جملة صحيحة قواعديا) •

٢ ـ بشدة تنام الخضراء التي لا لون لها الافكار (جملة غير صحيحة قواعديا) •

فالفرق بينهما فرق دلالي كما يقول جان كوهين (بنية اللغة الشعرية ص ١٠٤ •

اذن العلاقة بين الالفاظ والمعاني تحتاج الى نشاط عقلي لا يمكن ملاحظته الا من خلال التركيب المنطوق وفي ذلك اشارة الى ضرورة وجود علاقة بين الفكر واللغة تهدف الى ابراز المعنى المراد وفي ذلك نقول ان فكر الانسان فكر في الالفاظ والمعاني معا وقد اشار الجرجاني الى هذا المفهوم بقوله : « معلوم ان الفكر من الانسان يكون في ان يخبر عن شيء بشيء او يصف شيئا بشيء او يضيف شيئا الى شيء او يترك شيئا في حكم شيء وهذا كله فكر في امور معقولة زائدة على اللفظ »[٢٤] ؛ فاعمال الفكر اساس في صحة الجملة ومقبوليتها ومعقوليتها وموافقتها دلالة الحال ولكن اعماله تقوم على رعاية القواعد النحوية حفاظا على الصحة النحوية والدلالة معا وموافقة الجملة الصحة النحوية اكدها الجرجاني بقوله : « النحو في الكلام كالملح في الطعام اذ المعنى ان الكلام لا يستقيم ولا تحصل منافعه التي هي الدلالات والمقاصد الا بمراعاة احكام النحو فيه من الاعراب والترتيب الخاص »[٢٥] لذا وصف

---

(٢٣) نفسه ص ١٩ـ٢٢ .

(٢٤) دلائل الاعجاز ص ٤١٦ .

(٢٥) اسرار البلاغة ص ٦٥ / عبدالقاهر الجرجاني ط ١٩٦٩ .

بعض النظم الذي لم تتوفر فيه الصحة النحوية بفساد النظم مشيرا الى ذلك بقوله : « ومما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة التأليف ان لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت ان صحته ان يعمل عليها .. فاذا ثبت جميع ذلك ان ليس هو شيئا يميز توخي معاني هذا العلم واحكامه فيما بين الكلم »[٣٦] .

فقوانين النحو هي التي تحدد العلاقات بين الالفاظ وهي موجودة في وعي كل من المتكلم والسامع وما الكلام الا الانجاز الفعلي لتلك القوانين وهذه جميعا هي التي تجعل من الجملة اصولية او غير اصولية ؛ ذلك ان المعنى النهائي متحصل من عقد رباط بين الالفاظ بوصفها رموزا صوتية متعارف عليها والمعاني فترتب الالفاظ على وفق نسق المعاني في التركيب وقد اشار علماؤنا الى ضرورة وجود قرائن دالة على الاعراب لا من اللبس منها عقلية ومنها لفظية وصولا الى الجملة الصحيحة نحويا ودلاليا .

وقد اخذت اللسانيات الحديثة (وتقابل هذه التسمية علم اللغة) مادتها مما سبقها من جهود عرب وغير عرب مضيفة الى ما اخذت من ارث فكري مصطلحات الدرس اللساني ووسائله في التطبيق على المنهج اللغوي الحديث ولم تكن بدايات تشومسكي الا من لبنات اساسية ادعي لها انها من لبنات افكار العالم دي سوسيرا الذي كان رائد البنيوية في عصره ؛ ولو امعنا النظر في بحوث العالم سوسير لوجدناها تلتقي كثيرا مع ما جاء به علماؤنا لاسيما عبدالقاهر الجرجاني حين يتكلم في العلاقات واحكام النحو وقوانينه فنقف على سبيل المثال عند قول سوسير : « قيمة الكل تبرز من خلال اجزائه والاجزاء تحصل على قيمتها بالنظر في مكانها في الكل لهذا كانت العلاقات السياقية للجزء بالنسبة للكل لها نفس اهمية علاقة الاجزاء بعضها ببعض »[٣٧] اشارة منه الى

---

(٣٦) دلائل الاعجاز ص ٨٤ .

(٣٧) فصول في علم اللغة العام ــ دي سوسير ص ٢٢٢ .

اهمية السياق في انشاء علاقات بين اجزاء الكلم لان السياق لا يتألف الا من وحدتين لغويتين او اكثر تختزنها الذاكرة مترابطة منطقيا ومن خلال هذا الترابط تكتسب الكلمات علامات متميزة لتلك العلاقات المختلفة[٢٨] المكونة لوحدة النص فيما بعد ولما يتميز به النص من التفرد واتصافه بالوحدة هذه انما يعني ان كل جزء فيه ملتئم مع سائر الاجزاء في نظام واحد يجعل لكل استعمال لغوي خصوصية خاضعة لمنطق ينتظم العمل الادبي كله[٢٩].

فالتماسك السياقي (العلائقي بمفهوم الجرجاني) شرط اساسي بين كل وحدات اللغة المعتمدة على كل ما يحيط بها في السلسلة الكلامية على تتابع اقسامها لان « المادة اللغوية لا توجد الا من خلال ترابط الدال والمدلول فان تخلّف عنصر فان المادة تتلاشى »[٣٠] ليكون النص فيما بعد ليس الا « تجليا تفاعليا للعمليات الذهنية المتفاعلة مهما كانت درجة التفاعل »[٣١] ، واذا كان « للكلام الواحد جسد وروح فجسده النطق وروحه معناه »[٣٢] كما قالَ ابن طباطبا ومثله يقول سوسير : « من جانبي الوحدة اللغوية يقارنان او يشبهان غالبا بالانسان الذي يتكون من جسم وروح »[٣٣] فان الوحدة اللغوية او العنصر اللغوي (اجزاء الكلم) لا ينكشف معناه الا من خلال تسييق الوحدة اللغوية ووضعها في سياق معين وهذا ما اشار اليه العالم الانكليزي فيرث حين اعتمد اصحابه منهجا عمليا قائما على ان معنى الكلمة في استعمالها في اللغة او الطريقة التي تستعمل بها والدور الذي تؤديه وان معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات اخرى وان معاني هذه الوحدات لا يمكن

---

(٢٨) نفسه ص ٢١٣-٢١٤ .

(٢٩) نفسه ص ٢١٤ .

(٣٠) نفسه ص ٢١٤ .

(٣١) دينامية النص تنظير وانجاز / محمد مفتاح ص ٢٣ .

(٣٢) عيار الشعر / ابن طباطبا ص ١٢١ .

(٣٣) فصول في علم اللغة العام ص ١٨٢ .

وصفها وتحديدها الا بملاحظة الوحدات الاخرى التي تقع مجاورة لها[٣٤] وهذا ما اشار اليه عبدالقاهر الجرجاني بقوله : « الالفاظ لا تتفاضل من حيث الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وان الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما اشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ »[٣٥] ولان اللغة تتميز بكونها وسيلة اتصال فانها « تشكل مجموعة من الدوال تعمل ضمن نظام ذي قواعد مجردة معقدة في الان فلا يستطيع الدال ان يقوم بمهمة الاتصال او التبادل الا اذا اوجد ضمن مجموعة اخرى من الدوال تمنحه بوجوده بينها وظيفة اتصالية معينة كما تستقي تلك الدوال وظيفتها من وجودها معه »[٣٦] فلا « حالة للفظة مع حاجتها تعتبر اذا انت عزلت دلالتها جانبا واي مساغ للشك في ان الالفاظ لا تستحق من حيث هي الفاظ ان تنتظم على وجه دون وجه »[٣٧] وذلك اننا « لا نتكلم كلمات مفردة ولكنا نكون منها تراكيب : عبارات او جملا ووحدات اكبر من ذلك ووظائف هذه الوحدات هي بيان الارتباطات والعلاقات بين الاشياء وهذه التراكيب النحوية مع الصوت والكلمة مجتمعة تكون وحدات الكلام المتصل »[٣٨].

والامثلة على ذلك كثيرة نستمدها من ارثنا العربي من نصوص علمائنا لغويين ونحاة وبلاغيين وعلماء اصول لا لكي نقارن بين جهودهم وجهود الغربيين ولكن لنعيد الى تراثنا هويته الحقيقية ونقول ردا على بعض الدعوات المضللة لبعض الباحثين العرب من ان الدراسات اللغوية الحديثة اتت بما لم

---

(٣٤) ينظر علم الدلالة ـ احمد مختار عمر / ص ٦٨ .

(٣٥) دلائل الاعجاز ص ٤٦ .

(٣٦) اللسانيات من خلال النصوص / عبدالسلام المسدي ص ١٢ .

(٣٧) دلائل الاعجاز ص ٥٠ .

(٣٨) دور الكلمة في اللغة ـ ستيفن اولمان / ص ٣١ .

يأت به علماؤنا الاوائل • وبحثنا هذا قراءة للتراث اللغوي العربي احيـــاء وتخليصا لاصالته من شوائب لا تزينه بل تشينه وليس للنظرية العربية فخـــر الا ان تكون نظرية لغوية عربية اصالة مع نظرة تأمل فيما يطرح من ابحـــاث ودراسات جديدة تعزز قيمة التراث في انفسنا ولا تسحبنا نحو الدراســـات اللغوية الحديثة ، لتنتمي اليها بلا جذور فقد فطن القدماء الى خصائص اللغــة واحاطوا بها علما فلم تكن عندهم اللغة مجرد اصوات منطوقة انما هي الفـــاظ توصل الى المعنى •

وليس الاختلاف في الدراسات بين القدماء والمحدثين الا في المســميات مع سبق القدماء باستيعاب جوانب النظرية اللغوية باوجهها المتكاملة بدليـــل بقائها وخلودها وعدم تصدعها رغم ما تواجهه من هجمات لغوية مضللة مـــن لدن ابنائها انفسهم •

واذا كان لابد من الاشارة الى مسألة مهمة تتعلق بالدراسات اللغويـــة الحديثة انها لها الفضل في ايقاضنا من سبات تركنا خلاله البحث في جهـــود علمائنا المتقدمين لانشغال هؤلاء الباحثين بالحضارة الغربية والترف اللغـــوي ــ ان صح التعبير ــ الذي اراه طعما يصطاد به جهد الباحث العربي ليصـــب اهتمامه فيما يقدمه الغربيون ومن ورائهم بعض الباحثين العرب المنبهريـــــن بجهودهـــم •

التعليـم الطبـي في الإسـلام
أصوله وبرامجه وأساليبه

الدكتور عبداللطيف البدري

الملخـص

استعراض للتعليم الطبي قبل ظهور الاسلام وفي الاقطار التي دخل اليها بعد ذلك وما كانت عليه مناهج التعليم في صدر الإسلام وفي العهـود التي تلتها والتي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ٠

في البحث إشارات موجـزة الى أسـاليب التعليم الطبي ومناهجه عن ظهور المدارس الطبية والمشافي التي كان الطب السريري يدرس بها ، وتسمية لبعض اعلام الطب في تلك الحقب ومؤلفاتهم ٠

تمهيـــد :

١ ـ تعليم الطب قبل الاسلام :

كانت في الأمصار التي دخلها الاسلام في أول عهده ، خمس مدارس للطـب ، واحـدة في كل من الاسكندرية وانطاكيـة وحران والحـيرة وجنديسابور وكان لهذه المدارس أثر في تعليم الطب في الإسـلام خاصة اثنتان منها وهما مدرسة طب الاسكندرية ومدرسة جنديسابور ، الأولى لآن فرق الطب كانت قد ظهرت فيها ، والثانية لأن معظم من ترجم كتب الطـب قد جاءوا منها ٠

كان في مدرسة الاسكندرية ثلاثة فرق للطب ، لكل منها مذهـب في تدريسه علما وممارسة[١] :

---

١ ـ جلال محمد عبدالحميد موسى ـ منهـج البحث العلمـي عند العـرب ـ دار الكتب ١٩٧٢ ، ص(١٧٤ ـ ٢٠٠)٠

الفرقة الأولى : فرقة القياس ، ويذهب أصحاب هذه الفرقة الى أن علاج الأمراض موقوف على معرفة العلة ، وللوصول الى ذلك ينبغي الأخذ بأمرين : الأول أن لاشيء في طبيعة الانسان أو بدنه إلا وله غاية يمكن من معرفتها أن يستدل على علة الأمراض وكيفية علاجها ، والثاني أن لعلم التشريح نصيبا وافرا في اعانة الطبيب على معرفة الداء والدواء •

ينتسب أبقراط لهذه الفرقة وكان المرض عند الأبقراطيين يحدث من غلبة أحد اخلاط الأربعة ، الدم والبلغم والمرة الصفراء والمرة السوداء • بني هذا الاعتقاد على أن الأشياء تتكون من أمزجة اربع ، الحار والبارد والرطب واليابس ، فاذا كان مزجها محكما في الكيفية والكمية كانت الصحة[٢] ، واذا زاد أحدها أو نقص او امتنع عن المزج حدث المرض ، وقد اخذ أبقراط فكرة الأمزجة هذه عن انباذوقليدس ٤٣٥ ق•م •

الفرقة الثانية : فرقة الحيلة ، والمراد بالحيلة أن يرد إشخاص العلل ومولداتها الى الأصول الحاضرة الجامعة لها ، وجعلوا مبادىء علاجهم أن الضدان لايجتمعان فان كان المرض حاراً كان العلاج بالبارد طبيعة • ترك أصحاب هذه الفرقة القول بالأخلاط وأخذوا بأقوال الطبيعيين في الجزء الذي لايتجزأ وأن من اجتماع تلك الاجزاء يتركب البدن ومن حركتها تنشأ الحياة بدخولها وخروجها من البدن عن طريق المسام ، وعلى ذلك يكون العلاج مقصوراً على منافذ الجسم بضمنها المسام ، ففي حالة اتساعها يلزم تطبيقها والعكس بالعكس •

تبع أصحاب الحيلة جماعة تعرف بالروحانيين أو النفثيين الذين أسندوا القوى الحيوانية الى النفث أي الى نوع من الروح الحيوي يسري في الجسم •

---

٢ ـ عبدالرحمن بدوي ـ التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ـ مكتبة النهضة العربية ـ ص(٦٩) •

الفرقة الثالثة : فرقة التجربة ، واليها ينتسب جالينوس ، وكان أن حصل بعد موت أبقراط وهن في تعاليم المدرسة الأبقراطية فأدى ذلك الى ظهور مدرسة جديدة في الاسكندرية هي مدرسة الامبيريقيين ويدعون أصحاب التجربة وهم من شيعة فيلنوس ويجمل قولهم كالتالي : « ليس سبب المرض وباعثه هو ما يعني الطبيب بل العقار الشافي هو الذي يهمه ». والمثال على ذلك ان العسل ليس مناسبا لمن عنده سوداوية أو افرازات مرارية مع أنه حسن للمتقدمين في السن .

تجرد أتباع هذه الفرقة من كل تعاليم الطب الفلسفي أو التأملي وأعلنوا سيادة التجربة على أنها المصدر الوحيد لتعلم فنون الطب وعدّوا القياس جزءاً من أجزاء التجربة الثلاثة ، وهي الملاحظات الشخصية وملاحظات الغير والقياس ، وحددوا مجالات التجربة في أربعة أقسام : (١) القسم الطبيعي وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض وما يتولد من منفعة أو ضرر في كل منهما . فالرعاف يحدث من غلبة الدم الذي يزيد على ما تعنى الطبيعة بحفظه ، والعرق وسيلة من وسائل اخراج فضول الهضم من البدن ، والقيء والإسهال وسيلة للتخلص من المواد الزائدة عن حاجة الجسم التي قد تسبب المرض وتفسد على الطبيعة عملها . (٢) القسم العرضي ، مثل أن يعرض للانسان جرح من سقوط أو غيره فيخرج منه دم قليل أو كثير يعقبه في المشاهدة منفعة أو ضرر وهي تجارب حقيقية يستفيد منها الطبيب دون من أن يكون قد تعمد إحداثها . (٣) القسم الإرادي ، والمراد به ما يقع على النفس كأن يخطر ببال احدهم معالجة مريض بشيء من الأشياء وبصورة معقولة فيجرب ذلك . (٤) القسم النقيل ، وقد جعلوا له ثلاثة أوجه ، نقل الدواء في الأدواء كالنقلة من ورم الحمرة الى داء النملة ، ونقله في الأعضاء كأن يداوى به الفخذ مثل مداواة العضد . ونقل الدواء الى الدواء كالنقل من السفرجل الى الزعرور في مداواة انطلاق البطن .

ولما ضعف تدريس الطب في الاسكندرية اجتمع فريق من مدرسة جالينوس وانتقوا مما في كتبه ما ظنوه يكون منهاجاً كاملا لتدريس الطب ووضعوا ما انتقوه في ستة عشر كتابا وصاروا يعتمدون هذه الكتب وحدها في تدريس الطب في مدرستهم ، وقد جعلوها في سبع مراتب (١) المرتبة الأولى وجعلوها بمنزلة المدخل الى صناعة الطب . وجميع ما في هذه المرتبة أربعة كتب هي كتاب الفرق وكتاب الصناعة الصغيرة وكتاب النبض الصغير وكتاب أغلوقن ، (٢) المرتبة الثانية وهي من أربعة كتب أيضاً ، كتاب الاسطقسات وهو أول كتاب يصلح ان يبدأ به من أراد استكمال صناعة الطب ، ثم كتاب المزاج وكتاب القوى الطبيعية وكتاب التشريح الصغير . (٣) المرتبة الثالثة وفيها كتاب واحد هو كتاب العلل والأمراض . (٤) في المرتبة الرابعة كتابان ، كتاب تعرّف العلل الباطنية وكتاب النبض الكبير . (٥) المرتبة الخامسة وفيها كتاب الحميات وكتاب البحران وكتاب أيام البحران . (٦) في المرحلة السادسة كتاب حيلة البرء وحده . (٧) وفي المرحلة السابعة كتاب تدبير الأصحاء .

قال أبو الفرج علي بن الحسن بن هندو[3] في كتابه مفتاح الطب ، هذه هي الكتب التي اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع زعموا أنها تغني عن متون كتب جالينوس ويكفي ما فيها من التوابع والفصول وقال أبو الخير بن الخمار : « أنا أظن أنهم قصروا فيما جمعوه ، من ذلك أنهم يعوزهم الكلام في الأغذية والاهوية والادوية ، وقصروا في الترتيب أيضا فجالينوس بدأ بالتشريح ثم صار الى القوى والأفعال ثم الى الاسطقسات » . وقال بن أبي أصيبعة : « ان الترتيب الذي ذكره أبو الخير في ان جالينوس اشار اليه هو لعمري الترتيب الصناعي وذلك أنه يجب على كل ذي صناعة ان يتدرج في تعلمها من الأظهر الى

٣ ــ ابو الفرج علي بن الحسين بن هندو ــ عيون الأنباء ــ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ــ ص(١٥٦) .

الأخفى ، والتشريح هو علم البدن وأعضاؤه هي أول ما يظهر من الانسان ».

المدرسة الثانية التي كان لها أثر في الطب الإسلامي هي مدرسة جنديسابور ، وفي مدينة أسسها سابور الاول الساساني ليوطن بها الأسرى من معركته مع فالريان الامبراطور البيزنطي سنة ٣٦٠م . كان بين الأسرى عدد من الاطباء النساطرة الهاربين من اضطهاد كنيسة بيزنطية والذين سمح لهم بالممارسة فيها ، كما أسس لهم سابور الثاني بيمارستانا ضم مشاهيرهم وألحق به في عهد كسرى انوشروان مدرسة للطب كان التدريس فيها على الاسلوب اليوناني . ضم الى هذه المدرسة أيضاً عدداً من الاطباء الهنود الذين استقدمهم عندما توسعت هذه المدينة في عهده . لهذه المدرسة فضل بايصال العلوم الطبية الى بغداد حيث ازدهرت فيها .

هذا ما كان عليه الوضع خارج الجزيرة ، أما في الجزيرة نفسها فليس في المصادر ما يدل على وجود تعليم طبي فيها وكان كل ما على الراغب في تعلم صناعة الطب فعله هو ان يلازم أحد المجربين للأخذ عنه باستثناء عدد قليل من أطباء الجزيرة العربية الذين سبق أن سافروا الى احدى المدارس الطبية الموجودة خارجها للاستزادة .

٢ ــ التعليم الطبي في صدر الاسلام :

وما بزغ فجر الإسلام وحمل العرب لواءه حتى دخلت البلاد العربية في عصر كانت فيه كلمة الدين هي العليا وتعاليمه هي الأسس التي بنى عليها المسلمون قوام حياتهم وأصبح كتاب الله وسنة رسوله المنارة التي يهتدي بها المسلمون في شؤون دينهم ودنياهم .

كانت أولى هذه التعاليم حمل المسلم على ولوج باب المعرفة عن طريق تعلم القراءة والكتابة ، فكان أول ما أنزل على الرسول الأعظم ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «اقرأ باسم ربك الذي خلق[٤]» . وجعل الله لأهل مكانة

٤ ــ سورة العلق (٦٩) .

خاصة بقوله : «يرفع الله الذي آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»[٥]، وقوله سبحانه : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمـــون »[٦] ، ومن قول رسوله عليه السلام:«من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة » وقوله : « من خرج في طلب العلم فهو في سبيـــل الله حتى يرجع » •

ومثلما حض الإســـلام على التعلم حض على التعليـــم فقد روي عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « علموا ويسروا ولا تنفروا »[٧] وانه قال :«حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية[٨]»وكذلك فيما رواه البخاري في الثلاثة الذين يؤتون أجرهم مرتين ، فذكـــر قـــول الرسول : «ومنهم رجل كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمهـــا»[٩] •

وقد عدّ الإسلام الصحة نعمة وعلم الناس ان ينظروا اليهـــا هـــذه النظرة ومن ثم ان يحافظوا عليها وإلا حل بهم السوء ، فقال في ذلك عليـــه السلام : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » • وكان على المسلم أن يحافظ على هذه النعمة ويحذر عليها من التغـــير بإســـاءة التصرف حتى لاتحل به مغبة الإفساد » • ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب »[١٠] وقوله تعالى : « ذلك أن الله لم يك مغيراً نعمـــة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[١١] •

وقد أشار الرسول في أحاديثه الى دور الوقاية في حفظ الصحة فقال: «لا يوردن ممرض على مصح »[١٢] • وعن نشر العدوى قال : « اذا سمعتم

---

٥ ــ سورة المجادلة (١١) .   ٦ ــ سورة الزمـــر (٩) .
٧ ــ أورده أبو مسلم في صحيحه .
٨ ــ أخرجه بن أبي الدنيا عن أبي رافع .
٩ ــ رواه البخاري   ١٠ــ سورة البقرة (٢١١) .
١١ــ سورة الأنفال (٥٣) .
١٢ــ في المسند

بالطعون بأرض فلا تدخلوها واذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها».
وقوله عندما سألته عائشة عن هذا : « ليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم ان لن يصيبه إلا ما كتب الله ، كتب له مثل أجر الشهيد»[13] .

وجاء الإسلام بتعاليم صحية تتعلق بالنظافة والغذاء وجعل اتباعها فروضاً أو سنناً أو استحباباً . ففي النظافة جاء الأمر بالوضوء والاغتسال إن لزم ، وفيه قال عليه الصلاة والسلام : « ان النظافة للصلاة من الإيمان»، وجعل الدين الحنيف الإستياك وتقليم الأظافر ،والختان للذكور من المستحبات .

وعن الغذاء قال عليه السلام : «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه» و « المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء » و « من اكتفى بدون الشبع حسن اغتذاء بدنه وصلح حاله ونفسه » .

وعن الرياضة جعلت الصلوات الخمس رياضة لكل الأعمار والأبدان ، وكذلك الحج والمشي في الحوائج للأخوان وقضاء حوائجهم وعيادة مرضاهم .

ومثلما حث على الوقاية حث على التداوي فقال : « لكل داء دواء فاذا اصاب دواء الداء برأ بإذن الله » . وقد اجاز الرسول الكريم الجراحة وممارستها ، وروى بن مسلم ان النبي بعث الى (أبي) بن كعب طبيباً فقطع له عرقا ثم كوى عليه . وذكر بن جلجل عن أبي رمثة رفاعة انه كان طبيباً على عهد رسول الله عالماً بصناعة اليد .

وكان عليه السلام يعلم ان العرب تعتمد على العرافين في معالجاتهم فأراد أن تحل محلهم فئة تمارس الطب علماً قائماً بذاته ولذلك عندما مرض سعد بن أبي وقاص وعاده ، قال النبي : « ادعوا له الحارث فإنه رجل يتطبب » وكان الحارث على غير دين الإسلام وتلك اشارة صريحة الى ان

١٣– في الصحيحين من حديث ابي هريرة .

التماس الطب واعتبار الانتفاع بشؤون العلاج أمر لايتعارض مع الدين وأنه يجوز للمسلم أن يستشير طبيبا غير مسلم ، فضلا عما في الحديث من تكريم للصناعة ورفع لمكانة ممتهنيها .

ولم يفت الإسلام تحديد مسؤولية الطبيب ، فقد جاء في الحديث الشريف : « من تطبب ولم يكن بالطب معروفاً فأصاب نفساً فما دونها فهو ضامن[١٤] وهو حكم بتضمين الطبيب الجاهل ما يلحق بالمريض من أضرار جراء تطبيبه .

هذا الاتجاه الفكري الجديد في تعلم الطب حمل الصحابة الكرام على جمع ما يتعلق بالطب في أحاديث الرسول وسننه وسموه الطب النبوي .

كان أكثر متطببي الجزيرة الذين أدركوا الإسلام هم ممن اكتسبوا الخبرة من ملازمة مجربيها باستثناء الذي سبق له أن ارتحل الى احدى مدارس الطب خارجها طلبا للعلم كالحارث بن كلدة وابنه النظر[١٥].

ولم تكن المرأة العربية في صدر الاسلام عنصراً غير فعال في المجتمع، فانها لم تكن لتتوانى عن المساهمة في الخدمة الاجتماعية وعلى رأسها مواساة الجرحى ، وكانت فضليات النساء يتخذنها قياما بالواجب وحباً في التضحية ومشاركة في الجهاد ، وكن يسرن الى المعارك حاملات أواني الماء وما يحتاجه الجراح من لفائف وجبائر ، وكن ينفذن بين الرجال مسعفات يأسين الجراح ويجبرن الكسور وفيهن من اشترك في القتال عندما تطلب الموقف وكان لبعضهن مواقف مشهودة .

ممن اشتهر من الآسيات (رفيدة بنت سعد الأسلمية) وكانت متميزة بالجراحة ، اختارها الرسول عليه السلام لتقوم بالعمل في خيمة متنقلة ،

١٤ـ أبو داوود والنسائي من حديث عمر بن شعيب عن أبيه .
١٥ـ عيون الأنباء ـ مصدر سابق ـ ص(٢٣٢) .

فحين أصيب سعد بن معاذ قال : « اجعلوه في خيمة رفيدة حتى اعوده من قريب » .

ومنهن (أم عطية الآنصارية) وكانت من المشهورات بالطب في الجاهلية ، دخلت الاسلام وغزت مع الرسول حيث كانت تأسو الجرحى وتقوم على المرضى . وخمنة التي كان موقفها في (أحد) مما تزل له الأقدام ، فقد كانت تغشى الموقعة وتحمل الجريح لتعود به وتأسو جرحه ، و (نسيبة بنت كعب المازنية) ، اشتركت آسية في غزوة بدر وكذلك في (أحد) ومعها زوجها وولداها ، ولما انكشف المسلمون إلا عشرةوقفوا يدارون عن الرسول انتصت سيفها واحتملت قوسها وصالت وجالت وكان حولها نفر قليل بينهم زوجها وولداها فكانت من أعظمهم أثرا لا ترى الخطر يدنو من الرسول حتى تكون سداداً ، وقال فيها عليه السلام « ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني » ، ولما انجلى الموقف سألوا عن نسيبة فإذا هي ملقاة يفوردمها من جرح غار في كتفها ، فضمدوا الجرح وسقوها الماء ، برأت نسيبة وكان لها الفخر بذلك اليوم وبالأثر الباقي ، ومما حدث أن ابنها عمارة قال جرحت في عضدي وجعل الدم لا يرقأ فأقبلت أمي ومعها عصائب فربطت جرحي وقالت انهض يا بني وضارب القوم . قالت وأقبل الرجل الذي ضرب ابني فضربت ساقه وأتيت على نفسه .أصيبت نسيبةذلك اليوم بثلاثة عشر جرحا وهي على الرغم منذلك ظلت كالصاعقة تضرب في العدو حتى انهزم .

من الأسيات اللواتي شُهد لهن (أميمة بنت قيس الغفارية) التي خرجت زعيمة للآسيات ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، و (أم سليم) و (أم سنان الأسلمية) و (أم أيمن) و (الربيع بنت معوذ).

سارت الأمور في أيام الخلفاء الراشدين على ما كانت عليه أيام الرسول الأعظم ولم يعرف عن تعليم الطب في أيامهم إلا ما عرف به عند أهل الحديث

الذين كانوا يعنون بشرح وتوضيح أحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي تتعلق بالطب النبوي •

ومن يقرأ سيرة الصحابة الكرام يدرك عمق فهمهم لما للمرضى حق على المجتمع الإسلامي من الرعاية الصحية • فقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر عند مقدمة الجابية من أرض دمشق على قوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت •

وورد في طبقات ابن سعد أن عمر كان يفرض للمنفوسين (حديثي الولادة) مائة درهم ، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم ، فاذا بلغ زاده ، وكان اذا أتي باللقيط فرض له مائة درهم وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بما يصلحه ثم ينقله من سنة الى سنة ، وكان يوصي بهم خيراً ويجعل نفقتهم ورضاعهم من بيت المال •

وجاء في عقد الذمة بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة[١٦] : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو اصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما قام بدار الهجرة ودار الإسلام » •

وكان للطب مكانة عند علماء المسلمين اقتداءً بالسلف الصالح ، فقد قال سلطان العلماء العز بن عبدالسلام في كتابه قواعد الاحكام في مصالح الأنام « فإن الطب كالشرع وُضع لجلب مصالح السلامة والعافية ولدرء مفاسد المعاطب والأسقام •• والذي وضع الشرع وضع الطب فان كل واحد منهما موضع لجلب مصالح العباد ودرء مفاسدهم » • من هذا المنطلق اتجه كثير من علماء المسلمين وفقهائهم الى دراسة الطب وممارسته تقديراً لمكانته وطلبا للمثوبة عند الله •

١٦ـ الامام ابو يوسف ـ كتاب الخراج •

٣ ـ وسائل التعليم الطبي في الاسلام :

كان الكتاب وما زال هو والمدرس وملازمة المرضى أساس التعلم في صناعة الطب ، ولندرة الكتاب الطبي عندما استقر الإسلام واتسعت رقعته أدرك المربون عظم الفائدة المتأتية من الاطلاع على ما كتبته الأمم الأخرى ، من هنا ظهرت الحاجة لترجمة الكتب والاستعانة بالمترجمين •

(٣ ـ ١) الكتب

(٣ ـ ١ ـ ١) الترجمة :

كانت البداية الأولى لترجمة الكتب الطبية قد حدثت في العصر الأموي عندما استخدم الامير خالد بن يزيد بن معاوية عدداً من العلماء المقيمين في مصر وأغدق عليهم النعم ليترجموا له الكتب اليونانية والمصرية القديمة في الطب والكيمياء •

قال الجاحظ ، كان خالد بن يزيد خطيباً وشاعراً وفصيحا ، جامعا جيد الرأي كثير الأدب وهو أول من ترجم له في كتب الطب والنجوم •

وذكر بن خلكان أنه كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب ، بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما وله رسائل دالة على معرفته وبراعته •

وعني عمر بن عبدالعزيز بالعلم والطب وبنقلهما الى العربية ، وكان أن وجد في خزائن الكتب عنده كتاب أهرن بن أعين القس[١٧] وهو من أفضل الكنانيش القديمة في الطب فأمر بوضعه في مصلاه واستخار الله في اخراجه ، فلما تم له ذلك في أربعين يوما أخرجه للناس •

كان أبو جعفر المنصور أول خلفاء بني العباس اهتماماً بالترجمة ، وقد نقل المسعودي عن محمد بن علي الخراساني أن الخليفة أبا جعفر المنصور كان أول الخلفاء الذين ترجمت له الكتب عن اللغات الأعجمية الى العربية وأخرجت للناس فنظروا فيها وتعلقوا الى عماها •

١٧ـ عيون الأنباء ـ مصدر سابق ـ ص(٢٣٢) •

وذكر بن أبي أصيبعة ان البطريق كان في أيام المنصور فأمره بنقل أشياء من الكتب القديمة[18] وله نقل جيد وقد وجدت بنقله كتب كثيرة في الطب من كتب أبقراط وجالينوس ، واذ جورجيوس بن جبرائيل كانت له خبرة في صناعة الطب ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج ، خدم المنصور وكان حظياً عنده رفيع المنزلة ونال من جهته أموالاً كثيرة وقد نقل للمنصور كثيراً من الكتب اليونانية الى العربية .

ويذكر بن جلجل « كان يوحنا بن ماسويه نصراني المذهب سريانيا قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ووضعه أميناً على الترجمة وجعل له كتبة حذاقاً يكتبون له[19] » .

ومن المترجمين في زمن الرشيد سلام وأيوب الابرش اللذان ذكر بن النديم أنهما من النقلة القدماء وكذلك عبدالمسيح بن عبدالله الناعمي .

وعن المأمون ذكر بن النديم « كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم ، فأجاب بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروه فلما حملوه اليه أمر بنقله وأحضر حنينا بن اسحق وكان فتي السن فأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربية واصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره . ومما يحكى عن المأمون انه كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب مثلا بمثل .

وفي زمن المأمون عاش رجال ذكرت المصادر عنهم عنايتهم بالنقل ورعايتهم للنقلة وبذل الأموال في ذلك ، وقد امتدت حياة بعضهم الى ما بعد المأمون لذلك يصعب الجزم بأن ما تم من النقل برعايتهم كان قد حدث

١٨ـ أعلاه ص(٢٤١) .
١٩ـ أعلاه ص(٢٤٦) .

في زمن المأمون أم كان بعده • من هؤلاء الرجال الحسن بن سهل الذي ولي بغداد بعد مقتل الأمين والذي قرّب اليه الكتاب وأهل العلوم مثل يحيى بن البطريق الذي ترجم له كتاب الحيوان لأرسطو وكتاب الترياق لجالينوس •

وكان اسحق بن سليمان بن علي من رجال الأسرة العباسية وقد ولي البصرة وهو من الذين عنوا بالنقل وكان ممن استخدمهم لذلك منكة الهندي الذي فسر له أسماء عقاقير الهند ،أما عيسى بن علي تلميذ حنين العبادي فقد كان ممن عمل في الترجمة للخليفة المتوكل •

من نقلة الطب الذين لم يرد ذكرهم مع الخلفاء والقادة حبيش الأعسم وعيسى بن يحيى بن ابراهيم وقسطا بن لوقا البعلبكي وكان هذا خبيراً باللغات ومثله ماسرجويه وكان ناقلاً من السريانية الى العربية ومشهورا بالطب ، وأيوب الرهاوي وكان ناقلاً جيداً باللغات إلا انه كان بالسريانية خيراً منه بالعربية ، وكان أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي احد النقلة المجيدين وقد انقطع الى علي بن عيسى ، اما ابو اسحق ابراهيم بن بكس فكان من الأطباء المشهورين وترجم كثيراً الى العربية وكان نقله مرغوباً فيه•

يبلغ عدد النقلة الذين ذكرهم بن النديم وابن أبي أصيبعة أربعة واربعين وقد اتفقا في ذكر واحد وعشرين واختلفا في ذكر ثلاثة وعشرين • وأبرز فرق بينهما أن أبن أصيبعة انفرد في ذكر نقلة من جنديسابور وعدد ممن ظهر بعد تأليف بن النديم ، اما الذين انفرد بهم بن النديم فكانوا نقله في علوم أخرى[٢٠] •

كان لآل حنين بين النقلة دور بارز ولهم طريقتهم الخاصة بالترجمة[٢١] تتصف بما يأتي : (١) جمع عدة مخطوطات ومقارنة بعضها ببعض

٢٠ــ صالح احمد العلي ــ العلم الاغريقي ــ مجلة المجمع العلمي العراق ج(٤) م(٣٧) ص(٣٨) •

٢١ــ حكمت نجيب عبدالرحمن ــ دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ــ الموصل ١٩٧٧ ص(٢٢ــ٢٧) •

وتحقيقها ثم نقلها (٢) اختلافهم عن ابن البطريق بأن ترجمتهم لم تكن حرفية (٣) مراجعتهم لترجمة من سبقوهم وتصحيحها ومراجعة المعلم الأقدم بينهم لترجمات تلاميذه •

٤ ـ العمل الجماعي في حقل الترجمة :

ومن مآثرهم أنهم جعلوا الترجمة الكاملة لمنهج التدريس الطبي لمدرسة الإسكندرية في متناول قراء العربية ، غير أن هذا لا ينفي وجود مترجمين آخرين قاموا بترجمة الكثير من المؤلفات الطبية من السريانية والكلدانية الى العربية •

للآخرين من أهل الذمة لاسيما اليهود دور في الترجمة وإن كان ضئيلاً لانعزالهم عن المجتمع العربي لأنهم لم يكن لهم قبل الإسلام أي نصيب في العلوم أو الفنون او الصناعة او مقومات الحضارة الاخرى[٢٢] ، أما ما يسمى بالفلسفة العبرية فقد جاءتهم عن طريق كتبهم الدينية وعن تأثرهم بالعرب لاسيما في أثناء ازدهار الحضارة الإسلامية في العصر العباسي إذ ظهر قسم منهم في مجالات العلوم والفنون والآداب •

وبالرغم من بعض العوائق التي حدثت في نقل الفلسفة اليونانية بسبب عجز القائمين بها عن الإلمام بالمواضيع التي ينقلون فيها أو بسبب ضعفهم في اللغة التي ينقلون منها او اليها وكذلك قلة أمانة بعضهم وطمعهم في الكسب فإن حركة النقل قد خدمت التطور العلمي في دراسة الطب خدمة جليلة •

أقدم المؤلفين الذين نقل العرب كتبهم في الطب هو إبقراط الأول الذي ألف كتابي « الكسر والجبر » و « المفاصل » ، ثم جاء بعده أبقراط الثاني الذي كان قد الف نحو ثلاثين كتابا نقل معظمها الى العربية ، غير أن أبرز من نقل العرب كتبه هو جالينوس الذي كانت له مكانة متميزة ترجع الى كثرة مؤلفاته وتنوعها وكثرة ما ترجم منها • ألّف جالينوس أكثر من

---

٢٢ ـ غوستاف لوبون ـ تاريخ الحضارات الاولى ـ ص(٢٥ ـ ٢٧) •

مائة وثلاثين كتابا ورسالة وظلت كتبه معتمدة في تدريس الطب لوقت طويل لاسيما كتبه الستة عشر من جوامع الاسكندرانيين •

ذكر حنين بن اسحاق ان قرابة (١٠٠) كتاب من كتب جالينوس قد ترجمت الى العربية نقل حنين منها (٣٤) وحبيش (٢٨) ويحيى بن البطريق (١)[٢٤] ، وذكر فؤاد سزكين اسماء (٤٥) من الاطباء الذين ظهروا في بلاد الاغريق قبل الإسلام ، وكثير من هؤلاء لم تذكر لهم كتب إلا المنقولة للعربية ، ولولا ذلك لانطمس ذكرهم وظلوا مغمورين •

(٣ ـ ١ ـ ٢) التاليف :

ظهر بين تراجمة كتب الطب مؤلفون كانت أكثر أعمالهم اقتباسا ولم يكن لهم فضل في استخراج ما عندهم إلا الشيء القليل ، من هؤلاء يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق وجبريل بن بختيشوع وثابت بن قرة ، أما المؤلفون الحقيقيون فلم يظهروا إلا في أواخر عهد الترجمة وكان نتاجهم حصيلة للاقتباس من علوم الأولين بعد زيادتها اتقانا وإضافة الكثير من التجارب اليها وتزيينها بنتاج الفكر العربي •

من المؤلفين الذين اشتهروا :

١ ـ علي بن ربن الطبري : مولده في طبرستان ، أسلم على يد المعتصم وأدخله المتوكل في جملة ندمائه ؛ له من الكتب (فردوس الحكمة) وجعله سبعة أنواع والأنواع تحتوي على ثلاثين مقالة والمقالة تحتوي على ثلاثمائة وستين باباً ، وهو أشهر كتبه ، وله أيضا كتاب (رفاق الحياة) و (تحفة الملوك) و (منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير) و (الصحة) و (الحجامة) وكتاب (في ترتيب الأغذية)•

٢ ـ أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : مولده ومنشأه بالري ، اشتغل على ابن ربن الطبري[٢٣] وله كتاب (الحاوي) وهو اجل كتبه واعظمها

٢٣ـ عيون الأنباء ـ مرجع سابق ـ ص (٤١٤) •

شأناً في الطب ، وكتاب (البرهان) و كتـاب (الطـب الروحاني) وكتاب (كيفية الإبصار) وكتاب (علل المفاصل والنقرس) وكتاب (المنصوري) وكتاب (الجامع) ويسمى حاصر الصناعـة جمع فيـه ما وقع عليه وأدركه من الكتب الطبية القديمة والمحدثة الى موضـع واحد في كل باب • وله الاثنا عشر كتابا وهي الكتب التدريسية في الصنعة ، الاول المدخل التعليمي ، والثاني المدخل البرهاني ، والثالث الإثبات ، والرابع التدبير ، والخامس الحجر ، والسادس الاكسير ، والسابع شرف الصناعة ، والثامن الترتيب ، والتاسـع التـدابير ، والعاشر الشواهد ، والحادي عشر المحبة ، والثاني عشر الحيـل • وله كتب كثيرة اخرى في الطب والنجوم والكيمياء .•

٣ ـ ابـو علي الحسـين بـن عبدالله بـن علـي بـن سـينا : ولـد في أفشنة من ضيـاع بخـارى ، أحصيت مؤلفاتـه فكانت (٢١) كتاباً كبيرا و (٢٤) رسالة صغيرة في الطب وعلوم الدين والفلك والهندسة وطبقات الأرض ، وكان (القانون) أشهرها على الإطـلاق وهـو موسوعة علمية ضافية فيها خلاصة الفكر اليوناني والعربي تجربة ونقلاً اشتهر القانون في أوربا في القرون الوسطى وكان الكتاب المدرسي في جامعة مونبلييه ولـوفان في القرن السابع عشر • طبـع باللاتينيـة ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر ، وعشرين مرة في القرن السادس عشر .•

٤ ـ علي بن عباس المجوسي : والمجوس هو طالب الاستقصاء • مولده في الأحواز • صنف كتاب (كامل الصناعة) ويعرف أيضـا بالكتـاب (الملكي) للسلطان البويهي عضد الدولة وهو كتاب جامع نفيس •

٥ ـ يعقوب بن اسحق الكندي : أحد ابناء ملوك كندة ويلقب بفيلسـوف العرب ، تبحر في علوم الفلسفة والموسيقى والمنطق والحساب والنجوم والطب • تربو مؤلفاته على المائتين ، منها واحد وعشرون في الطب •

٦ ــ أمين الدولة بن التلميذ : خدم المستضيء بالله وصار ساعوراً للمستشفى العضدي • له كتب عديدة في الطب أشهرها اقرباذينة ذو العشرين باباً•

٧ ــ إبن أبي اصيبعة : موفق‌الدين احمد بن أبي القاسم بن ابي اصيبعة ، ولد في دمشق عام٦٠٠هـ ودرس الطب هناك ثم استزاده في مصر • له كتابه المشهور (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) ويعدّ هذا الكتاب من أهم المصادر في تاريخ الطب الإسلامي •

٨ ــ ابن النفيس : علي بن ابي الحزم القرشي : ولد في قرش (جرش) وصار أحد اطباء دمشق المشهورين ، له كتاب (شرح القانون) في عدة أسفار وكتاب (تقدمة المعرفة) وكتاب (شرح تشريح القانون) ولهذا الكتاب أهمية بالغة لأنه اول من ورد فيه وصف الدورة الدموية الرئوية وصفاً علميا دقيقا فسبق مايكل سرفيوس الذي ينسب الأوربيون اليه هذا الاكتشاف ، بخمسة قرون •

٩ ــ ابن الهيثم : أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم من أهل البصرة ، انتقل الى الديار المصرية واقام فيها الى آخر عمره • لم يماثلة احد في عمله الرياضي ، وكان خبيراً أيضا بأصول صناعة الطب وقوانينها وله كتاب في (تقويم الصناعة الطبية) وله كتاب في (فرق الطب) وآخر في (التشريح وعلم منافع الأعضاء) وفي (الحميات) وكتاب في (حيل البرء وحفظ الصحة)، على ان أشهر كتبه كانت في البصريات •

١٠ ــ ابن البيطار : أبو محمد عبدالله بن أحمد المقالي النباتي ، وكان أوحد زمانه في معرفة النباتات ، له من الكتب (الجامع في‌الادوية المفردة) وهو كتاب لايوجد أجود منه ، وكتاب (الافعال الغريبة والخواص العجيبة) وكتاب (المغنى في الادوية المفردة) وهو مرتب بحسب الاعضاء الاليمة .•

١١ ــ ابن الجزار : ابو جعفر بن أبي خالد ، من اهل القيروان ، له كتاب في علاج الامراض يعرف بـ (زاد المسافر) وكتاب (الاعتماد للادوية

المفردة) و (البغية للادوية المركبة) وكتاب (العدة) وهو أشهر كتبه ، وله كتاب (طب الفقراء) وكتاب (البلغة في حفظ الصحة) وكناشات أخرى •

١٢ ــ ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان ، كان خبيرا بالمعالجات وبقوى الادوية ، من كتبه (طبقات الاطباء والحكماء) وهو من الكتب المهمة في تاريخ الطب الاسلامي ، وله كتاب (ما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء النباتات) ورسالة (فيما غلط فيه بعض المتطببين) ورسائل أخرى •

١٣ ــ الزهراوي : أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، نسبة الى الزهراء من ضواحي قرطبة • يعدّ كتابه (التصرف لمن عجز عن التأليف) موسوعة في الطب والجراحة جعله في (٣٠) مقالة وهو كتاب تام في معناه يشتمل على جميع نواحي المعرفة في فروع الطب المعروفة فيذلك الزمان • كان لهذا الكتاب اعظم الاثر في العالم اللاتيني لمدة خمسة قرون ، فقد ترجم عدة مرات وكان أهم مرجع للطب انذاك • يمتاز كتاب التصريف بكثرة رسومه ، ووفرة أشكال الالات التي كان الزهراوي يستعملها واكثرها من استنباطه •

١٤ ــ ابن القف : أبو الفرج أمين الدولة بن موفق الدين يعقوب بن اسحق بن القف • من نصارى مدينة الكرك في الاردن (٦٣٠ ــ ٦٨٥)• أشهر كتبه (العمدة في صناعة الجراح) في عشرين مقالة علما وعملا يذكر فيه جميع ما يحتاجه الجرائحي بحيث لايحتاج الى غيره• وله كتاب (الشافي في الطب)و(شرح الكلياتفيالقانون) وكتاب (جامع الغرض) وكتب أخرى •

١٥ــ ابن رشد : هو محمد بن رشد الاندلسي ، القاضي وزعيم فلاسفة الاندلس وزعيم اطباء زمانه • ولد بقرطبة وتخرج في جامعتها • له كتاب الكليات وضعه وهو على يقين أن صديقه ابن زهر سيضع كتابا في الامور الجزئية ليكون كتاباهما متكاملين وشاملين في صناعة الطب •

١٦ ــ ابن زهر : هو عبدالملك بن أبي العلاء بن زهر • ولد بأشبيلية سنة ٤٨٤ هـ وتوفى فيها سنة ٥٥٧ وقد أصبح وزيرا لعبد المؤمن بن علي أول خلفاء الموحدين • عدّه ابن رشد أعظم الاطباء بعد جالينوس ، قصر همه على الطب وحده دون سواه وتجرد عن قيود التقليد واعتمد على دقة الدراسة السريرية في تشخيص الامراض ومداواتها •. كتابه التيسير في المداواة والتدبير ظل الكتاب المدرسي في الاندلس وأوربا لعدة قرون بعد أن ترجم الى اللاتينية عدة مرات •

تصنيف الكتب الطبية :

جاءت حصيلة جهود هؤلاء الاعلام والعديد ممن لم تتطرق لذكرهم ،كتب من المفيد ذكر أصنافها :

(١) الكتب الشاملة ، وهي تلك التي تحتوي على الكليات والجزئيات في ان واحد •

(٢) الكلية ، وهي التي يكون فيها البحث عن معالجة جميع الامراض •

(٣) الجزئية ، واحيانا يشار اليه بالكنانيش ، ويبحث فيها شفاء عرض من الاعراض الداخلة في عضو عضو من الاعضاء •

وقد تصنف الكتب حسب اختصاصاتها الى :

مفردة ، ويقصر القول فيها على نوع واحد من انواع العلم وبقدر من الاسهاب •

جامعة ، والتي فيها الكثير مما يحتاجه طالب الصناعة ضرورة •

كاملة ، وفيها كل ما يحتاجه المتطببون وغيرهم في حفظ الصحة وردها

قال ابن رشد في كتابه (الكليات) : « فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا تبيانه وقد بقي علينا في هذا الجزء القول في شفاء عرض عرض من الأعراض الداخلية في عضو عضو من الأعضاء ، وهذا وإن لم يكن ضروريا فانه منطو بالقوة على ما سلف من

الأقاويل الكلية ، ففيه تتميم وارتياض ، فان نزل فيها الى علاجات الامراض بحسب عضو عضو ، وهي الطريقة التي سلكها اصحاب الكنانيش حتى نجمع في أقاويلنا هذه الى الأشياء الكلية الامور الجزئية ، فان هذه الصناعة أحق صناعة أن ينزل بها الى الأمور الجزئية ما أمكن • إلا اننا نرجىء هذا الى وقت نكون فيه اشد فراغاً •

وقال علي بن العباس المجوسي في كتابه (كامل الصناعة) : « فأما أبو قراط كتب كتباً كثيرة في كل نوع من انواع العلم منها كتاب واحد جامع للكثير مما يحتاج اليه طالب الصناعة ضرورة » ، وأما جالينوس فقد وضع كتباً قصيرة كل واحد منها مفرد في نوع من أنواع العلم وطول الكلام فيه •

من الأطباء المحدثين وضع أهرن كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج اليه في مداواة الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها وذكره على جهة الإيجاز ، وذكر محمد بن زكريا الرازي في كتابه الحاوي جميع ما يحتاج اليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة العلل والامراض ولم يغفل عن شيء مما يحتاج اليه طالب الصناعة ، إلا أنه لم يذكر شيئا عن الأمور الطبيعية ولا جزّأ الكتاب بالمقالات والفصول والأبواب •

(٢ ـ ١ ـ ٣) العناية بالمكتبات :

كانت الكتب قبل انتشار استعمال الورق قليلة غالية الثمن وبعضها صعب الحمل والحفظ ، لذلك لم يكن اقتناؤها متيسرا إلا لبعض المقتدرين •

وعلى الرغم من تيسر الورق فيما بعد لكونه أرخص ثمنا وأسهل في الحفظ إلا أن تكاليف الاستنساخ العالية آنذاك حالت ولمدة غير قصيرة من دون جعل ثمن الكتاب ضمن إمكانات عامة الناس على اقتنائه ، فاتجه من لا قدرة له على اقتناء الكتاب من طلاب العلم الى المكتبات العامة بحثاً عن ضالته •

هكذا كان الأمر في العصر الاموي عندما كانت حركة النقل والتأليف مازالت متواضعة وكان عدد المكتبات قليـلا ولم يكن لأي منهـا شـأن يذكر باستثناء مكتبة الأمير خالد بن يزيد .

ولما نشط عصرالنقل في القرن الثاني واستقـدمت الكتب من كل صوب وكثر النسخ والنساخـون وازداد اقبال الناس على التزود بالمعرفة أصبح وجـود المكتبات أمـراً ملحاً فكان أن كثرت وتنوعت صـار بامكان طالب العلم ان يجد ضالته فيها بيسر .

كانت دور الكتب على ثلاثة أصناف :

(١) الملحقة بقصور الخلفاء والأمراء والعلماء .

(٢) الموجودة في المساجد والمدارس والربط ودور العلم والمشافي .

(٣) المكتبات العامة .

كانت تلك الملحقة بالقصور تشيّد جزءاً من مباني القصـر أو تعمر جزءاً متمما له وكانت تعد من مفاخر الحاكم ومما يرفع ذكره بين الناس . اشتهر من هذا الصنف في قصور العباسيين ثلاث عشرة مكتبة من بينها مكتبة بيت الحكمة إذ قيل أنها في أول إنشائها كانت ملحقة بقصر الرشيد .

أما المكتبات الملحقة بالجوامع والمدارس والمشافي فقد عرف منها في العراق بالعصر العباسي (٧٦) وفي مصر (٨٧) وفي الاندلس (٧٠) .

من أشهر المكتبات الملحقة بالجوامع في العصر الإسلامي[٢٤] :

(١) مكتبة جامع المنصور ببغداد .

(٢) مكتبة الجامع الأموي بدمشق .

(٣) مكتبة الجامع الأزهر في القاهرة .

(٤) مكتبة جامع الزيتونة في القيروان (تونس) .

٢٤ـ المقريزي تقي الدين احمد بن علي ـ المواعظ والاختبارات ـ مطبعة بولاق ١٢٩٤هـ ج (٢) ص (٣٦٢) .

(٥) مكتبة جامع قرطبة بالاندلس •
(٦) مكتبة جامع القرويين في فاس (المغرب) •
(٧) مكتبة الجامع الكبير في صنعاء •

ومن أشهر المكتبات التي كانت في دور العلم[٢٥] :

(١) مكتبة دار العلم في الموصل •
(٢) مكتبة الحكم في الأندلس •
(٣) دار الحكمة في القاهرة •
(٤) بيت الحكمة في بغداد •
(٥) دار العلم في البصرة •
(٦) دار العلم في بغداد (خزانة سابور) •

أنشأ الرشيد بيت الحكمة في بغداد وجعل له مشرفين هم سهل بن هرون وسلم وهريم ، ونساخين حذاقاً منهم علان الشعوبي ، وأوكل ليوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب التي استقدمها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم وجعل معه سلام والأبرش وعبدالمسيح بن عبدالله الناعمي •

وأوفد المأمون الحجاج بن مطر والبطريق وسلم صاحب بيت الحكمة الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختاره من العلوم القديمة المخزونة لديه ، فلما حملوها اليه أودعها في بيت الحكمة وأمر حنين بن اسحق بترجمة ما يقدر عليه واصلاح ما يترجمه غيره •

وقد جدد المتوكل بيت الحكمة عام ٢٣٢ـ٢٤٧ هـ لكن أخباره انقطعت في خلافتي المعتز والمستعين بسبب الفتن في زمانيهما وإهمال جانب العلم ، الا أن الخليفة المعتمد بعد أن نقل خلافته من سامراء الى بغداد أولى هذا البيت رعايته وجعل له في الترجمة عيسى بن علي تلميذ حنين • من بعد هذا التاريخ خمد ذكر البيت وتناثرت كتبه بين الخزانات الخاصة بالخلفاء ،

٢٥ـ عبدالحليم منتصر ـ تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٥ ص (٥٥) .

وقد روي أن ما نقل من كتب بيت الحكمة التي كانت في خزانة المستنصر الى المدرسة المستنصرية التي أنشأها بلغ زهاء مائة وثمانين الف كتاب ، وربما كانت كتب أكثر دور العلم التي أسسها البويهيون في بغداد نهباً من خزانة بيت الحكمة ، تعرض للمبيت للاتلاف على يد هولاكو عام ٦٥٦هـ ، وانتهى أمره تماماً بما فعله تيمور لنك في نكبة بغداد عام ٨٠٣هـ •

اشتهر من المكتبات التي كانت في المشافي عدد بقدر عدد المشافي ومدارس الطب التي نالت الشهرة :

(١) في العراق — ٢١ •
(٢) في الشام — ٢١ •
(٣) في الجزيرة — ٢ •
(٤) في مصر — ٦ •
(٥) في المغرب — ٥ •
(٦) في الأندلس — ٢ •

كانت المكتبات العامة تعنى بالأمور الدينية واللغوية ولكن أياً منها لم تكن تخلو من كتب في الطب والعلوم اللازمة للاشتغال فيه • أما تلك التابعة لمدارس الطب أو الموجودة في المشافي فإنها فضلا عما تحويه من كتب الطب فان فيها الكثير من كتب العلوم التي يجب على طالب الصنعة أن يلم بها •

لقد حذت المدن الإسلامية حذو بغداد والقاهرة وقرطبة فأنشأت في الكثير منها مكتبات وبولغ في تحسينها وتسهيل القراءة والنسخ فيها ، ولولا المحن التي مرت بها المكتبات الإسلامية (٢٦) لكنا قد ورثنا من كنوزها ما لايوصف•ففي ٤٦١هـ أحرق عبيد المغاربة وإماؤها أوراق مكتبة الفاطميين بالقاهرة ، وفي ٥٠٢هـ احتل الصليبيون طرابلس وأحرقوا مكتبة ابن عمار ، وفي مطلع القرن الخامس الى القرن السادس قدر ما حرق من الكتب العربية

٢٦ـ عبدالستار الحلوجي ـ المكتبات العربية ـ مجلة الدارة ع (١) ربيع الأول ١٣٩٥هـ ص (٩٨) •

في الأندلس بمليون كتاب ، وفي سنة ٦٥٦هـ جعل هولاكو من دار الحكمة طعماً للنار وألقى ما تبقى في دجلة ، وعلى الرغم من كل هذا فإن ما يوجد من مخطوطات هذه المكتبات في عصرنا الحاضر يقدر بنحو مليوني نسخة •

(٣ ـ ٢) المشافي في الاسلام

كانت خيمة رفيدة أول ما عرف عن المشافي الحربية في الإسلام وكان الوليد بن عبدالملك أول من أنشأ المشفى الثابت فيه •

كانت المشافي على نوعين : الثابت والمحمول •

وكانت الثابتة على نوعين أيضا :

(١) المستشفى العام وهو الاكثر وجوداً في الحواضر الإسلامية ، وبه يعالج كل الناس من كل الأمراض •

(٢) المستشفى الخاص وهو ما أنشيء لغرض خاص ، وهو على خمسة أصناف :

١• مشافي الجذام : وهي التي تخصص حصراً لهذا الغرض ، وكان الوليد بن عبدالملك أول من أنشأ مثل هذا المشفى في الوقت الذي كان المجذوم في فرنسا يحرق حياً لكون هذا المرض رجساً وان عقابه رباني •

٢• مشافي السجون : كتب علي بن عيسى وزير المقتدر في بداية القرن الرابع الهجري ، الى سنان بن ثابت في سنة كثرت فيها الأمراض : « فكرت مد الله في عمرك في أمر المحبوس وأنه لايخلو من كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الامراض وهم معوقون في التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم ، فينبغي أن يفرد لهم أطباء يدخلون اليهم كل يوم وتحمل لهم الأدوية والاشربة ويطوفون بسائر الحبوس ويعالجون المرضى ويريحون عللهم » •

٣• مشافي الأمراض العقليـــة : تأسست في اوائل الحكم الاموي للعناية بمن أصابهم مس أو اعتراهم ضعف عقلي • فقـــد كـــان المسلمون يعدّون المعتوهين معدمين يجب على الدولة إعالتهم • جاء في صك الأوقاف التي حبس ريعها لصالح المشفى النوري بحلـــب :

« يخص كل مجنون بخادمين ينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحمانه بالماء البارد ثم يلبسانه ثيابا نظيفة ويحملانه على أداء الصـــلاة ويسمعانه القرآن من قاريء حسن الصوت ثم يفسحانـــه في الهواء الطلق ويسمح له بالاستمـــاع الى الأصـــوات الجميلة والنغمـــات الموسيقية الطبيـــة • في هذا الـــوقت كانت معالجة المجنون في أوربا التقييد بالسلاسل ببيت وضيع وطعام قليـــل وأجسام عارية لايتلقون من العلاج إلا الضرب كل حين •

٤• المياتم ودور الرضع : وقد خصصت هـــذه الدور للأطفـــال الذين فقدوا أمهاتهم ولم يكن لهم من يقوم بارضاعهم والسهر على تربيتهم • أول من أسس هذه الدور مظفرالدين كوكيري صاحب اربيل ٥٤٩هـ وجعل فيها مرضعات مقيمات وخدماً يقومون على خدمة الجميع •

٥• دور العجزة : ذكر المقريزي أن المنصور بنى دوراً للعجزة ، وكان الوليد أول من جمعهم في دور خاصة للعناية بهم وجعل خادماً لكل مقعد ليكون في خدمته •

وكانت المشافي المحمولة على ثلاثة أنواع :

١• المشافي الحربية : وهي التي ترافق الجيوش فـــي حملاتها • ذكـــر ابن خلكان[٢٧] وابن القفطي : « ان أبا الحكـــم المغربي عبدالله بن المظفر

٢٧ــ بن خلكان ــ وفيات الاعيان ــ طبعة بولاق ١٢٩٩هـ ج(١) ص (٣٢٤) •

بن عبدالله المرسي نزيل دمشق كان طبيب المشفى الذي يحمله أربعون جملاً والذي يصحب معسكر السلطان محمود السلجوقي أينما خيم ، وكان القاضي السيد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن المظفر فاصداً وطبيباً في هذا المشفى المحمول وكان أبو الحكم يشاركه » .

٢. المشافي النقالة : وهي التي تنقل في البلاد الى أمكنة مختلفة لاسيما القرى حيث لايوجد طبيب عند الحاجة . كان سنان بن ثابت أول من اهتم بإنشائها فقد جاء بكتاب اليه من الوزير ابن عيسى : « فكرت فيمن بالسواد من أهله وأنه لايخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف عليهم طبيب لخلو السواد من الأطباء فتقدم مد الله في عمرك بإنقاذ متطببين وخزانة من الأدوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في صقع مدة ما تدعو الحاجة الى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينقلون الى غيره » .

٣. مشافي الإسعاف الأولي : سبق ذكر اول مشفى من هذا النوع عندما أصاب السهم سعد بن معاذ يوم الخندق .

كان مشفى الرشيد أول مشفى في الإسلام متكامل المرافق على الرغم من عدم كبر مبناه في بدايته . أنشأه الخليفة الرشيد في القرن الثاني وسمي باسمه، وتتابعت الأمور بعد ذلك حتى أصبحت حواضر الإسلام غاصة بالمشافي وتنافس الخلفاء وعلية القوم في إنشائها والمبالغة في تحسينها والإنفاق عليها حتى صار قسم منها أعجوبة زمانه وحديث عصره .

تدل كثرة المشافي في الإسلام على الرقي وإفاضة النعمة والثروة وتوزيعها العادل فضلا عن رغبة الخلفاء أهلهم والقادة والعلماء في تخليد ذكرهم في الخير ونفع الناس .

لم تكن المشافي تسيّر كيفما اتفق بل كانت تجري على نظام وترتيب محمود مقسمة الى قسمين منفصلين للذكور والإناث ولكل قسم ما يحتاج اليه من آلة وعدة وخدم وفراشين وقوام ومشرفين وفي كل قسم عدة قاعات

لمختلف الأمراض ، فقاعة للباطنة وأخرى للجراحة وثالثة للكحالة وأخرى التجبير ، وكانت القاعة الباطنة مقسمة الى قسم للمحرورين وقسم للمبرودين وثالث للممرورين (مرضى العقل) ورابع لمن بهم إسهال .. وهكذا .

كانت المشافي فسيحة البناء ولها رئيس يسمى الساعور ولكل من أقسامه رئيس ، وفي المشفى خزانة للشراب (وهي الصيدلية) فيها جميع أنواع المعالجين والأشربة والمربيات واصناف الادوية والعطريات ولكل خزانة رئيس يسمى الصيدلي وتحت يديه غلمان برسم الخدمة .

للمشفى ناظر يشرف على ادارته وهذه الوظيفة معدودة من الوظائف الديوانية العظيمة . ذكر بن أياس في كتابة (بدائع الزهور في وقائع الدهور) : « أن وظيفة الناظر كانت من أهم وظائف الدولة يتولاها احد نواب السلطان ويذهب الى مقره في حفلة حافلة » .

ذكر ابن العباس القلقشندي : « ان أعظم الوظائف الصناعية في الدولة الفاطمية بمصر وهي وظائف الأطباء فكانت أنقاب أرباب الصناعة الرئيسة كرآسة الاطباء من الدرجة الاولى ومن الوظائف الصناعية العظيمة وظيفة الطبيب الخاص بالخليفة » .

مما أشتهر من المشافي في الإسلام[٢٨] :

١ ـ في بغداد :

(١) مشفى الرشيد وهو أول مشفى أنشيء في بغداد في القرن الثاني . جعل الرشيد ماسويه رئيساً له . (٢) مشفى بدر ويسمى المشفى الصاعدي . (٣) مشفى الحربية الذي أنشأه الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح سنة ٣٠٢ . (٤) مشفى البرامكة . (٥) مشفى السيدة ، أنشيء ٣٠٦ (٦) مشفى المقتدري نسبة لمنشئه الخليفة المقتدر بالله . (٧) مشفى

٢٨ـ أحمد عيسى ـ تاريخ البيمارستانات في الاسلام ـ بيروت دار التراث العربي ط (٢) ص (١٨٧) .

ابن الفرات وزير المقتدر عام ٣١٣ • (٨) مشفى الأمير بجكم (٩) مشفى معزالدولة البويهي ٣٥٥ • (١٠) مشفى الوزير فخرالدين الصيرفي • (١١) مشفى باب المحول ٣٢٩ (١٢) المشفى التتسي (١٣) المشفى العضدي • افتتح في صفر من عام ٣٧٢ أنشأه عضد الدولة بن بويه في الجانب الغربي من بغداد ورتب فيه الأطباء والخدم والوكلاء والخزان ونقل اليه من الأشربة والادوية شيئا كثيرا من كل ما يحتاج اليه • قال عبيدالله بن جبرائيل ان عضد الدولة لما عمّر المشفى كان من الذين جمعهم فيه من كل موضع وأمر الراتب منه أربعاً وعشرين طبيباً وكان من جملتهم أبو الحسن بن كشكر ايا وابو يعقوب الاهوازي وأبو عيسى بقية ونظيف النفس الرومي وبنو حسان وجماعة طبائعيون ومن الكحالين الفضلاء أبو النصر الدحني ومن الجرائحيين أبو الخير وابو الحسن بن تفاح وجماعة من المجبرين منهم أبو الصلت •

٢ ـ في الشام :

(١) مشفى الوليد بن عبدالملك (٢) مشفى أنطاكية (٣) المشفى الصغير بدمشق (٤) المشفى النوري الكبير بناه السلطان محمود بن زنكي سنة ٥٤٩ وقيل ان المال الذي أنشيء منه المشفى كان فدية أحد ملوك الفرنجة بعد أسره • (٥) المشفى العتيق بحلب (٦) مشفى القدس وقد بناه صلاح‌الدين عام ٥٨٣ والى جواره مدرسة (٧) مشفى باب البريد (٨) مشفى حماة (٩) مشفى عكة (١٠) مشفى صفد (١١) مشفى الصالحية (١٢) مشفى غزة (١٣) مشفى الكرك (١٤) مشفى حصن الأكراد (١٥) مشفى نابلس (١٦) مشفى الدقاني (١٧) مشفى الرملة •

٣ ـ في الجزيرة :

(١) مشفى مكة وقد عمره الشريف حسن عجلان صاحب مكة ٦٢٨ هـ وكان وقفاً للمستنصر العباسي (٢) مشفى المدينة جدده الظاهر بيبرس ٦٣٣هـ •

٤ ـ في مصر :

(١) مشفى زقاق القناديل بني في زمن الدولة الاموية (٢) مشفى المغافر وقد بناه الفتح بن خاقان ايام الخليفة العباسي المتوكل على الله (٣) المشفى العتيق ويعرف بالأعلى انشأه أحمد بن طولون ٢٥٩ ولم يكن قبل ذلك في مصر مشفى (٤) المشفى الأسفل أو مشفى كافور الإخشيدي بناه سنة ٣٤٦ (٥) مشفى صلاح الدين ، لما استوى السلطان صلاح الدين الايوبي على الديار المصرية جعل من القاعة التي في قصر الفاطميين مشفى (٦) دار الشفاء أو المشفى المنصوري الكبير وهو من المشافي التي نالت شهرة عالية في العالم الإسلامي • كان في الاصل قصراً تسكنه الست الجليلة عصمة الدين ابنة الملك العادل وقد عوضها عنه بقصر الزمرد وجعله مشفى وبدأ في البناء في اول ربيع الأول ٦٨٣ • كان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع ولما كملت قال : « قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني » وأوقفه على الملك والمملوك الكبير والصغير الحر والعبد الذكر والأنثى وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ودراهم لإنفاقه ، ومن مات جهز وكفن ودفن • ورتب في المشفى مكان يجلس فيه رئيس الاطباء لإلقاء درس الطب ينتفع به الطلبة • كانت قاعات المرضى تدفأ بإحراق البخور أو تبرد بالمراوح الكبيرة الممتدة من طرف القاعة للطرف الثاني ، وكانت أرض القاعات تغطى بأغصان أشجار الحناء او شجر الرمان او

المصطكى أو عساليج الشجيرات العطرية وكان يصرف من الوقف على أجواق تأتي كل ليلة الى المشفى لتسلية المرضى بالغناء والعزف • (٦) المشفى المؤيدي أنشأه الملك المؤيد عام ٨٢٣ •

٥ ــ في المغرب :

(١) مشفى تونس أنشيء في زمن الخليفة عبدالعزيز بن أحمد أحد ملوك الدولة الحفصية وأقيمت فيه خزانة فيها الكثير من الكتب الطبية (٢) مشفى مراكش بناه يعقوب بن يوسف الكوفي أحد ملوك الموحدين بالمغرب (٣) مشفى سلا في المغرب الأقصى تأسس سنة ٧٦٥هـ (٤) مشفى سيدي فرج بفاس تأسس ١٦٨٥م[٢٩] •

٦ ــ في الاندلس :

وهي كثيرة اشتهر منها مشفى غرناطة بناه الخليفة محمد بن يوسف •

نظام العمل في المشافي :

للمشافي طريقان للعلاج ، خارجي وهو ان يتناول المريض الدواء من المشفى ثم ينصرف ليتعاطاه في منزله ، وداخلي وهو أن يقيم في المشفى حتى يبرأ إن كتب له ذلك •

في الطريقة الأولى كان الطبيب يجلس على دكة ويكتب لمن يرد عليه من المرضى للعلاج أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها الدواء من المشفى ، اما الداخلي فكان المرضى يوزعون على القاعات بحسب أمراضهم وكان لكل قسم طبيب أو اثنان او ثلاثة بحسب اتساعه وقد يدعى طبيب من قسم آخر للاستشارة اذا دعا الحال • كان الاطباء يشتغلون بالنوبة فجبريل بن بختيشوع له يومان وليلتان •

٢٩ــ عبدالواحد المرتكشي ــ المجيب ــ تحقيق محمد الفاسي ــ ١٩٨٣ •

وكانت المشافي تقدم نوعاً آخر من العلاج وذلك اذا لم يكن للمريض رغبة في البقاء بالمستشفى ولم يكن قادراً على التردد اليه بسبب علته ، فان المشفى يوكل الطبيب يعوده في بيته ويجد له ما يصلحه[٣٠] .

كانت الدروس السريرية تعلم على مرضى العلاج الخارجي والداخلي، فقد كان الرازي يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذ أخر فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاهم فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم لغيرهم فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك[٣١] .

وعن التدريس على المرضى الداخليين فقد ذكر ابن ابي أصيبعة عن شيخه مهذب الدين عبدالرحيم بن علي أنه كان فى المشفى النوري الكبير وهو يعالج المرضى المقيمين به فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقي قد استحكم وقصد الى بزله وكان فى ذلك الوقت في المشفى أحمد بن حمدان الجرانحي وله يد طولى في العلاج فجزموا على البزل قال ، فحضرنا وبزل الموضع على ما يجب .

(٣ ـ ٣) المدارس الطبية :

كانت الحلقات التي يعقدها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد هي المدرسة التي يتعلم فيها المسلمون عنايتهم بالصحة فضلا عما يرد في التنزيل كانت أحاديثه وسننه عليه السلام هي المرشد الى السبيل الذي يجب اتباعه للمحافظة على الصحة ومعالجة انحرافها .

وظل الأمر كذلك في عهود الراشدين ولجزء من عهد الامويين وكل ما زاد فيه على عهد النبوة هو الكلام أحيانا عن مباديء في علوم الطبيعة والكيمياء ، أما الكلام عن الطب فلم يخرج عن تفسير للآيات التي نزلت في هذا الصدد عن التحدث في الطب النبوي رواية وتفصيلا .

٣٠ـ عيون الأنباء ـ مرجع سابق ـ ص (٤١٦) .
٣١ـ عبدالله بن محمد النعيمي ـ الدارس في تاريخ المدارس ـ ج (٢) ص (١٢٧) .

وفي اواخر العهد الأموي ازداد الاهتمام بالعلوم الدنيوية بجانب الاهتمام بالعلوم الدينية فترجمت بعض الكتب في الطب لكن الطب في هذا العهد لم يكن من بين العلوم التي يمكن دراستها في المسجد أو في مكان آخر اللهم إلا ان يقصد الراغب احدى المراكز الطبية التي كانت قائمة قبل ظهور الإسلام والتي ظل بعضها يمارس نشاطه حتى منتصف القرن الثالث • ولعل انشغال المسلمين في بناء دولتهم الجديدة هو الذي صرف اهتمامهم عن ذلك ، أو ان التزام تلك المدارس بعقائد دينية على غير ما في الإسلام هو الذي جعلهم يعزفون عن تلقي العلم في وسط لايلائم طراز تفكيرهم وحرية رأيهم •

وبعد أن بلغ الاهتمام بالعلوم الدنيوية وتدريسها مستوى عاليا في زمن الرشيد صار لدراسة الطب مسار يمكن تحديده ويتلخص بتعلم القراءة والكتابة واللغة ثم الإلمام بالحساب والهندسة وعلم النجوم ثم الارتياض بالمنطق والفلسفة والفقه والتشريع ومن بعد ذلك الى الطب •

وظلت دراسة الطب تقتضي ملازمة الطالب مدرسه لفترة من الزمن ثم الانتقال الى مدرس ثانٍ او ثالث كل باختصاص في فرع من فروع الطب الى أن يكمل تحصيله ، ولم يكن هذا الانتقال سهلاً اذ لا يتيسر للمدرس الجديد قبول الطالب لانشغاله بغيره او لأن الطالب لم يكن بعد قد استكمل الشروط التي يضعها بعض المدرسين أمام من يقصدونهم ، او ان يكون صعباً في بعض الاحيان لتطلبه الإرتحال وفي ذلك مشاق لا يقدر عليها كل شخص فالى جانب عناء السفر ونفقات المعيشة كان على الطالب ان يجهد نفسه ليألف الوضع في البيئة الجديدة ويتعلم أسلوب المدرس الجديد • ظل الحال على هذا الاسلوب حتى ظهور المدارس الطبية فخف عن الطالب عبء تغيير المدرس وتغيير أسلوب التدريس ولم يعد لزاماً عليه ان ينتقل او يرتحل الى حيث يوجد من يأخذ عنه العلم أو اذا اراد التفقه على علم من الاطباء في بلد ناءٍ •

كانت مدارس الطب عديدة ولكن وبسبب ان دراسة الطب لم تكن تستكمل الا في المشافي وان أطباء المشافي هم أساتذة الطب فيها ، فان مدارس الطب لم تحض باستقلال اسمها وظلت تعرف بانتمائها للمشفى الذي تدرس الطب وتعالج المرضى فيه في آن واحد .

كانت أول مدرسة طبية مستقلة في الاسلام هي مدرسة خاصة أسسها الطبيب ابو جعفر أحمد بن محمد بن ابي الاشعث (المتوفى ٣٦٢ هـ) في الموصل وكان صاحب هذه المدرسة يحث طلابه على ضرورة أن يكون طالب الصناعة ملازما للمشفى ومواضع المرضى .

وأسس رئيس الاطباء ومدير مشفى العضدي أمين الدولة هبةالله بن أبي صاعد ابن التلميذ مدرسة للطب في بغداد سنة ٥٦٠ كان يومها كثير من الطلبة لكنها لم تدم بعد وفاته لانه لم يترك بعده خليفة مستحقا لها .

وفي دمشق انشئت ثلاث مدارس خاصة : (١) المدرسة الدخوارية : أنشأها مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد سنة ٦٢١ واجتمع اليه فيها خلق كثير يقرءون عليه من بينهم ابن أبي أصيبعة ، وقد اوقف الدخوار بيته وضياعا واملاكا لتبقى المدرسة بعده وكان الدخوار كثير الدراية واسع الاطلاع وقد تولى رياسة الطب في الشام ومصر أيام الملك الكامل الأيوبي وكان يتردد على المشفى النوري الكبير مع جماعة من الطلبة والأطباء المتفقهين لمعالجة المرضى .

من الذين درسوا في هذه المدرسة مهذب الدين الموصلي ورضى الدين البرخي وشرف الدين الرضى وعلاءالدين بن النفيس وعز الدين السويدي وجمال الدين الدمشقي وكمال الدين الطبيب وبدرالدين السويدي وأمين الدين بن داود .

(٢) المدرسة الربعية الديسرية : انشأها عمادالدين ابو عبدالله محمد بن القاضي الخطيب تقي عباس بن أحمد بن عبيد الربعي عام ٦٨٦ وكان مولده

بدنيسر وبها نشأ واشتغل بالطب ثم سافر الى مصر وعاد الى الشام وأقام بدمشق وخدم بالمشفى الكبير النووي •

(٣) وفي البصرة أنشئت مدرسة أبي المظفر باتكين للطب[٣٢] • ذكر صاحب كتاب الحوادث الجامعة (ص ١٨١)أن ابا المظفر باتكين انشأ في البصرة مدرسة يقرأ فيها علم الطب وعسر مشفى كان قد خرب وتعطل (٤) وفي عام ٦٢٥هـ بدأ الخليفة المستنصر بالله ببناء المدرسة المستنصرية في بغداد وافتتحها عام ٦٣١هـ وهي اول مدرسة في العالم الاسلامي عنيت بتدريس الفقه على المذاهب الاربعة وأفخم مدارس العراق على الاطلاق واكثرها شهرة وأعظمها وفقا ، وما زال بناؤها يحكي عظمة الحضارة ورقيها • جاء في تاريخ علماء المستنصرية : « تكامل في سنة ٦٢٣هـ بناء الايوان الذي أُنشيء مقابل المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس عليها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم ، وهذه اول مدرسة عامة للطب في الاسلام • ذكر بن العبري ان طبيب المستنصرية كان يتردد الى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم وأنه كان في المشفى مخزن فيه جميع الأدوية والاشربة والعقاقير • وكان من شروط مدرسة الطب في المستنصرية التي جاءت في كتاب الحوادث الجامعة ومختصر الدول والسجد المسبوك وذكرها الصفدي نقلاً عن ابن الساعي[٣٣] : (١) أن يكون بها طبيب مسلم حاذق (٢) أن يكون له أسوة النحوي في الخبز واللحم والمشاهرة (٣) أن يكون فيها عشرة انفس من المسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب (٤) أن يوصل اليهم من الجرايات أسوة بطلبة الحديث من الطبخ والمشاهرة (٥) أن يطب الطبيب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف (٦) ان يعطي المريض ما يوصف له من الأدوية والاشربة والاكحال والسكاكر والفراريج وغير ذلك •

٣٢ـ صالح أحمد العلي ـ خطط البصرة ومنطقتها ص (٦١) •

٣٣ـ ناجي معروف ـ تاريخ علماء المستنصرية ج (١) •

كانت المدرسة المستنصرية داخلية توفر لرجال ادارتها ومدرسيها وطلبتها المآكل والمسكن فضلا عن رواتب شهرية جارية وكن المستوى العلمي للشيوخ والمدرسين والمعيدين والطلبة في المدرسة أعلى من مستويات المدارس في ذلك العصر أو التي أنشئت قبلها فكان المدرسون يتخيرون من كبار المدرسين في العراق والشام ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية ممن انتهت اليهم رئاسة العلم وآن المعيدين فيها كانوا ينقلون الى مدرسين في المدارس الأخرى ولا يقبل في المدرسة إلا النابهون الذين أصبحت لهم شهرة تؤهلهم للدراسة فيها ، فضلا عن ذلك فان المدرسة تـوفر مستلزمات الدرس والبحث الذي يتمثـل في مكتبة ضخمة تحوي على آلاف من المجلدات •

من الذين درّسوا الطب في المستنصرية[٣٤] : أبـو منصور المنعـوت بالشمس وطبيب المستنصرية المعـروف بابن الصباغ ومحمدالديـن أبو علي المتوفى ٧١٥هـ وعبدالله محمد عمادالدين القرافي المتوفى ٧٢٤هـ ومحمد بن محمد بن محمود بن قاسم الحلبي المتوفى ٧٢٤هـ وشافع بن عمر بن اسماعيل الحنبلي المتوفى ٧٤٢هـ ، ويبدو أن المشرف على تدريس الطب في المستنصريـة كان المشرف على الأطباء في العراق ، فالطبيب مجدالدين أبو علي الحكيم البغدادي في أيام السلطان أرغون عهد اليه ان يعتبر الأطباء والصيادلة فمن ارتضاه آقره على عمله ومن لم يرضه يستبدل بمـن يراه أهلاً للتدبـير والعـلاج وحفظ الصحة والمزاج •

وفي القيروان نشأت مدرسة للطب[٣٥] في القرن الرابع والخامس وكان من الذين درسوا فيها ابن الجزار وقسطنطين الأفريقي •

٣٤ــ حسين أمين ــ المدرسة المستنصرية .

٣٥ــ الدو ميللي ــ العلم عند العرب ــ ترجمة عبدالحميد النجـار ومحمـد يوسف موسى دار القلم ١٩٦٢ ص (٢٤٦) •

(٤) مناهج التعليم الطبي في الاسلام :

(٤ ـ ١) تطور المناهج :

لم يعرف عن تعليم طبي في الإسلام تخضع دراسته لمناهج منظمة إلا في منتصف القرن الثاني وذلك عند انشاء المشافي ، ولم تبلغ مناهج التعليم هذه غاية انتظامها إلا في نهاية القرن الثالث وهو وقت ظهور المدارس الطبية ، وكان على من يروم تعلم الصناعة قبل ذلك أن يقرأ على طبيب نابه عدداً من الكتب الطبية ، فمتى أنس في نفسه الكفاية للبدء بالممارسة فعل ذلك .

(٤ ـ ٢) العلوم التي ينبغي دراستها :

كان أول ما رسم للراغب في دراسة الطب هو ان يقفو ما سار عليه الأقدمون من الأطباء اليونانيين وهو أن تسبق دراسة الطب دراسة للمنطق والتعاليم الاربعة وهي الحساب والهندسة والنجوم واللحون وكانت الفكرة السائدة هي أن المنطق معيار العلوم وسابق لها ومن دونه لايمكن للطبيب أن يحسن تقسيم الأمراض الى أنواعها ولا يعرف ما أصاب مما خطأ . أما الحساب فيفيد في معرفة تقسيم الأزمنة ، والهندسة في التعرف على اشكال الجراحات وعلم النجوم في استعمال الدواء في الوقت المناسب وعلم اللحون في ترويض الذهن في النغم والأصابع في الاوتار كي يسهل تعلم النبض وجس العروق .

وقد أدرك المعلمون فيما بعد أن تعلم هذه العلوم ليس باللازم لتعلم الطب ، فقد يمهر الطبيب من دون تعلمها وأن الفائدة من الخوض فيها يتعدى كونه توسعا في استكمال المعرفة ، والطب علم تحتاج دراسته الى شيء من غير ذلك . ان عبدالملك بن زهر وابو القاسم الزهراوي قد انقطعا للطب ولم يدرسا سواه .

(٤ ـ ٣) اختبار طالب الطب :

لم توضع في البداية أي شروط لقبول الطالب في دراسة الطب سوى أن تكون له رغبة صادقة ونزيهة لهذه الدراسة وأن يكون قد تهيأ لها بدراسة ما يجب ان يسبقها من علوم • وبالرغم من محاولة بعضهم وضع التصور الكامل لأوصاف المستعد لدراسة الطب إلا أن الواقع يؤكد أن هذه الأوصاف لايمكن أن تتحقق إلا في الشخص المثالي وان الكثير من مشاهير الطب لم يتصفوا إلا ببعض منها •

مما جاء في المختارات لابن هبل[٣٦] « يعرف المطبوع بالحكمة بصحة مزاجه وتناسب أعضائه وطهارة أخلاقه ، فمن ذلك ان يكون معتدل الرأس بقياس الصدر وان يكون شكله طبيعياً فإن كبر الرأس بقياس الصدر يدل على رطوبة الدماغ وبلادة الذهن ، وصغره على الحدة والطيش والتهور ••• ومما يستحب في متعلم الصناعة أن يكون حسن الصورة والشكل محبوباً الى القلوب لا عبوساً ولا قطوباً وأن يكون معتدل السحنة بين السمنة والهزال ••• وأخلاقه محمودة بين السرعة والبطء والجبن والتهور متوسط الحال بين الطيش والوقار بين الغضب والجمود ، والنباهة والتبذل ، والبخل والتبذر ، ذكي الحواس مستيقظ الفطنة ديّن الضمير معروف بالتستر والعفاف •

ولم يكن اشتراط السن قيداً على الراغب في دراسة الطب ولكن الطالب الذي ينهي دراسة المنطق والتعاليم الأربعة لابد ان يكون قد قارب الثامنة عشرة أو جاوزها ، ومع ذلك فتاريخ الطب مملوء بمن شذوا عن ذلك• فعلي بن رضوان أخذ في تعلم الطب وهو ابن اربع عشرة وابن سينا مارس الطب وهو ابن ست عشرة أما الرازي فقد بدأ بدراسة الطب في الثلاثين[٣٧] •

٣٦ـ مهذب الدين علي بن أحمد بن علي بن هبل ـ المختارات في الطب ـ ج (١) ص (٥) •

٣٧ـ عيون الأنباء ـ مرجع سابق ـ ص (٤١٤) •

ولما زاد اقبال الناس على تعلم الطب وضع القائمون عليه ضوابط للحد من أعداد المقبولين فقد كان بعض المدرسين لا يقبلون إلا ذوي الاعمار المناسبة أو من يتوسمون فيهم النباهة ، وكان بعضهم الآخر يعطي الأفضلية لمن جاء مرتحلاً من بلاده قصد التعلم إذا ثبت أن له من المعرفة السابقة ما تؤهله للاستزادة ، ولا يشترط فريق ثالث أياً من هذه الشروط ويقبل المتقدمين من العمر والنساء .

(٤ ـ ٤) التدرج المنطقي في دراسة الطب :

يخلص من ينظر في الكتب الطبية التي وضعها الأطباء المسلمون والتي ظلت تدرس لقرون عديدة ، وكذلك من يطلع على سير الأعلام من مدرسي الطب في الإسلام الى أن التدرج في دراسة الطب قد خضع لقاعدتين ، الأولى أن الدراسة في الطب يجب أن تكون اولاً للأحوال الطبيعية وللتغييرات التي تطرأ عليها ، والثانية ان تبدأ في دراسة الظاهر قبل الخافي . وعلى هذا الأساس كان أول ما يبدأ به الطالب في دراسة الطب هو دراسة الأمور الطبيعية في الجسم وتشمل تركيب أعضائه (علم التشريح)ومنفعة كل عضو (علم الطبائع ـ الفيزيولوجي) ؛ ثم يصار الى دراسة الخارجة عن طبيعة الجسم (علم الأمراض) . أما في الشق الثاني فأول ما يدرس فيه هو حفظ الصحة في الأجسام الصحيحة ثم حفظها في الاجسام العليلة وتدبير أمراضها ومداواتها .

وقد أوصى الأطباء المسلمون بالتزام أسس التدرج هذه وأشاروا الى إضرار تجاوزها ، فقد قال علي بن العباس : « فلا يقدّم قراءة كتاب كان ينبغي أن يؤخر قراءته ولا يؤخر كتاب ينبغي أن يقدم قراءته فلا يفهم من واحد شيئاً ويبقى الطالب متحيراً متبلداً كمثل رجل يريد الصعود الى سلم فيتخطى المرقاة الأولى الى الثالثة فيتأذى بذلك وذلك إما أن يقع من السلم أو تتألم رجلاه » .

يبدأ ابن رشد في كتابه (الكليات) بكتاب تشريح الأعضاء ثم بكتاب علم منافع الأعضاء ثم في كتاب اسباب الامراض وبعده في كتاب العلامات ثم في كتاب الأدوية والاغذية يليه كتاب حفظ الصحة ويختمه في كتاب شفاء الأمراض وبه يذكر تشخيصها وأنواعها وما يوصف لها من علاجات • ان هذا التدرج يشبه كثيراً تدرج اليوم في تدريس الطب •

كان المظنون أن جوامع الاسكندرانيين من كتب جالينوس والمصنفة الى سبع مراتب قد جاءت في تدرجها على هذا النمط وهو الذي أراده جالينوس لكن الأمر كما يراه أبو الخير قد جاء على غير هذا فقد قال انهم لم يتكلموا في الأهوية والاغذية ولم يفلحوا في ترتيب الكتب حسب أولوياتها كما أراد جالينوس ، وايد بن أبي أصيبعة ما رآه أبو الخير فقال : « بأن على كل ذي صناعة أن يتدرج في تعلمها من الأظهر الى الأخفى والتشريح هو علم البدن وأعضاؤه أول ما يظهر للإنسان » •

(٤ ـ ٥) تبويب الكتب الطبية :

كانت الكتب الطبية تبوب في النحو التعليمي على احد خمس طرق :

١• طريق التحليل بالعكس •

٢• طريق التركيب •

٣• طريق الحد •

٤• طريق الرسم •

٥• طريق القسمة •

وكان أكثر الأطباء في الإسلام يتبعون تبويب الكتب على طريقة القسمة لأنه أكثر ملائمة لتدريس الطب فبه يمكن (١) تقسيم الجنس الى انواع (٢) والأنواع الى اشخاص (٣) والاسم المشترك الى معان مختلفة (٤) والكل الى أجزاء (٥) والجواهر الى أعراض (٦) والأعراض الى أعراض متباينة •

ومع ان اكثر الكتب التدريسية التي وضعت طبق التدرج الطبي كانت قد بوبت بطريقة القسمة فإن التركيز على طريقة دون اخرى يتأثر كثيراً بأنتماء المؤلف لإحدى فئتي الطب المعروفة آنذاك وهما:

(أ) فئة المدرسين ، وهم الفلاسفة الأطباء الذين درسوا الطب على انه جزء من المعرفةوكان سعيهم لاستكمالالمعرفة هو الذي دفعهم الىدراسةالطب لذا فإنهم يعنون في كتبهم بالدرجة الأولى بالتنظيم والتقسيم المنطقي وإن لم يكن لهم سند من الواقع • ينتمي ابن سينا لهذه الفئة إذ يظهر في تبويب كتبه تأثره بدراسته للفلسفة والمنطق فيقول : « ابتديء بتشريح العضو ومنفعته فإذا فرغت من ذلك ابتدأت في أكثر المواضيع بالدلالة على كيفية حفظ صحته عليها وطرق معالجتها بالقول الكلي فإذا فرغت من هذه الأمور الكلية أقبلت على الامراض الجزئية وذلك في أكثرها على الحكم الكلي في هذه واسبابه ثم تخلصت الى الأحكام الجزئية بدواء بسيط او مركب » •

(ب) فئة الممارسين ،وهم الأطباء الفلاسفة الذين ينصب اهتمامهم الأول على المرض وأسبابه وتشخيصه وعلاجه ، والفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية لذا فهم يعنون في كتبهم بالمشاهدات والدلالات والفروق بين الأمراض • كان الرازي من هذه الفئة[٣٨] ولعل ما جاء في كتابه (محنة الطبيب) خير مثل على اسلوبه إذ يقول : « ••• أطلب في كل مرض هذه الرؤوس : التعريف ومثاله أن نقول ان ذات الجنب هو اجتماع حمى حارة مع وخز في الأضلاع وضيق في النفس وصلابة في النبض وسعلة يابسة ، ثم أطلب العلة والسبب ومثال ذلك أن تعلم ان سبب

٣٨ـ محمد حسين كامل والبير زكي اسكندر ـ كتاب المرشد ـ مجلة معهد المخطوطات العربية مايو ١٩٦١ ص (١٤٠) •

ذات الجنب ورم حار في ناحية الغشاء المستبطن للأضلاع ، ثم اطلب هل ينقسم بسببه ونوعه أو لا ومثال ذلك أن تنقسم ذات الجنب الى الخالصة وغير الخالصة ثم اطلب تفضل كل قسم على الآخر ثم أطلب العلاج فالاستعداد فالاحتراس فالإنذار » .

(٤ ـ ٦) المواظبة على قراءة الكتب الطبية :

لم يكن في الماضي ولا في الحاضر من يظن ان إجازة الدارس في الطب هي إيذان بإحاطته بالطب واكتفاءً بما تعلمه ، فالطبيب اذا ما انقطع عن المواضبة على قراءة الكتب الطبية والمذاكرة مع الحذاق من الاطباء تأخر من أن يبلغ في الصناعة شيئاً .

جاء في المختارات في الطب[٣٩] : « ... ومما يمتحن به الطبيب حتى يوثق بعمله إن كان همه اذا خلا الى بيته مطالعة الكتب ودراسة الصناعة » .

ذكر عن أبي المجد بن أبي الحكم انه بعد فراغه من الطواف على المرضى يجلس في الإيوان ويأتي الاطباء والمشتغلون ويقعدون اليه فيتذاكرون وينظر في الكتب عدة ساعات .

وقال الرازي[٤٠] : « من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد كثيراً » وجاء في كتابه أخلاق الطبيب : « فأول ما يجب عليك صيانة النفس عن الاشتغال في اللهو والطرب ، بل بالمواضبة على تصفح الكتب » .

وفي كامل الصناعة لعلي بن العباس المجوسي[٤١] جاء : « ولا ينبغي على الطبيب ان يكون اكثر تشاغله الا بالكتب والحرص على النظر فيها ، أعني كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قد

٣٩ـ بن هبل ـ مرجع سابق .
٤٠ـ محمد بن زكريا الرازي ـ المرشد ـ ج (١) م (٧) ص (١١٩) .
٤١ـ علي بن العباس المجوسي ـ كامل الصناعة ـ لاهور ١٨٩٩م ص (٨) .

قرأه واستظهاره وتذكر إياه في ذهابه ومجيئه ليحفظ كل ما يحتاج اليه من علم وعمل ، ويروض ذهنه حتى لايحتاج في كل وقت الى النظر في كتاب فإنه ربما نالت كتبه آفة فيكون رجوعه فيما يحتاج اليه غير ممكن » .

وقال الرازي : « هذه صناعة لايمكن الانسان الواحد اذا لم يقتد فيها على من تقدمه أن يلحق فيها كثير شيء ولو أفنى عمره فيها لأن مقدارها اطول من مقدار عمر الإنسان بكثير . . وانما أدرك من ادرك من هذه الصناعة الى هذه الغاية في ألوف السنين ألوف الرجال فإذا اقتدى المقتدي اثرهم صار كمن أدركهم كلهم في زمان قصير وصار كمن عمر تلك السنين » .

ولعل ما وراء قول الرازي وقول المؤكدين على مواظبة قراءة الكتب الطبيةهو ان هذه القراءة في أحد معانيها تعني توجهاً نحو التفقه ، اذ من الطبيعي أن يبرز لأي طبيب اهتمام في أي فرع من فروع الطب فإذا قرن هذا الاهتمام بدراسة الكتب التي تتناول البحث فيه واكتسب من الممارسة خبرة فيما قرأ وناقش الحذاق من الأطباء في كل هذا فانه لا شك يكون قد سلك الطريق الى التفقه (الأختصاص) .

(٤ ـ ٧) ضرورة ملازمة المشافي :

كان وما يزال بالإمكان تدريس جزء من علوم الطب (وهو ما نسميه الآن علوم الطب الاساسية) بمعزل عن المرضى ، إلا ان دراسة كيفية مباشرة الطب (وهو الجزء السريري من التعليم الطبي) لايمكن أن يتم إلا في المشافي وفي مواضع تواجد المرضى .

لهذا السبب جاءت وصايا أهل الصناعة مؤيدة لهذا الرأي ، فمن وصايا أبقراط كما اوردها علي بن العباس في كامل الصناعة : «إن على متعلم الطب أن يكون ملازماً للمشافي ومواضع المرضى كثير المداولة مع الحذاق من الأطباء » .

ونصح أبو جعفر احمد بن أبي الأشعث دارسي الطب بقوله : « ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازماً للمشافي ومواضع المرضى كثير المداولة في أمورهم واحوالهم مع حذاق الأطباء فإن بلغ مبلغا حسناً تكون مداواته للعليل صواباً » .

وقال بن أبي أصيبعة : « كنت أجلس في المشفى مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض ومداواتها وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتبه لهم وأبحث معه في كثير من الامراض ومداواتها وكان معه في المشفى الحكيم عمران وهو من أعيان الاطباء وأكابرهم فكانت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما تتضاعف بما يجري بينهما من الكلام في الامراض ومداواتها»[٤٢] .

إن ملازمة المشافي ليست ضرورية للطالب وحده ، فالمتطبب الذي يمارس الصناعة بعيداً عن المشافي وحذاق الاساتذة فيها يكون قد فاته الكثير من أمور الصناعة ولن يكتسب من التجربة في مشاهدة المرضى بقدر مماثل لما يكسبه فيما لو أجرى تلك المشاهدة بحضور أساتذة الطب وناقش معهم أحوال كل مريض .

وملازمة المشافي لازمة للحذاق من الأطباء أيضا كما هي لغيرهم فوجود الطبيب في محيط علمي ومبادلته الأفكار والتجارب مع أقرانه تزيد من علمه وخبرته مثل إغناء المكتبة العامرة بالنفيس من الكتب .

٥ ــ المذاهب والاراء الطبية :

(٥ ــ ١) تعريف الطب :

لم يختلف اعلام الطب المسلمون اختلافاً جوهريا في تعريف الطب وإن يكن بعضهم قد عرفه بعمق وإسهاب ، فقد قال ابن سينا : « الطب علم يتعرف منه أحوال البدن من جهة ما يصح ويزول عن الصحة ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة » .

٤٢ــ عيون الأنباء ــ مرجع سابق ص (٣٣١) .

وقال علي بن العباس المجوسي في كامل الصناعة : « •• من جهة حفظ الصحة على الأصحاء اذا كانت موجودة فيهم وردها عليهم اذا كانت مفقودة »•

وقال ابن رشد : « صناعة الطب هي صناعة فاعلة عن مبادىء صادقة يلتمس فيه حفظ بدن الإنسان أو إبطال المرض وذلك بأقصى ما يمكن في واحد من الأبدان ، فإن هذه الصناعة ليست أن تبرى ولابد ، بل ان تفعل ما يجب بالمقدار الذي يجب وفي الوقت الذي يجب ثم تنتظر حصول الغاية كالحال في صناعة الملاحة وقود الجيش » •

ومثل ما اتفق على تعريف الطب اتفق على تقسيم علومه وإن اختلفت بعض التسميات ، فالكل يقسم الطب الى علمين : علم يبحث في الأمور الطبيعية والامور التي ليست طبيعية والامور الخارجة عن الطبيعي ، وقد سماه علي بن العباس (النظر) وسماه بن سينا (علم أصول الطب) و سماه آخرون (العلم) •وعلم يبحث في حفظ الصحة ومداواة المرض وقد سماه علي بن العباس المجوسي (العمل) وسماه بن سينا (علم كيفية مباشرة الطب) •

(٥ ـ ٢) التخمين والتجربة :

أجمع الاطباء في الإسلام على أهمية التجربة في صناعة الطب لكنهم لم يجمعوا على المعنى المراد بالتجربة ، فهي عند المدرسيين ليست إلا الخبرة التي يكتسبها الطبيب من ممارسة المهنة التي يصحبها عادة استدلال تجريبي يقوم به الطبيب دون أن ينتبه اليه • فقد ذكر الجزجاني في ترجمة حياة بن سينا : « كان أن حصل للشيخ تجارب كثيرة فيما باشر من المعالجات عزم على تدوينها في كتاب القانون وكان أن علقها على أجزاء فضاعت قبل اتمام القانون » • يؤيد هذا القول ما قاله بن سينا عن نفسه : « وتعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة بما لا يوصف » •

وهذاقريب مما أراده ابن رشد في قوله : « والطبيب الناظر في هذه الصناعة اذا ورد عليه بدن معتدل ، يخمن في ذلك بمقدار ما يحتاج اليه من

طبيعة الدواء الفاعل لذلك الفعل في البدن • وللتجربة هاهنا فعل كبير ، مثال ذلك أننا متى علمنا ان الدواء المنضج هو الذي حرارته مساوية لحرارة بدن الإنسان فينبغي أن نتأمل في هذا المعنى في مزاج انسان انسان وتتخير له الدواء الذي نحدس ان هذه نسبته اليه وليس يجب ان يفعل هذا في المزاج بل في العضو ، فإن المقيّح في الفخذ غير المقيّح في الأذن ، وهذه كلها ينبغي أن تكون من الطبيب بحذاء ذهنه وللتجربة كما قلنا في التخمين على هذه الاشياء والحدس قوة عظيمة » •

هذا ما تعنيه التجربة عند المدرسيين أما عند الممارسين فان التجربة تعني ما يستحقه الطبيب من رأي في تكرار إحداث فعل تحت ظروف معينة ومقارنة ما يحدث عند تغيير تلك الظروف •

كان للممارسين ممثلين بالرازي ميل للتجربة إذ قال : « لاينبغي لنا ان ندع شيئا نأمل فيه نفعاً من أجل ان قوماً جهلوا وتعدوا ، فقد كان من الواجب عليهم لو كانوا أهل رأي وتثبت وتوقف ان لايبادروا الى انكار ما ليس عندهم على بطلانه برهان » وقال : « لم نر أن نطرح كل شيء لاندركه ولا تبلغه عقولنا لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا ، بل نضيف الى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شيئا من ذلك عندنا محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له » • وكانت التجربة عنده تخضع لمنهاج ، إذ يقول في احدى رسائله الى تلاميذه : « ان التجربة علم له أصول وفروع لذلك يجب على الطبيب أن يكون قد أحكم الأصول وقرأ الفروع فإنه من غير هذين لا يصح له شيء ولا يهتدي لأمر من امور الصناعة » •

وكمثل على ان التجربة عنده كانت موجهة وليست اتفاقية ، ولكي يتحقق من أثر الفصد في علاج السرسام قسم مجموعاته الى قسمين فصد مجموعة وامتنع عن فصد الاخرى ثم راقب الاثر والنتيجة في أفراد كل مجموعة حتى انتهى الى حكم في قيمة العلاج ، فقال : « فمتى رأيت هذه العلامات فتقدم

بالفصد فإني قد خلصت جماعة به وتركت متعمداً جماعة اخرى استدني بذلك رأيا فسرسموا كلهم » •

وقد أجرى التجارب على الحيوانات لاسيما القردة فقال في خواص الزئبق : « اما الزئبق العبيط فلا أحسب ان له مضرة كبيرة اذا شرب اكثر من وجع البطن والأمعاء ، وقد سقيت قرداً كان عندي فلم أر عرضا له إلا ما ذكرت وخمنت ذلك من تلويه وقبضه بفمه ويديه على بطنه » •

وكان الرازي لايقبل الحق بالرجال أي لايقبل رأيا لان قائله أبقراط او جالينوس وانما لأن التجربة والمشاهدة تؤيد ذلك • ويمتنع عن قبول الآراء المبنية على مشاهدة واحدة لذلك يثق بالطبيب الذي يعالج المرضى في المدن المزدحمة بالسكان والموبوءة بالامراض فيسأل عن صاحب التجربة : « هل شاهد المرضى وقلبهم وهل كان ذلك في المواضع المشهورة بكثرة الاطباء والمرضى أم لا » • وما حالاته الثلاث والثلاثون الا دليل على استخدام الرازي للتجربة في بحوثه الطبية وشهادة براعته في الملاحظات السريرية وكان ان اتخذ الرازي من هذه الحالات وسيلة لتعليم تلاميذه •

ومما يزيد توضيح موقف الرازي من التجربة قوله في كتابه أخلاق الطبيب : «••• ودع ما يهذي بها جهال العامة أن فلانا قد وقعت له التجربة في غير علم يرجع اليه فان ذلك لن يكون ولو كان أطول الناس عمراً ، وما نفع له من علاج موافق فهو من حسن الاتفاق ، فأعلى درجات هؤلاء الذين ليس يرجعون الى علم أصول الصناعة انهم ينظرون في الكتب فيستعملون منها العلاجات وليسوا يعلمون ان الاشياء الموجودة فيها ليست هي أشياء تستعمل بأعيانها بل هي مثالات جعلت ليحتذي عليها وتعلم الصناعة منها •

(٥ ــ ٣) تعزيز الصحة وعدم تعويد البدن على الكسل :

إن أفضل اسلوب في المعالجة هو ترك البدن لطبيعته في تدبير أي انحراف عن الصحة اذا لم يؤد هذا الترك الى فوات الوقت وإضعاف البدن ، وإلا

فالمعالجة بالغذاء فان لم تغن فبالدواء الاضعف فإن كان دون ما يحقق الغاية فبالدواء الأقوى ، وان الاقامة في المعالجة على دواء واحد قد يضعف تأثير الدواء بإضعاف انفعال الطبيعة عنه •

في هذا قال ابن النفيس في كتابه (الموجز) « ينبغي أن لا تعوّد الطبيعة الكسل بأن يعالج كل انحراف عن الصحة وأن لايجعل شرب المسهل والمقيىء ديدانا ، وحيث أمكن التدبير بأسهل الوجوه فلا يعدل الى أصعبها ويتدرج من الأضعف الى الاقوى إلا ان يخاف فوت القوة حينئذ يجب البدء بالأقوى ولا يقام في المعالجة على دواء واحد فتألفه الطبيعة ويقل انفعالها عنه ، ولا يدام على الغلط او يهرب من الصواب لتأخر أثرهما •• وحيث أمكن التدبير بالأغذية فلا يعدل الى الادوية •

قال الرازي في كتابه المرشد « •• والطبيعة تجاهد العلل وتعاركها وتروم تحليلها ومتى كانت وافية بالعلة لم يحتج الى معونة الطبيب ولذلك تسلم الأمم القليلة الاستعمال للطب من أمراض كثيرة » •

(٥ ـ ٤) الادوية تعرف قواها بطريقتين التجربة والقياس :

استأثر الدواء باهتمام بارز في تعليم الطب بالإسلام ؛ ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على تعليم اصناف الادوية ومصادرها وطرق تحضيرها ومقادير جرعها بل شمل ما هو أهم وهو كيفية التعرف على قواها •

يقول ابن النفيس في الموجز « والأدوية تعرف قواها بطريقتين ، إحداهما التجربة والاخرى القياس • وانما يُعتقد صدق التجربة اذا كانت على بدن انسان وكان الدواء خاليا من كل كيفية عرضية واستعمل في علل متضادة وبسيطة وان تكون بما قوته مقاربة لقوة العلة وان يكون تأثيره أولاً ودائماً أو أكثرا ، واما القياس فيدل عليه باللون ثم الرائحة ثم الطعم » •

ويقول بن سينا «تُعرف قوى الادوية بطريقتين التجربة والقياس • فالتجربة تهدي الى معرفة قوة الداء بالثقة بعد مراعاة شروط سبعة أولاً أن

يكـون الـدواء خاليـا من صفـة مكتسبـة ، ثانيـاً ان يكون بالمجرب عليه علـة مفـردة ، ثالثـاً ان يكـون الدواء قـد جـرب علـى المضاد ، رابعاً ان تكون القوة في الدواء مقابلة لما يساويها من قوة العلـة ، خامساً ان يراعى الزمان الذي يظهر فيه أثره وفعلـه ، سادسـاً أن يراعى استمرار فعله على الدوام او على الاكثر ، وسابعـاً ان تكون التجربـة على بدن انسان » .

(هـ) الدواء المفرد والدواء المركب :

الدواء المفرد هو ذلك الذي يكون تأثيره في البدن في كيفيته والذي اذا ما ورد على البدن وانفعل من حرارته الغريزية فانه اما ان لايؤثر في البـدن كيفية زائدة على ما للإنسان وهذا هو الدواء المعتدل ، واما ان يؤثر فيه كيفية زائدة وهو الخارج عن الاعتدال الى تلك الكيفيـة . والادوية الخارجة عن الاعتدال إن لم يكن تأثيرها محسوساً فهي خارجة في الدرجة الاولى ، فـإذا كان محسوساً ولم يكن ضاراً فهي في الدرجة الثانية ، وإن كان ضارا وغـير قاتلاً فهي في الدرجة الثالثة ، فإن بلغ القتل فهي سامة .

والدواء المركب هو ذلك الذي يركب من أشياء ممتزجة فيحصل له مزاج ثانٍ . وفي الدواء المركب يؤثر كل واحد من ممتزجاته اثره وقد ينتـج عـن هذا آثار مضادة او أن يكون احد مفرداته قوياً وغالبا فيطغي على المفـردات الاخرى ويجعل اثرها ضعيفا مغلوباً .

إن استعمال الدواء المفرد في العلاج ينيح للطبيب مراقبة اثره في الكيفية ومعرفة درجة خروجه عن الاعتدال وهذا يمكنه من زيادة مقـدار الدواء أو انقاصه حسب ما تدعو حالة المريـض وما يتطلبه المرض في مراحل سيره سواء كان في ابتدائه أو بلغ مرحلة الزيادة أو الانتهاء او الانحطاط ، وهذا اعسـر ما يحدث في الدواء المركب الذي تصبح مراقبة اثر كل مفرد من ممتزجاته في الكيفية وفي درجة خروجه عن الاعتدال أمراً عسـيرا وذلك لتضارب ما يظهر من تأثيراتها المضادة أو من تغلب تأثيرات بعضها على بعض في مختلف درجات المرض .

لهذه الأسباب كلها كانت التوصية بأن لايحدل الى الدواء المركب إن كان التدبير بالدواء المفرد كافياً • وفي هذا قال بن النفيس في كتابه الموجز : « ••• إذ لاتؤثر على الدواء المفرد مركباً إن وجدناه كافيا ، لكننا قد نضطر الى التركيب إما لإصلاح كيفية دواء مفرد لحدته او طعمه او رائحته أو لتقوية قوته أو لإضعافها أو لانه سريع النفوذ فيخلط ما يسرع تثبته او لانه بطيء النفوذ فيخلط به ما يسرع نفوذه إما مطلقاً او لعضو مخصوص او ما يخصه بعضو دون عضو وإما لأن المرض مركب ولا نجد دواءاً مفردا يقابل كلا مفرديه، أو لأن احدى قوتيه أضعف او اقوى فيخلط به ما يعدلها او وجدنا قوتاه متكافئتين لكن احد مفردي المرض اقوى فيقوي القوة التي تقابلها » •

(٥ ـ ٦) بعض الاراء في الجراحة :

لم يول الأطباء المسلمون الجراحة اهتماما قدر اهتمامهم ببقية فروع الطب فهم يذكرونها في كتبهم باقتضاب ولا يمارسونها إلا في القليل ، ولعل ترفعهم عنها وتركهم اياها لمن دونهم لايعود الى ان الجراحة عمل خسيس كما يحلو لبعضهم أن يسميه بل لأن الجراحة التي لم تكن انذاك قد تطورت كانت تحمل معها ، لاسيما الكبيرة ، مخاطر عظيمة رديفة للوفيات العالية وهو أمر لم يكن يريد أي من اعلام الطب ان يقال عن نتائج معالجاته أنها بهذه النتائج •

ومع هذا فان ماذكر عن عمل اليد في أمهات كتب أطباء الاسلام لا يخلو من سرد للحقائق الاساسية التي لاتصح ممارسة الجراحة بدونها • من هذه الحقائق ضرورة معرفة علم التشريح معرفة تامة اذ لا يؤمن ان يصبح الجراح الجاهل بالتشريح في أثناء القطع أو البط عرقا أو عضلة او عضوا فيؤدي ذلك الى الاذى او الهلاك ، وبدون معرفة علم وظائف الاعضاء يصعب على صاحب الصناعة معرفة الحد الذي تفسد الجراحة فيه وظيفة ذلك العضو او تنتقص منها•و عرفوا ان تجمع الدم في تفرق الاتصال يعرض الجرح للنتن وان الجراح اذا كان بسيطا ولم يفقد فيه شيء من العضو ولم يحدث فيه النتن فان تقريب حافتيه وابقائه جافا وتركه للطبيعة هو العلاج الامثل له •

لقد قسم الرازي عمل اليد الى ثلاثة اقسام ، الاول : في العروق ، فان كان في العروق غير الضوارب سمي فصدا ، وان كان في الضوارب سمي قطعا . والثاني : في اللحم ويشمل الحجامة والبط والقطع والخياطة . أما الثالث : فهو العمل في العظم وهو الجبر في العظم المكسور والرد في المفاصل المخلوعة . وقال في بط الخراجات « ... فينبغي ان تنظر فيها حتى يستحكم نضجها وتلين جيداً وترق ثم تبطها ... وان كان الخراج قريباً من المفاصل والمواضع التي فيها الاعصاب أو الرباطات فينبغي أن لا تنظر نضج الخراج لتفتحه حتى لا تأكل المدة رباط المفاصل او أوتارد والأعصاب فتورث الزمالة» .

قال بن سينا في الجراحة «أما تفرق الاتصال الواقع في الأعضاء اللينة فالغرض في علاجها مراعاة اصول ثلاث : الأول ، ان كان السبب ثابتا فأول ما يجب هو قطع ما يسيل وقطع مادته ان كان مجاوراً لمادة . والثاني : الجام الشق بالأدوية والأغذية الموافقة . والثالث : منع العفونة ان أمكن ، واذا كفي من الثلاثة واحد صرفت العناية الى الباقين . وعن الكسر قال « الكسر هو تفرق الاتصال بالعظم وقد يقع متفرقاً وقد ينفق منه غير متفرق .... فاذا تم الانكسار ولم يكن أن بقى العظمان على ما يجب بينهما من المحاذاة فقد يحصل فيهما نخس يحيط من الحجب واللحم فيحدث وجع يتبعه ورم أو قد يميل العضو المكسور الى الخارج أو الداخل وهذا اصعب لما قد يلاقيه الميل من عصب فيؤلم فيه » .

وللزهراوي بين الاطباء الاسلام فضل كبير علي الجراحة فقد أحيا ذكرها بممارسته اياها وعدم الترفع عنها وبسبب ما أجاده من فنونها وكثرة وحسن ما كتب فيهما . ففي كتابه الشهير (التصريف لمن عجز عن التأليف) خصص للجراحة كتابا مستقلا حسن التبويب كثير الرسوم اخذ فيه ما صح من معرفة وخبرة الاخرين في هذه الصناعة وأضاف لها مااكتسبه هو في ممارساته الطويلة لها وقدمها للقارىء فياسلوب سهل شيق جعل من هذا الكتاب كتابا تدريسيا في العالم الاسلامي واوربا لعدة قرون .

جاء في مقدمة هذا الكتاب «...ان عمل اليد في زماننا معدوم البتة حتى كاد ان يندرس علمه وينقطع اثره وأن مابقي منه رسوم يسيرة في كتب الاوائل قد صحفته الايادي وواقعه الخطأ والتدارس حتى استغلقت معانيه وبعدت فائدته فرأيت ان أحييه واؤلف فيه هذه المقالة عن طريق الشرح والبيان ومن وكيد ما يحتاج اليه . والسبب الذي لا يوجد صانع محسن يجيده في زماننا هذا لأن صناعة الطب طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الاعضاء وهيئتها ومندرجاتها واتصالاتها وانفصالاتها ومعرفة العظام والاعصاب والعضلات وعددها ومخارجها ... وينبغي يابني أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم الى قسمين قسم تصحبه السلامة وعمل يكون فيه العطب في اكثر الحالات وقد نهيت في كل مكان بابا من هذا الكتاب للعمل الذي فيه الضرر والخوف فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الجاهل السبيل الى القول والطعن ، فخذوا لانفسكم بالحزم والحيطة ولمرضاكم بالرفق ... ونزهوا انفسكم عما تخافون أن يدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فهو أبقى لجاهكم وارفع في الدنيا والاخرة لاقداركم »

قسم الزهراوي كتاب في الجراحة الى ثلاثة ابواب ، واحد في الكي والثاني في الشق والبط والفصد والثالث في الجبر . قال في الكي «... فاقول في الكي أنه ينفع بالجملة سوء مزاج مع مادة وبغير مادة حاشا مزاجين وهما المزاج الحار واليابس مع مادة فقد اختلفوا فيه ... واعلموا يا بني أن من سر التعالج بالكي بالنار وفضله عن الكي بالدواء المحرق ان النار جوهر مفرد ولا يبعد فعلها فعل العضو الذي كوي ولا يضر بعضو آخر متصل به الا ضرراً يسيراً » .

وفي باب الشق والبط قال « ... وينبغي ان يكون الحفر فيه اشد لأن العمل في هذا الباب كثيراً ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذي به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق على ورم أو بط خراج او علاج جراحة او اخراج سهم

او شق على حصى وغير ذلك ••• فانه قد يقع عليكم في هذه الصناعة ضروب من الناس في ضروب من السقام فمنهم من ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجده من سقمه ومنهم من يبذل ماله ويعينك به رجاء للصحة ومرضه قتال ، فلا ينبغي لكم أن تباعدو ايمانكم ممن هذه صفته البتة وليكن تحذركم أشد من رغبتكم وحرصكم ولاتقدموا على شيء من ذلك الا بعد علم يقين يصح عندكم بما تصير اليه العاقبة المحمودة » •

وفي باب الجبر يقول « ••• واعلموا يابني أن قد يدعى هذا الباب الجهال من الاطباء والعوام ومن لم يتصفح قط فيه للقدماء كتابا ولا قرا منه حرفاً ، فصار هذا الفن من العلوم في بلدنا معدوم فاني لم الف فيه محسناً البتة وانما استفدت منه ما استفدت لطول قراءتي كتب الأوائل وحرصي على فهمها حتى استخرجت علم ذلك منها ثم لزمت التجربة والدربة طول عمري وقد رسمت لكم من ذلك في هذا الباب جميع ما أحاط به علمي ومضت عليه تجربتي بعد أن قربته لكم وخلصته من التطويل وصورت لكم فيه صورا كثيرة من صور الالات التي تستعمل فيها زيادة للبيان» •

٦ ـ الاجازة والممارسة

لم تكن دراسة الطب تنتهي باكمال منهج دراسي معين ولا بقضاء امد معلوم في التحصيل لان قسما من الاطباء كانوا قد بدأوا ممارسة الطب بعد أن قرأوا على يد طبيب نابه الكتب التي تعدّ مدخلا للصناعة واكتفوا بها ، أما الذين تفقهوا بالطب وبلغوا فيه أعلى المراتب فانهم قرأوا ما اتفق عليه كمنهاج كامل في الطب وزادوا عليه في دوام القراءة والاطلاع وملازمة المشافي والبارزين بالصناعة فيها •

ولم يكن صاحب الصناعة في السابق بحاجة الى اجازة ليطبب الناس فمتى أنس الدارس في نفسه الكفاية للبدء بالممارسة فعل ذلك ، لكن المرضى بطبعهم اميل للاستطباب عند طبيب ماهر عرف عنه انه اشتغل في الطب على أعلام زمانه وله من السمعة والخبرة ما يجعلهم وذويهم يطمئنون اليه •

جاء في كتاب المختارات في الطب «... ومما يمتحن الطبيب حتى يوثق في علمه وعمله ان ينظر اذا انفق زمانه الماضي في الاشتغال بهذه الصناعة وطول ملازمة الكبراء من اهلها والقراءة عليهم والعلاج بين أيديهم والتدرب على دخول المرضى في بيوتهم وملازمة خدمة المشفى الذي يجتمع فيه حذاق الاطباء وكثرة نظرة الى معالجة الاستاذ وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته وأن همته اذا خلا الى بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة وأنه غير منشغل باللهو واللعب ومواترة السكر ولا ببعض الخلال المذمومة التي يستغرق الزمان بالتضييع والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي أن يوثق اليه ولا يعول في هذه الصناعة عليه » .

ولعدم وجود ضوابط على الطبيب ولطمع بعضهم في الكسب على غير ما تلزم الصنعة تفشي الجهل بين أربابها فأدى ذلك الى حمل الخليفة المقتدر أن يفرض على الاطباء امتحانا للحصول على اجازة لمارسة المهنة . وكان الذي دعاه الى ذلك أنه في سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على أحد من العامة من بعض المتطببين ومات الرجل فأمر ابراهيم بن أحمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه سنان بن ثابت وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فصاروا اليه وامتحنهم وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف به وبلغ عددهم في جانبي بغداد ثمانمائة والف وستين رجلا باستثناء من استغني عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته ومن كان في خدمة السلطان .

وقد أخضعت الممارسة من بعد ذلك لشروط وشرائع دقيقة تحدد ما للاطباء وما عليهم وجعل الاشراف على هذا التنظيم ضمن واجبات المحتسب .

جاء في معالم القربة لابن الأخوة في الحسبة على الأطباء والكحالين والمجبرين والجرائحيين ما يأتي : «وينبغي اذا دخل الطبيب على المريض سأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ثم يرتب له قانونا من الأشربة وغيره من العقاقير ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض واذا

كان من الغد حضر ونظـر الى دائه وقارورته وسال المريض هل تناقص بـه المرض أم لا ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال ويكتب له نسخـة ويسلمها لاهله وفي اليـوم الثالث كذلـك وفي اليوم الرابع كذلك وهكذا الى أن يبرأ المريض أو يموت • فان برىء مرضه أخذ الطبيب اجره وكرامتـه وان مات حضر اولياؤه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب فان رأها مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب قال هذا قضى بخروج أجله ، وان رأى الامر خلاف ذلك قال خذوا دينكم صاحبكم من الطبيب فانه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه •

كانوا يحتالون على هذه الصناعة الشريفة الى هذا الحد حتى لايتعاطى الطب من ليس أهله ولا يتهاون الطبيب في شيء منه » •

وكان المحتسب يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي اخذه على سائر الاطباء ويحلفهم ان لايعطوا دواء مضرا ولا يركبوا سما ولا يصفوا للنساء دواء يسقط الاجنة ولا للرجال الذي يقطع النسل وليغضوا من ابصارهم عن المحارم عنددخولهم على المرضى ولا يفضوا الاسرار ولا يهتكوا الاستار ولا يتعرضوا لما ينكر عليهم فيه •

أما الكحالون فيمتحنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق (أعني العشر مقالات في العيون) فمن وجده فيما امتحن فيها عارفا بتشريح طبقات العـين وعددها السبعة وعدد رطوبتها الثلاثة وعدد أمراضها الثلاثة وما يتفرغ ذلك من الأمراض ، وكان خبيراً بالاكحال وامزجـه العقاقـير ، أذن له المحتسب بالتصدي لمداواة اعين الناس ولا ينبغي أن يفرط في شـيء من آلات صنعته مثل صنانير السبـل والظفر ومباضـع الفصد ودرج المكاحل ، أما كحـالو الطرقات فلا يوثق فيهم وعلى المحتسب أن يحلفهم على عدم غشوش أكحالهم اذ لايمكن منعهم من الجلوس لمعالجة اعين الناس •

أما المجبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر الأ بعد أن يعرف المقالة السادسة من كناش فوبيوس في الجبر وان يعلم عدد عظام الآدمي وهي مائتان وثمان

وأربعون عظماً وصورة كل عظم منها وشكله وقدره حتى اذا انكسر شيء أو انخلع رده الى موضعه على هيئته التي كان عليها فيمتحنهم المحتسب على ذلك •

أما الجرائحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الانسان وما فيه من العضل والعروق والشرايين والأعصاب ليتجنب ذلك وقت فتح المواد وقطع البواسير وأن يكون معه دست المباضع وفيه المباضع المدورات الرأس والموربات والحربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومخرقة الأذن ومرود السلع ومرهمدان المراهم ودواء الكندر القاطع للنزف •

كل هذه الضوابط حملت شيوخ الطب ومدارسه أن لا تجيز الطبيب الا أن يتحقق فيه الالمام بالصناعة على الوجه الذي يبيح له الاشتغال بها •

قال جيبون واقتدت جميع المدارس الطبية الاسلامية بمدارس القاهرة في تشديد الامتحان على المتخرجين فيها ، فلم يؤذن بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل وامتحن امتحانا تاما • وكانت أول مدرسة في الغرب اقتدت بمدارس المسلمين في مدرسة سالرنو •

كان للطبيب الحرية التامة في التجريب واستنباط الاساليب المناسبة للعلاج ، وكانت التجارب تدون في كتب خاصة يقرؤها الجمهور من الاطباء ، فقد كان لابي البيان بن المدور كتاب في مجرياته في الطب وللساهر يوسف القس كناش فيما استخرجه وجربه أيام حياته ، ولافرايم بن الزفان تعاليق ومجريات ، ولابي الفضائل الناقد مجريات في الطب ، ولمحمد بن زكريا الرازي كتاب عنوانه (قصص وحكايات المرضى) •

تدريس التاريخ في العراق
دراسة في تطور الاهداف والمحتوى وطرائق التدريس

الدكتور فاضل خليل ابراهيم
كلية المعلمين ـ جامعة الموصل

الملخص

سعى البحث الى التعرف على المسار التطوري ، الحديث والمعاصر ، لاهداف تدريس التاريخ في العراق ، وفحص اثر المتغيرات السياسية والتربوية على محتوى مناهج التاريخ المدرسية والكتب وكذلك الكشف عن طرائق التدريس ووسائل التعليم الشائعة الاستخدام لدى معلمي التاريخ ومدرسيه في الفترة موضوعة الدراسة •

اسفر البحث عن جملة من الاستنتاجات ، منها ان الهدفين الوطني والقومي كانا في مقدمة الاهداف التربوية التي نادى بها المفكرون والتربويون وتبنتها وزارة المعارف (التربية) منذ تأسيس الدولة العراقية عام ١٩٢١ • واتسمت اهداف تدريس التاريخ في مراحلها الاولى بالغموض والمحدودية واعتمادها المضمون المعرفي فحسب • وعكست المناهج والكتب المدرسية في التاريخ خصائص الفترة الزمنية التي وضعت فيها ، سواء في مجال انتقاء الاحداث التاريخية او استخدام المصطلحات والمفاهيم وتفسيرها • واقترن تدريس التاريخ في العراق بطريقة المحاضرة (الالقائية) ، متداخلة مع اسلوب الاستجواب وقليل من الاستخدام لطريقة المناقشة •

وعلى وفق الاستنتاجات ، قدم الباحث عددا من التوصيات لفتح افاق مستقبلية جديدة لتدريس التاريخ في مراحل التعليم في العراق •

تمهيـــــد :

اهمية البحث والحاجة اليه

حظي تدريس التاريخ في المؤسســـات التعليمية بمكانـــة متميزة لـــدى السياسيين والمفكرين والتربويين عبر فترات زمنية متعاقبة من تاريخ العـــراق الحديث والمعاصر ، وذلك لما لهذه المادة من خصوصية في اهدافها ومحتواها ، فهي تعبر عن هوية المجتمع وشخصيته ، وتكســـب الناشـــئة الثقة بالنفـــس ، وتمنحهم الفعل الوجداني المطلوب والقوة الدافعة المناسبة لاثبات الوجود في زمن النهوض الوطني والقومي امام الاخـــر المعطل لارادة الامـــة والمســـتلب لفعلها الحضاري •

إن دراسة المسار التطوري لتدريس مادة التاريخ يعطي دلالات واضـــحة على التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية التي ســـادت في حقبة تاريخية معينة ، كما يعكس طبيعة الافكار التربوية وطرائق التدريس الشائعة الاستخدام في تلك الحقبة • علاوة على ان تتبع ذلك المسار يشكل الاطار النظري المرجعي الذي يفسر نمطية اهداف تدريس التاريخ ومناهجه وطرائق تدريسه في الوقت الحاضر ، مما يساعد في إجـــراء عملية تقويمية لواقع تدريس هـــذه المادة في مدارس اليوم وآفاقها المستقبلية •

من هذا المنطلق تبرز اهمية البحث الحالي كونه اول محاولة ــ على حد علم الباحث ــ لتتبع تطور تدريس التاريخ عبر فترات زمنية متعاقبة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر من خلال دراسة الاهداف المعلنة (الرسمية) في كل حقبة تاريخية ، وتحليل محتوى نماذج من كتب التاريخ المدرسية ، علاوة على مناقشة التوصيات والتوجيهات الخاصة باساليب التدريس والوسائل التعليمية التي ينبغي استخدامها في تدريس هذه المادة في مراحل التعليم العام • ومـــن

المتوقع ان يعود هذا البحث بالفائدة على المهتمين بمناهج وطرائق تدريس المواد الاجتماعية في العراق بشكل عام ومناهج تدريس التاريخ وطرائقه على وجه الخصوص ، علاوة على افادة معلمي هذه المادة ومدرسيها ومشرفيها التربويين والباحثين في تاريخ التعليم في العراق .

اهداف البحث

يهدف البحث الحالي الى الاجابة عن الاسئلة الاتية :ـ

١ ـ ما المسار التطوري لاهداف تدريس التاريخ في العراق ؟

٢ ـ ما اثر المتغيرات السياسية والتربوية على محتوى مناهج التاريخ والكتب المدرسية ؟

٣ ـ ما الطرائق التدريسية والوسائل التعليمية الشائعة الاستخدام لدى معلمي التاريخ ومدرسيه في الفترة موضوعة البحث ؟

اساليب البحث

يعتمد البحث الحالي اسلوب التحليل النظري للمناهج والكتب المدرسية والمصادر ذات العلاقة ، علاوة على اعتماد التركيب التاريخي للنصوص على وفق المنهج الموضوعي ـ الزمني . وذلك في ضوء المحاور الاتية :

اولا ـ الاهداف التربوية .

ثانيا ـ المناهج والكتب المدرسية .

ثالثا ـ طرائق التدريس ووسائله .

اولا ـ الاهداف التربوية

في فترة الحكم العثماني للعراق ، لم تكن هناك فلسفة واضحة المعالم[١]

---

(١) الهلالي ، عبدالرزاق ، تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ـ١٩١٧ ، شركة الطبع والنشر الاهلية ، طـ١ ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥١ـ٢٥ .

واهداف تربوية مرسومة لتدريس مادة التاريخ ، وكان الهدف الرئيس لتدريسها هو اعلاء شأن الامبراطورية العثمانية وتنشئة التلاميذ للولاء لها . ويشير الامين[٢] الى ان الغرض من تدريس التاريخ في هذه الحقبة هو استخدام النصوص التاريخية اداة فاعلة لدمج العراقيين والعرب في سياسة التتريك ، وضمان ولاء الناشئة وطاعتها للسلطة ، علاوة على الحفاظ على الهيمنة التركية في الاقطار العربية .

ووجهت بريطانيا ، لدى استعمارها العراق ، تدريس التاريخ نحو هدف ستراتيجي مهم الا وهو تبرير الاحتلال في نفوس التلاميذ من خلال اضفاء الشرعية على وجودها وانها جاءت لانقاذ العراق وإعماره ، وقد جسد انستاس الكرملي هذا الهدف بشكل واضح وصريح في كتابه (تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا) المقرر على تلاميذ المدارس الابتدائية الرسمية والاهلية[٣] .

ويشير الكرملي الى ان الهدف الاساسي من دراسة التاريخ وتدريسه هو العبرة والعظة فهو « من اوجب الدروس على الانسان لانه بالوقوف عليه يعرف ما مضى فيتحقق ان المساوىء لا تلد الا اضرارا لصاحبها وان الحسنات لا تنتج الا منافع لصاحبها»[٤] وان معرفة التاريخ سبيل الى رقي الامة إذ يقول : « وما من امة ارتفعت الا بعد ان عرفت تاريخ سلفها »[٥] وهو في افكاره هذه قد تأثر بآراء المؤرخين المسلمين فهو يقتبس نصوصا من كتاب الكامل لابن الاثير تؤيد آراءه هذه . الا ان تلك الاهداف ، التي تحمل دروسا تربوية

(٢) AL Amin, S., Acomparatire study of the teaching of History in English and Iraqi Secondary Schools. Unpublished M - Ed . thesis, University of Reading, 1962, P. 47.

(٣) الكرملي ، انستاس ماري ، خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا ، مطبعة الحكومة ، البصرة ١٩١٩ ، ص ١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٤ .

قيمة ، كانت نظرية بحتة ولم يترجمها الكرملي الى حقيقة واقعة في كتابه الذي ألفه لتدريس التلاميذ في المرحلة الابتدائية ، إذ ان بترجمة هذه الاهداف الى واقع فعلي يعني تبصير هؤلاء التلاميذ بالسبب الحقيقي لوجود البريطانيين في العراق ، ولكن الهدف الاستراتيجي لتدريس التاريخ الذي اراد تعزيزه قد طغى عليها •

وبانطلاق الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ ، بدأت تظهر الملامح الاولى للهدف الوطني لتدريس التاريخ ، لاسيما بعد تأسيس وزارة المعارف في ١٠ ايلول ١٩٢١ واسناد منصب الوزارة الى محمد علي هبة الدين ، اذ اكد على المعلمين « ضرورة الاهتمام بدروس التاريخ ، والعناية البالغة بالاناشيد الوطنية »[٦]•

وبتعيين ساطع الحصري[٧] معاونا لوزير المعارف في ٥ آذار ١٩٢٢ اخذت مادة التاريخ تحتل مكانة متميزة في المناهج الدراسية على اساس انها وسيلة لتحقيق الروح الوطنية والقومية وتعزيزها لدى الناشئة من ابناء الشعب العراقي ، اذ يقول « ان الغرض الاصلي من تدريس التاريخ في المدارس الابتدائية ، هو : تعليم (تاريخ الوطن) و (ماضي الامة) • والغاية القصوى

---

(٦) احمد ، ابراهيم خليل ، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩-١٩٣٢ ، ط ١ ، مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ١٩٨٢ ، ص ١٢٥ .

(٧) ابو خلدون ، ساطع بن محمد ، عربي من سورية ، عاش في الفترة (١٨٨٠-١٩٦٨) ، له محاولات اصلاحية في مجال التربية والتعليم ، مارس التدريس وتولى مناصب علمية وتربوية في معظم البلدان العربية ، منها سورية والعراق ولبنان ومصر ، له مؤلفات عديدة منها ،القراءة الخلدونية، ودراسات في اصول التدريس ، ودراسات عن مقدمة ابن خلدون ، كما اصدر مجلة التربية والتعليم ، وحولية الثقافة العربية ، ومذكراتي في العراق (سعد ، نهاد صبيح ، الفكر التربوي عند ساطع الحصري ، تحليله وتقويمه ، دار الكتب ، جامعة البصرة ، ١٩٧٩ ؛ برج ، محمد عبدالرحمن، ساطع الحصري ، دار الكتاب العربي ، سلسلة اعلام العرب (٨٦) ، ١٩٦٩ ، ص ٤٧) .

من ذلك هي : تقوية (الشعور الوطني والقومي) في افئدة التلاميذ »[٨]
ويؤكد ايضا : « لا يوجد بين ايدي المعلمين واسطة تربوية اثمن ولا انجع من دروس التاريخ لانماء العواطف الوطنية والقومية وتقويتها »[٩].

وتجسيدا لفلسفة ساطع الحصري الوطنية والقومية ، فإن قانون المعارف العام المرقم ٢٨ لسنة ١٩٢٩ نص على « ان تدريس اللغة العربية وتاريخ العراق وجغرافيته وتاريخ العرب حسب منهج وزارة المعارف اجباري في جميع المدارس الخصوصية من ابتدائية وثانوية »[١٠].

ويقرر الحصري ، تبريرا للهدف الذي صاغه لتدريس التاريخ ، عدم امكانية تدريس هذه المادة بصورة علمية بحتة « فإذا كان ذلك ممكنا في المدارس العالية ، فهو متعسر جدا في المدارس الثانوية ، ومتعذّر بتاتا في المدارس الابتدائية »[١١] . وهنا اقرار لمبدأ تربوي الا وهو مراعاة النمو العمري والذهني للطلبة لدى وضع الاهداف التعليمية وتجسيدها في المناهج والكتب المدرسية .

ويبدو ان الحصري كان متأثرا في طروحاته بآراء المربين والفلاسفة الغربيين ونظرياتهم ، ولاسيما بالفكرة القومية التي شاعت آنذاك في اوربا فنراه يقول : « يجب علينا ان نعلم علم اليقين ، بأن كتب التاريخ الدراسية في اوربا وامريكا ، مؤلفة وفق غايات قومية بوجه عام »[١٢] . ويظهر كذلك ان

---

(٨) الحصري ، ساطع ، مذكراتي في العراق ، (١٩٢١-١٩٢٧) ، ج١ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٧ ص ٢١٥ .
(٩) الحصري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨١ ؛ علي ، سعيد اسماعيل ، الفكر التربوي العربي الحديث ، سلسلة عالم المعرفة (١١٣) ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ١٤٢ .
(١٠) الحصري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣ .
(١١) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨١ .
(١٢) الحصري ، ساطع آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ، ط٢ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص ٤٠ .

للظرف السياسي والاجتماعي الذي كان قائما في العراق والوطن العربي « نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين » وخضوع معظم البلدان العربية لسيطرة الدول الاستعمارية ، اثره الواضح في تأكيد ساطع الحصري على البعد الوطني والقومي كهدف ستراتيجي لتدريس التاريخ اثباتا للهوية الثقافية العربية والاسلامية في مواجهة محاولات المستعمر طمس معالم تلك الهوية في اللغة والتراث • ومما يؤكد هذا الاستنتاج مقولة الحصري : « اننا في حاجة الى مثل هذا الايمان في هذا الزمان ، اكثر من اي زمان آخر ، لان المصائب انصبت على العالم العربي من كل حدب وصوب »[١٣]•

وفي عقد الثلاثينات ، بعد استقلال العراق وقبوله عضوا في عصبة الامم في ٣ تشرين الاول ١٩٣٢ ، شهدت الساحة السياسية تصاعدا في حركة القومية العربية ، وظهر اثر ذلك واضحا في تركيز وزارة المعارف على الفكرة القومية العربية[١٤] التي اصبحت هدفا مركزيا لتدريس التاريخ في المدارس •

وجاء عقد المؤتمر التربوي الاول في ٩ـ١٥ نيسان ١٩٣٢ برعاية الملك فيصل، تتويجا لهذا الهدف ، اذ كان من ابرز توصياته ، بشأن تدريس التاريخ ، التأكيد في تدريس هذه المادة على روح الوحدة القومية وربط دروس التاريخ بحياة الطفل ومحيطه[١٥] ، وهذه اول اشارة الى ضرورة ربط اهداف تدريس التاريخ بالجانب التربوي والنفسي والاهتمام بالتلميذ ومراعاة لميوله واستعداداته وبيئته (البيت والمدرسة والمجتمع) •

وفي نهاية الثلاثينات برز هدف جديد لتدريس التاريخ الا وهو فهم الماضي من اجل استشراف المستقبل ، ففي خطاب ساطع الحصري في بغداد عام ١٩٣٧ اكد فيه انه « لا يجوز لنا ان نعتبر الماضي هدفا نتوجه نحوه ونسعى للعودة اليه ، بل يجب علينا ان نجعل منه نقطة استناد نستند اليها من اندفاعنا

(١٣) الحصري ، مذكراتي ، ج٢ ، دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٨ ، ص ٤٨٣ .
(١٤) احمد ، المصدر السابق ، ص ٣٤٤ .
(١٥) المصدر نفسه ، ٣٣٥ .

الى الامام •• نحو المستقبل الجديد »[16] • وفي هذا انعكاس بيّن للظرف الاجتماعي والسياسي الذي عاشه العراق آنذاك بعد نيله الاستقلال والسعي نحو تعزيز امكاناته الجديدة والمرتكزة على ماضيها والمتطلعة نحو التغيير وفتح آفاق جديدة للمستقبل •

وجاء في منهج الدراسة الابتدائية لعام ١٩٤٠ بان تدريس التاريخ يستهدف « ايجاد ناشئة قوية الروح ، طموحة ، معتزة بماضيها ، وواثقة بقدرتها على استعادة امجادها ، تريد ان تتبوأ هذه الامة مكانة سامية بين الامم الحية القوية • وان ينشأ الطلاب على تقديس مثل اعلى يوطدون نفوسهم على الجهاد لتحقيقه »[17] •

اما في منهج الدراسة المتوسطة للعام نفسه (١٩٤٠) فقد ورد ان « الغاية من تدريس التاريخ في المدارس المتوسطة تنمية الثقة في نفوس الطلاب وتنشئة روح الاعتزاز بامتهم وربط حاضرهم بماضي امتهم المجيد ، حتى يتيسر لهم معرفة القوى الكامنة في امتهم التي دفعتها في سبيل المجد وبناء الحضارة ، وليعلموا انها ذات سجايا حميدة عديدة مكنتها من جمع شملها والتغلب على اعدائها ••• وانها هي التي قامت بالاعمال المجيدة في الماضي قادرة على ان تعيد الكرة فتنهض مرة اخرى ••• »[18] •

لدى استقراء النصين آنفين الذكر يتبين ان الهدف الاساسي لتدريس مادة التاريخ في تلك الفترة اتجه نحو تعزيز ثقة التلاميذ بانفسهم من خلال الانتماء الى ماضي مجيد مشرق وحضارة زاهرة ، يمكن ان يساهما في اعادة تشكيل حاضر الامة من جديد بعدما اصابه الانهيار والتفكك والتخلّف • وكل ذلك

---

(١٦) الحصري ، مذكراتي ، ج٢ ، ص ٤٨٣ .

(١٧) وزارة المعارف ، منهج الدراسة الابتدائية . ١٩٤٠ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤٠ ، ص ٦٥ .

(١٨) وزارة المعارف ، منهج الدراسة المتوسطة . ١٩٤٠ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤٣ ص ٢٧ .

ينصب في الهدف الستراتيجي العام وهو انماء الوعي الوطني والقومي لدى الناشئة الذي استمر بارزا في منهج الدراسة الابتدائية لعام ١٩٤٣ من خلال تأكيد دور العراق وما ادى من ادوار مهمة عبر العصور التاريخية[١٩] وبقي ذلك الهدف يتكرر في المناهج الدراسية اللاحقة كما في منهج الدراسة المتوسطة للعام ١٩٤٧ـ١٩٤٨ بالنص وبالصيغة ذاتها[٢٠].

واذا ما تصفحنا منهج الدراسة المتوسطة للعام الدراسي ١٩٥٢ـ١٩٥٣[٢١] ومنهج الدراسة الاعدادية للعام الدراسي ١٩٥٣ـ١٩٥٤[٢٢] لتبين انها خالية من اي اهداف موضوعة لتدريس التاريخ . ويرى الباحث انه حتى لو لم تشر هذه المناهج الى اهدافها فان السياق العام لها ينصب في البعدين الوطني والقومي المشار اليهما آنفا .

وفي عقد الستينات برزت اهداف جديدة لتدريس التاريخ في المرحلة الثانوية يمكن اجمالها على النحو الاتي :

- تنمية الشعور بالقومية العربية جنبا الى جنب مع الروح العالمية الانسانية .
- ابراز مساوىء الاستعمار مع الاهتمام بدراسة الحركات التحررية .
- تنمية الشعور بضرورة توحيد الامة العربية لدفع الاخطار التي تهددها .
- فهم التلاميذ للاحداث الجارية ومشكلات الساعة ومعرفة اهم الظواهر في البلاد العربية والعالم .
- تنمية التفكير العلمي وروح البحث والقراءة .

---

(١٩) وزارة المعارف ، منهج الدراسة الابتدائية ١٩٤٣ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤٣ ص ٢٨ .
(٢٠) وزارة المعادن ، منهج الدراسة المتوسطة ١٩٤٧ـ١٩٤٨ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٤٨ ص ٣٠ .
(٢١) انظر : وزارة المعارف ، منهج الدراسة ١٩٥٢ـ١٩٥٣ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٥٣ .
(٢٢) انظر ، وزارة المعارف ، منهج الدراسة الاعدادية ١٩٥٣ـ١٩٥٤ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٥٤ .

ـ تنمية حب قراءة الكتب والمراجع التاريخية وكيفية الحصول على المعلومات التاريخية منها والتعليق عليها ونقدها(٢٣) •

ويتضح من تلك الاهداف ، ان هناك انتقالة في محتواها الى المدى الارحب ، اذ تكامل المجالات الوطني والقومي مع المجال الانساني ـ العالمي وظهر هنا اهتمام واضح بحركات التحرر التي شهدها العالم في تلك الفترة ، علاوة على تنمية قدرة الطالب على ملاحظة الاحداث الجارية وتدقيقها وربطها بالماضي ، وسعت الاهداف الجديدة كذلك الى تنمية قدرة الطالب على البحث والاستقصاء والنقد لاحداث التاريخ • غير ان تلك الاهداف جاءت غير مشخصة بشكل سليم للابعاد المعرفية والمهارية والوجدانية ، علاوة على انها لم تترجم في محتوى الكتب المدرسية ، فقد توصل كل من الراوي وحلمي والامين (١٩٦٧) الى ان اهداف تدريس التاريخ غير واضحة المعالم وغامضة في كتب التاريخ للمرحلة الابتدائية(٢٤) •

وبعد قيام ثورة ١٧ـ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، واستلام حزب البعث العربي الاشتراكي القيادة السياسية في العراق ، تولّدت فلسفة اجتماعية وتربوية جديدة عكست المبادىء القومية والاشتراكية للثورة •

وفي ضوء ذلك صيغت اهداف جديدة للتربية والتعليم في العراق منطلقة من الهدف الشامل الذي ينص على تنشئة جيل مؤمن بالله محب لوطنه مؤمن بامته العربية ورسالتها واهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية ، آخذ بالتفكير العلمي متساح بالعلم والخلق يعتمد العمل والتعلم الذاتي •••

(٢٣) وزارة التربية ، منهج الدراسة الثانوية ١٩٦٧ ، ط١ ، مطبعة وزارة التربية ، بغداد ١٩٦٧ ، ص ٥٤ •

(٢٤) الراوي ، مسارع ، وحامد شاكر حلمي وشاكر محمود الامين ، تقييم الكتب المدرسية للمواد الاجتماعية في المرحلة الابتدائية في العراق ، ملخصات تربوية ونفسية ، مركز البحوث التربوية والنفسية ، بغداد ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥١ـ٢٥٢ •

مستوعب لمعطيات التطور الحضاري ، منفتح على الفكر الانساني في اطار الاصالة والمعاصرة[٢٥].

وانبثق عن هذا الهدف الشامل اثنا عشر هدفا عاما يسير بموجبها النظام التربوي ويسعى الى تحقيقها في حركته وهي : الهدف الانساني ، والهدف الديني ، والهدف القومي ، والهدف الديمقراطي ، والهدف الاشتراكي ، والهدف العلمي ، وهدف العمل ، وهدف القوة والبناء ، وهدف الاصالة والتجديد ، وهدف الانسانية ، وهدف التربية المستمرة[٢٦].

ومن الملاحظ ان هذه الاهداف لم تجد لها طريقا الى اهداف تدريس التاريخ إذ بقيت اهداف عام ١٩٦٧ نفسها بعد الثورة ، لا بل استنسخت حرفيا ودخلت ضمن منهج الدراسة الاعدادية للعام ١٩٧٤[٢٧].

ولكن التغيير حدث عام ١٩٧٥ ، ووضع هدف « غرس الروح الوطنية في نفوس التلاميذ وتنمية وحدة الصف الوطني ، والابتعاد عن كل ما يشجع على التفرقة المذهبية والعنصرية ،... وتعويدهم على الاعتزاز بقوميتهم واحترام القوميات الاخرى »[٢٨] ضمن اهداف تدريس التاريخ انسجاما مع بيان ١١ آذار الصادر عام ١٩٧٣ وحل المسألة الكردية بصدور قانون الحكم الذاتي . كما اشارت الاهداف العامة لتدريس التاريخ الى الصهيونية كاحد الاخطار المحدقة بالامة العربية ، وتمثل ذلك الهدف بـ « التركيز على فهم الاخطار

(٢٥) العارف ، شعلة اسماعيل ، نظام التعليم في العراق ، دار الحكمة ، بغداد ١٩٩٣ ، ص ١٦٨ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٦٤-١٦٧ .

(٢٧) وزارة التربية ، منهج الدراسة الاعدادية ١٩٧٤ ، ط٢ ، مطبعة وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ٥٨ .

(٢٨) ، (٢٩) ، (٣٠) وزارة التربية ، منهج الدراسة المتوسطة ١٩٧٥ ، ط٥ ، مطبعة وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٧٥ ص ٥٩ .

التي تحيط بالأمة العربية من الاستعمار والصهيونية والتخلف »[29] . كما ورد ضمن تلك الاهداف « تنمية روح البحث العلمي والتحليل التاريخي عند التلاميذ لمعرفة اسباب الحوادث التاريخية ونتائجها واستخلاص العبر والدروس »[30].

وجاء في منهج الدراسة الاعدادية لعام ١٩٧٩ « ان تدريس مادة التاريخ لا يهدف الى حشو عقل الطالب بالحوادث والسنين والاسماء بقدر ما يهدف الى مهمة تربوية في تنمية شخصية الطالب وحسه التاريخي بمكانة الامة ودورها الفعال في حضارة العالم »[31].

وانطلقت اهداف تدريس التاريخ نحو صياغة اكثر علمية وواقعية وانسجاما مع التصنيف الذي وضعه التربويون للاهداف بشكل عام ، وذلك من خلال اشتراك العراق بوضع صيغة موحدة لاهداف تدريس التاريخ ضمن الاهداف العامة لمراحل التعليم العام في دول الخليج العربي عام ١٩٨٤ ، التي صنفت الى ثلاثة مجالات : الاول : مجال المعارف والمعلومات المتعلقة بالاحداث التاريخية عبر العصور المختلفة ، والمجال الثاني : المهارات المتصلة بتنمية قدرة المتعلمين على التعامل مع المفاهيم الزمنية وادراكها واكتساب مهارة البحث والتمحيص والقراءة الناقدة للتاريخ ، اما المجال الثالث (الوجداني) فيسعى الى تنمية ميول المتعلم نحو تثمين جهود الآباء والاجداد وحب الوطن والتفاهم الدولي وان يقتدي بكفاح الاجيال السابقة وان يعتز بالتراث ويستفيد من عبر التاريخ[32].

---

(٣١) وزارة التربية ، منهج الدراسة الاعدادية ١٩٧٩ ، ط٣ ، مطبعة الانتصار ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٠٣ .

(٣٢) مكتب التربية العربي لدول الخليج ، صيغة موحدة لاهداف المواد الدراسية بمراحل التعليم العام في دول الخليج العربية ، م٢ ، الرياض ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م . ص ١١٠-١١٤ ، ص ١٢٣-١٢٥ .

واحتوت الصياغة الموحدة لاهداف تدريس التاريخ على نماذج للاهداف السلوكية للمرحلة الثانوية[٣٣] إذ من المتوقع بعد دراسة منهج التاريخ ان يكون الطالب قادرا على : « ان يعرّف الحدث ، ان يحدد العوامل المسببة له ، ان يسمّي الشخصيات ، ان يقارن بين ظاهرتين تاريخيتين ، ان يصف حدثا بعينه ... » . وتعد الصياغة السلوكية للاهداف ركنا اساسيا من اركان درس التاريخ ، فهي تصف « ما ينبغي ان يفعله المتعلم نتيجة لتعلمه »[٣٤].

واستمرت الاهداف التربوية لتدريس التاريخ في المراحل الدراسية كافة ، تأخذ التصنيف آنف الذكر مع احداث تغييرات في مجال المعلومات التاريخية وحذف وتعديل واضافة مفاهيم ومصطلحات تنسجم مع التطورات السياسية والاجتماعية والاحداث التي مر بها العراق ، وانعكست بدورها على مضامين تلك الاهداف لاسيما في اثناء الحرب العراقية ـ الايرانية (١٩٨٠ـ١٩٨٨) ـ « إذ تمت اعادة النظر في هذه الاهداف في ضوء معطيات قادسية صدام المجيدة لما احرزته هذه المعركة المقدسة من عطاء وقدرات ، فأعيدت صياغتها بشكل يتفق وطبيعة المرحلة الراهنة وما تمليه من مهمات على النظام التربوي واهدافه »[٣٥].

ثانيا ـ المناهج والكتب المدرسية

يعد المنهج وسيلة التربية ومحتواها لتحقيق الاهداف التربوية ، فهو ينصب على ترجمة تلك الاهداف الى معرفة ومواقف وخبرات يتفاعل معها

---

(٣٣) المصدر نفسه ص ١٤١ـ١٤٣ .

(٣٤) ابراهيم ، فاضل خليل ، طبيعة المعرفة التاريخية والقيم والاهداف التربوية المستوحاة منها ، مجلة التربية والعلم ، جامعة الموصل ، ع١٥ ، ١٩٩٣ ، ص ١٥٢ .

(٣٥) وزارة التربية ، المسيرة التربوية في ظل قادسية صدام ، مطبعة وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٣١ .

الطلاب ليتعلموها[٣٦] ، اما الكتاب المدرسي فهو كتاب مصمم للاستخدام الصفي ، وهو « الوعاء الذي يحتوي المادة التعليمية »[٣٧] . ولغرض التعرف على تطور مناهج التاريخ في المراحل الدراسية المختلفة والكتب المدرسية المقررة لها ، سيتم عرض نماذج من تلك المناهج والكتب وتحليلها عبر فترات زمنية مختلفة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر .

ففي فترة الحكم العثماني ومنذ عام ١٨٩٩ ، كان موضوع التاريخ العثماني والتاريخ العام ، اللذان كانا يدرسان باللغة التركية ، محور مادة التاريخ في منهج الدراسة الابتدائية والرشدية والاعدادية في العراق[٣٨] . وفي عام ١٩١٢ اصدرت وزارة المعارف نظاما يجيز التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربية ولعدم توفر الكتب المدرسية باللغة العربية ، قام عدد من معلمي المدارس في بغداد بترجمة او تأليف الكتب المناسبة للطلاب ، فقد قام يوسف عز الدين الناصري بترجمة كتاب (التاريخ العثماني) وألف محيي الدين الناصري كتاب (مختصر تاريخ الاسلام) ، وألف محمد خلوصي الناصري كتابا بعنوان (البيان في تاريخ آل عثمان)[٣٩].

وفي فترة الاحتلال البريطاني ــ وكما اشير سابقا ــ كان كتاب (خلاصة تاريخ العراق منذ نشوئه الى يومنا هذا) من اشهر الكتب التي الفها الكرملي عضو مجلس المعارف عام ١٩١٩ باللغة العربية ، واقره الانكليز كتابا منهجيا ليدرس في المدارس الابتدائية الرسمية والاهلية ــ ولو تصفحنا الكتاب لرأيناه في اكثر نصوصه يسعى الى تعزيز الوجود البريطاني في العراق ، وتوجيه

---

(٣٦) محمد ، مجيد مهدي ، المناهج وتطبيقاتها التربوية ، جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٩٠ ، ص ١٤ .
(٣٧) اللقاني ، احمد حسين ، وبرنس احمد رضوان ، تدريس المواد الاجتماعية ، ط٤ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٧٧ .
(٣٨) احمد ، المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٤٥ ، ٥٢ .
(٣٩) الهلالي ، المصدر السابق ، ٢٣٥-٢٣٦ .

التلاميذ نحو قبول ذلك الاحتلال[٤٠] فقد اشار المؤلف الى ان الدولة البريطانية « تحب دائما اعمار العراق وترقيته وجمع كلمة اهاليه وضم شتاتهم »[٤١] ، كما اكد ان العراقيين هم الذين استدعوا البريطانيين لدخول العراق إذ يقول :

« وكان قد عرض شيوخ البلاد واكابرهم مرارا لا تحصى على القنصل البريطاني ان يحمل دولته على ان تأخذ هذه البلاد تحت اجنحة حمايتها »[٤٢] . وبالرغم من ان المؤلف اختصر الاحداث واستغنى عن ذكر المصادر باشارته : « ولولا هذا التأليف موضوع للمدارس لذكرت اسماء المناهل التي وردتنا »[٤٣]

الا ان مضمونه واسلوبه ــ على ما يبدو ــ لم يكن يتناسب مع مستوى نضج التلاميذ ومدركاتهم العقلية في المراحل الابتدائية .

ومنذ صدور المنهج الجديد للمدارس الابتدائية عام ١٩٢٢ تحول منهج التاريخ نحو تدريس مواضيع (تاريخ البلاد العراقية) و (تاريخ الامة العربية) اما « تاريخ بقية البلاد وسائر الامم » ــ فلا يدرس في الصفوف الابتدائية الا بنسبة علاقتها بتاريخ العراق وتاريخ الامة العربية . وفي الصفوف التالية يعطى للطلاب صورة اجمالية عن التاريخ العام[٤٤] . وجرى تأكيد تدريس موضوعي (الوحدة الايطالية) و (الوحدة الالمانية) في المرحلة الاعدادية والايحاء للطلاب بامكانية قيام العراق بدور بيدمونت اوبروسيا في تحقيق الوحدة العربية[٤٥] . ان هذا التوجه الوطني والقومي في محتوى منهج التاريخ ينسجم تماما مع طروحات ساطع الحصري التي تقوم على وحدة اللغة ووحدة

---

(٤٠) العارف ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
(٤١) الكرملي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
(٤٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ .
(٤٣) المصدر نفسه ، المقدمة .
(٤٤) الحصري ، مذكراتي ، ج١ ، ص ٢١٥ ؛ برج ، المصدر السابق ، ص ٤٧.
(٤٥) احمد ، المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

التاريخ ، ومع الاهداف التربوية التي وضعها في اثنـاء توليه منصـب مديـر المعارف آنذاك •

وفي عام ١٩٢٧ ، ألف أنيس زكريا النصولي ، مدرس التاريخ في المدرسة الثانوية ببغداد ، كتابا منهجيا سماه (تاريخ الدولة الاموية في الشام)[٤٦] وقد كان هذا الكتاب المدرسي موضع اهتمام الطلاب الذين وجدوا فيه اسـلوبا جديدا في معالجة التاريخ يقوم على اساس التحليل والنقـد ، والنظر الـى الشخصيات التاريخية نظرة موضوعية • الا ان هذا الكتاب سرعان ما تـم سحبه من التدريس ، وذلك لانه اثار ضجة كبيرة حول مـا ورد فيه مـن آراء واجتهادات فسرتها بعض الجهات بانها تنتقص من قادة المسـلمين[٤٧] ان ما حصل مع الكتاب ومؤلفه دليل واضح على وجود تقاطـع بين الاهـداف التربوية المعلنة لتدريس التاريخ ومحتوى الكتب المنهجية ، وعدم مراعاة تلك الاهداف لدى تأليفها ، إذ المطلوب من المؤلف لدى اعداده الكتاب ان يراعي الخصائص الاجتماعية والثقافية السـائدة في المجتمع ، والاسـس النفسـية والتربوية من حيث نضج الطلبة وميولهم واتجاهاتهم والفروق الفردية بينهم •

ويبدو « ان الاساس الوحيد الذي كان يراعى عند تأليف الكتب المدرسية قديما هو المادة العلمية وترتيبها المنطقي »[٤٨] •

ومن الكتب المنهجية المهمة ، كتاب (دروس التاريخ) لمؤلفيه صـديق خوجة وهاشم الآلوسي[٤٩] المقرر على تلاميذ الصفوف الرابعة في المـدارس الابتدائية عام ١٩٣٧ • والكتاب يبدأ بتاريخ العرب قبل الاسلام والى العهد الملكي وعدد صفحاته (١٣٦) صفحة بالحجم الصغير •

---

(٤٦) انظر ، النصولي ، انيس زكريا ، الدولة الاموية في الشام ، بغداد ١٩٢٧.
(٤٧) أحمد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .
(٤٨) محمد ، المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .
(٤٩) انظر ، خوجة ، صديق وهاشم الالوسي ، دروس التاريخ ، مطبعة دنكور الحديثة ، بغداد ، ١٩٣٧ .

وتظهر في الكتاب الروح القومية العربية ، والاعتزاز بامة العرب والاسلام واضح فيه ، ويتناول الكتاب الجوانب السياسية اكثر من الجوانب الحضارية في التاريخ ، ويحتوي الكتاب على صور توضيحية واسئلة ، وفيه خريطة واحدة للجزيرة العربية في بداية الكتاب .

وكان لكتاب (تاريخ اوربا الحديث) الذي ألف عام ١٩٣٧ ايضا ، اثره في تعميق الاتجاه الوحدوي في نفوس الطلبة من خلال اطلاعهم على تجارب الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية . كما اثر هذا الكتاب المنهجي في تنمية الوعي الديمقراطي في نفوس الطلبة من خلال مفرداته الاخرى(٥٠).

ومن الكتب المدرسية المشهورة ، كتاب (تاريخ الامة العربية) للصف الثاني المتوسط (١٩٣٩) ، الذي الفه درويش المقدادي .

يقدم المؤلف في نهاية كل فصل من كتابه ملخصا له ، كما يذكر اهم السنوات والاحداث التي وقعت فيها ، علاوة على تضمينه قائمة باهم المصادر ، واسئلة عامة تختبر الجانب المعرفي (المعلوماتي) لدى الطالب ، وهي في معظمها اسئلة مقالية ، ولكن لا تخلو من اسئلة تدعو الطالب الى التفكير البسيط مثال : ما هي الادلة ؟ هل كان حمورابي عربيا ؟ برهن ؟ قابل ؟ ماذا تستنتج ؟ لماذا ؟ ما هو اثر البداوة على العرب في الوقت الحاضر ؟(٥١) كما يحتوي الكتاب على بعض الاسئلة ذات المستوى العالي . مثال : ايهما انفع ؟ ماذا كان يحدث لو ؟ ما رأيك فيها ؟(٥٢)

---

(٥٠) المرسومي ، غازي دحام ، التعليم في العراق ١٩٣٢–١٩٤٥ دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، بغداد ١٩٨٦ ص ٣٢–٤٥ ، ص ٢٨–٢٩ .

(٥١) المقدادي ، درويش ، تاريخ الامة العربية للصف الثاني المتوسط ، وزارة المعارف العراقية ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٣٩ ، ص ٤٦–٤٧ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٥١ .

ويظهر الحس القومي بيّنا في الكتاب ، إذ ورد في احدى الفصول وبالخط العريض ما نصه « مثلنا الاعلى محمد نبيّنا وهادينا مؤسس دولتنا العربية الكبرى وموحد امتنا وبطلنا القومي ومصلحنا الاجتماعي صلى الله عليه وسلم »[٥٣] . كما ورد حول الرسول صلى الله عليه وسلم النص الاتي « فهو ابن الجزيرة البار ، هو سيد كل عربي ، هو فخرنا ومنه جاءت ثقافتنا وحياتنا »[٥٤] وعن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وضع عنوان كبير يقول : « مات سيد العرب »[٥٥].

ويتميز الكتاب بمعلوماته الثرية واهتمامه بالجوانب الحضارية للتاريخ ، الا انه كان يظهر لغة عاطفية في احيان عديدة .

ويبدو ان كتاب المقدادي قد استوفى معظم الاسس المطلوبة لتأليف الكتاب المدرسي من حيث اظهاره للفلسفة التربوية السائدة في المجتمع آنذاك واهتمامه بالاسئلة ذات المستوى العالي وتضمينه الخلاصات وقائمة المصادر والتزامه باللغة التاريخية في الاسلوب[٥٦].

وفي عام ١٩٤١ قامت لجنة في وزارة المعارف بتأليف كتاب (دروس التاريخ) للصفوف الرابعة الابتدائية ، تناول احداث التاريخ الاسلامي وركز بصورة اساسية على السيرة النبوية ، وحاول المؤلفون توظيف بعض احداث التاريخ في تنمية ولاء الناشئة نحو الاسرة الملكية الحاكمة والمتمثل بشخص الملك ذاته ، ففي اثناء حديث مؤلفي الكتاب عن رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا وردت العبارات الاتية : « كما جرى رضاعة المرحوم الملك فيصل الاول »[٥٧] والامثلة على ذلك كثيرة .

---

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .
(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢–٢١٥ ؛ ص ٢٥٨–٢٩٣ ، ص ٣٢٤–٣٣١ .
(٥٧) لجنة في وزارة المعارف ، دروس التاريخ للصفوف الرابعة الابتدائية ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤١ ، ص ٥٣ .

واقرت وزارة المعارف العراقية عام ١٩٥٢ تدريس كتاب (دروس التاريخ) في الصفوف الثالثة الابتدائية لمؤلفه احمد عبدالباقي ويدور الكتاب حول الانسان القديم ، وجل فصوله تبدأ بأداة التساؤل كيف ؟

واستغل المؤلف الاسلوب القصصي في عرض الاحداث التاريخية ، وهذا اول استخدام للقصة في اعداد الكتب المدرسية في التاريخ وذلك ينسجم تماما مع مستوى نضج التلاميذ في هذه المرحلة (الابتدائية) ويتلاءم مع ميوله واستعداداته ومع طبيعة مادة التاريخ ذاتها • ويحتوي الكتاب على العديد من الصور ، ونبه المؤلف نفسه المعلمين على ضرورة الاستفادة منها في دروسهم اذ قال : « ورجائي الى اخواني المعلمين ان يهتموا بهذه التصاوير ، فيثيروا روح الوصف والاستنباط حول ما يرونه »[٥٨] وهنا اشارة واضحة الى اعتماد الكتاب المدرسي وسيلة تعليمية والى الاستخدام الصحيح له لاثارة التفكير وليس للتوضيح فقط •

وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ واعلان الجمهورية ، صدرت تعديلات على مناهج التاريخ من قبل وزارة التربية والتعليم في كل المراحل الدراسية •

مثال : في منهج الثالث المتوسط « يحذف موضوع تأسيس الحكم الوطني وتهمل علاقات العراق الخارجية مع انكلترا ، ويؤكد على علاقات العراق مع الدول العربية »[٥٩] وحذف اية اشارة اخرى الى النظام الملكي ، وهنا تعزيز للمتغيرات السياسية والاجتماعية والفكرية الجديدة في اذهان الناشئة •

---

(٥٨) عبدالباقي ، احمد ، دروس التاريخ ، ط٢ ، مطبعة بغداد ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ٣-٤ •

(٥٩) وزارة التربية والتعليم ، تعديلات المناهج والكتب الدراسية ١٩٥٨-١٩٥٩ ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ، بغداد ، ١٩٥٩ ، ص ٢٠ •

ومن الكتب المدرسية المهمة التي صدرت عام ١٩٦٢ كتاب (تاريخ العرب في القرون الوسطى) للصفوف الثانية المتوسطة ، تأليف ناجي معروف وصالح احمد العلي وعبدالله فياض ويستخدم الكتاب الاسلوب العلمي التاريخي ، ويغلب عليه التاريخ السياسي مع الاشارة المقتضبة للجوانب الحضارية[٦٠] .

وفي عام ١٩٦٦ ألف كل من ناجي معروف وتوفيق يونس وعبدالجبار شوكت النجار كتابا مدرسيا للصف السادس الابتدائي بعنوان (دروس التاريخ) ، اهتم بالجوانب الحضارية للتاريخ ، حيث افرد الصفحات العديدة للحديث عن المدنية العربية من البعثة النبوية الى نهاية العصر العباسي . وتضمن الكتاب اول اشارة الى تاريخ الاكراد ، إذ ورد العنوان (الاكراد في العصر العباسي واثرهم في الحروب الصليبية) وهو عنوان فضفاض لا يمت الى محتواه بصلة . وافرد فصلا بعنوان مساهمة الاكراد بالحركة الوطنية[٦١] .

بعد ثورة ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٨ ، اوصت لجنة مشكلة في وزارة التربية عام ١٩٦٩ « ضرورة اعادة النظر في المناهج والكتب المدرسية ... بحيث تتناسب والمرحلة الثورية التي يمر بها مجتمعنا »[٦٢] . واشار التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي الصادر عام ١٩٧٤ « ان المرحلة يجب ان تشهد وفي اقرب وقت ممكن اعداد مناهج دراسية جديدة ، موضوعة على ضوء مبادىء الحزب والثورة ويستدعي ذلك التصفية الجذرية والشاملة للافكار والاتجاهات الرجعية والبرجوازية والليبرالية

---

(٦٠) انظر ، معروف ، ناجي وصالح احمد العلي وعبدالله فياض ، تاريخ العرب في القرون الوسطى للصفوف الثانية المتوسطة ، ط٢ ، مطبعة اسعد ، بغداد ، ١٩٦٢ .

(٦١) معروف ، ناجي وتوفيق يونس وعبدالجبار ، دروس التاريخ للصف السادس الابتدائي ، ١٩٦٦ ، ص ٤٧ ، ص ٥٩ - ٦٣ ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٦٢) قاسم ، بديع محمود ومحمد سعيد ابو طالب وعبدالخضر ناصر السواد ، تطور الدراسات التربوية من اجل التخطيط للتعليم الثانوي في العراق ، وزارة التربية ، ع٧٧ ، ١٩٧٤ ، ص ٧٠ .

الموجودة في مناهج التعليم »[٦٣] وبصدد كتب التاريخ فقد شكلت لجنة برئاسة وزير التربية تولت وضع ورقة عمل جديدة لمناقشة مناهج وكتب التاريخ واعادة تأليفها بما يوافق طموح المرحلة الحاضرة[٦٤].

ومن الكتب المدرسية التي اقرت بعد الثورة كتاب (تاريخ العصور القديمة) للصف الاول المتوسط ، الذي وضع على وفق مشروع مناهج المواد الاجتماعية المقترحة للدراسة المتوسطة لعام ١٩٦٩ . واشار المؤلفون في مقدمة الكتاب « وقد حاولنا وسعنا ان نجعله يتلاءم والهدف الرئيس من تدريس المواد الاجتماعية . فضلا عن ذلك فاننا قد عنينا في تأليفه ان نقدم عرضا متسلسلا خاليا من الاعادة والتكرار لمجرى التاريخ القديم وباسلوب حاولنا فيه اعطاء بعض التشبيهات التوضيحية لتكون عونا للطلاب في تفهم مادة الكتاب »[٦٥] ولدى تفحص الكتاب يظهر انه تناول العصور القديمة في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل والشعوب القديمة في بلاد فارس واليونان والرومان باسلوب تاريخي مبسط محافظا فيه على المفاهيم والمصطلحات الزمنية ، وقد زوّد الكتاب بالعديد من الصور والاشكال والخرائط التوضيحية التي تساعد الطالب على ادراك المفاهيم الزمنية المجردة . والحق بكل فصل اسئلة اختبارية من النوع المقالي . وعليه فان المؤلفين قد استوفوا البعد المعرفي للمحتوى بشكل ملائم .

واستمرت وزارة التربية باعتماد الكتاب ذاته الى عام ١٩٨٨ حيث اصبح عنوان الكتاب (التاريخ القديم للوطن العربي) وحدث تغيير جذري في صياغة فصول الكتاب ، اتسمت بالاختصار واعتماد النظرة الشمولية في دراسة

---

(٦٣) مبارك ، بديع محمود وزملاؤه ، تطور النشاط التربوي في العراق ١٩٧٩–١٩٨٠ ، وزارة التربية ، ع١٦٢ ، ١٩٨١ ، ص ٧٠–٧١ .

(٦٤) المصدر نفسه ، ص ٧١ .

(٦٥) رشيد ، فوزي وصباح باقر وكامل خيرو ، تاريخ العصور القديمة للصف الاول المتوسط ، ط١ ، وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٣ .

الحضارات القديمة في الوطن العربي على عكس النظرة المجتزئة التي عرضت فيها العصور القديمة في الطبعات السابقة آنفة الذكر • وتم التركيز على الجوانب الحضارية بشكل واضح ، وجرى دراسة الحضارات القديمة خارج الوطن العربي تحت عنوان (الغزو الاجنبي للوطن العربي)(٦٦) والكتاب مزود بالاشكال والصور التوضيحية الملونة ، كما جاءت اسئلة الفصول شاملة للنمط المقالي والموضوعي ، وزوّد كل فصل بنشاط يقوم بتنفيذه الطالب •

ومن اكثر الكتب المدرسية التي تأثرت بالمتغيرات المعاصرة التي حدثت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي في العراق ، كتابا التاريخ العربي الاسلامي للصف الخامس الابتدائي والصف الثاني المتوسط ، وكتابا التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي للصفين السادس الابتدائي والثالث المتوسط •

ففي كتاب التاريخ للصف الخامس الابتدائي اجريت مقارنة بين معركة القادسية التي حدثت سنة ١٥هـ في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبين القادسية الثانية (التسمية التي اطلقت على الحرب العراقية الايرانية ١٩٨٠ــ١٩٨٨) من حيث الاهداف والنتائج مدعمة بالصور(٦٧) ، كما اضيفت فصول بعنوان (تآمر الفرس على العروبة والاسلام)(٦٨) ، و (العداء الفارسي للعرب والمسلمين والتآمر على الدولة العربية الاسلامية)(٦٩) و (العداء الفارسي للعرب والمسلمين في زمن العباسيين)(٧٠) • وذلك بهدف تهيئة اذهان

---

(٦٦) انظر ، علي ، فاضل عبدالواحد وزملاؤه • التاريخ القديم للوطن العربي للصف الاول المتوسط ، طـ١ ، وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٨٨ ، واستمر اعتماد الكتاب الى اليوم بطبعته الحادية عشرة ١٩٩٩ .

(٦٧) العاني ، عبدالرحمن وحسن زعين وعبدالامير دكسن ، التاريخ العربي الاسلامي للصف الخامس الابتدائي ، طـ١ ، وزارة التربية ، بغداد ، ص ٣١ــ٣٢ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ص ٥٢ .

التلاميذ لتقبل اجواء الحرب ودعم المعركة وتبصيرهم ان العداء الايراني للعراق له جذوره التاريخية عبر العصور المختلفة • والحكم نفسه ينطبق على كتاب التاريخ الحديث والمعاصر للصف السادس الابتدائي ، إذ افرد فصلا كاملا بعنوان (قادسية صدام المجيدة)[٧١] • وفي الطبعات اللاحقة اضيف موضوع (ام المعارك الخالدة)[٧٢] الى الكتاب ذاته ، تذكيرا بالعدوان الثلاثيني على العراق ١٩٩١ • واضيفت فصول عن الاطماع الفارسية في الخليج العربي وقادسية صدام الى كتاب التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي للصفين الثالث المتوسط[٧٣] والسادس الاعدادي الادبي[٧٤] •

ولم تغفل هذه الكتب المدرسية القضايا المصيرية للامة العربية ، وبصورة خاصة القضية الفلسطينية منطلقة من « النظرة القومية الشاملة لدراسة حركة تاريخ الوطن العربي »[٧٥] واعطيت هذه القضية جذورا تاريخية تعود الى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إذ نقرأ موضوع (تآمر اليهود على العرب والمسلمين) في كتاب التاريخ للصف الخامس الابتدائي[٧٦] ، وافرد فصلا كاملا تحت عنوان (القضية الفلسطينية) اخذ الصفحات (٤٢-٤٩) في كتاب التاريخ

---

(٧١) رؤوف ، عماد عبدالسلام وزملاؤه ، التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي للصف السادس الابتدائي ، ط١ ، وزارة التربية ، ١٩٨٧ ، ص ٦٠-٦٩ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ط١٢ ، ١٩٩٩ ، ص ٦٧-٦٨ .

(٧٣) الادهمي ، محمد مظفر ، وابراهيم خليل احمد وجاسم هادي ، التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي للصف الثالث المتوسط ، ط١ ، مطبعة وزارة التربية ، ١٩٩١ ، ص ١٠٥-١١٩ .

(٧٤) الادهمي ، محمد مظفر وصادق السوداني وابراهيم خليل احمد ، التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي للصف السادس الاعدادي الادبي ، وزارة التربية ، ط١ ، ١٩٩٢ ، ص ٢٨٦-٢٩٩ .

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٥ .

(٧٦) العاني ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

الحديث والمعاصر للصف السادس الابتدائي ، والصفحات (٥٨ـ٧٠) في كتاب الصف الثالث المتوسط والصفحات (١١٥ـ١٣٥) في كتاب الصف السادس الاعدادي[٧٧].

وتميزت كتب التاريخ المدرسية في طبعتها الاخيرة (١٩٩٨ـ١٩٩٩) بالاخراج الجيد والاناقة واستخدام الالوان وابراز العناوين الرئيسة والفرعية، كما تم التخفيف من المفاهيم والمصطلحات التاريخية واستبدلت بمصطلحات مرادفةذات سمة معاصرة،واعطيت تفاسير معاصرة لبعض الاحداث سواء في التاريخ الاسلامي او الحديث والمعاصر وربطها بالاحداث الجارية ، والجديد في هذه الكتب تنوع الاسئلة (مقالية وموضوعية) وتحديد الانشطة المصاحبة التي تعطي مجالا ارحب سواء للمدرس او الطالب للتساؤل او المناقشة والقيام ببعض المهارات الحركية داخل الصف وخارجه ، ومن امثلة هذه الانشطة :

(اكتب تقريرا عن ....) ، (خذ خريطة صماء واشر عليها ....) ، (يشترك الطلبة في اصدار نشرة جدارية ....) ، (يجمع الطلبة صورا عن ....) ، (اكتب ملخصا عن مضمون فلم ....) ، (القيام بزيارة لاحد المواقع الاثرية ....) .

ثالثا ـ طرائق التدريس

لا يعرف الشيء الكثير عن طرائق تدريس التاريخ في فترة الحكم العثماني في العراق ، ويبدو ان الطريقة السائدة آنذاك تقوم على الالقاء المتضمن قراءة المعلم لبعض النصوص والفقرات من كتاب معين وشرحه لها ، في حين ان الطلبة يصغون الى معلمهم ويدونون ما يمليه عليهم لتكون جاهزة للحفظ والاستظهار[٧٨] . وقد انتقدت جريدة الزوراء في عددها الصادر في

---

(٧٧) انظر الهوامش السابقة (٧٠) و (٧٢) و (٧٣) .

(٧٨) AL - Amin, OP. Cit, PP. 44. 46.

١٤ ربيع الآخر ١٢٩٠ (١٨٧٣) طرائق التدريس التقليدية السائدة في التعليم الابتدائي آنذاك[٧٩] • واستمرت الطريقة الالقائية سائدة في تعليم التاريخ في فترة الاحتلال البريطاني •

وبعد اصدار وزارة المعارف منهج الدراسة الابتدائية الجديد في العام الدراسي ١٩٢٢-١٩٢٣ ، تم توجيه معلمي التاريخ الى ضرورة اتباع جملة من القواعد لدى تدريسهم هذه المادة نوجزها بنصوصها كالاتي :

- « الاجتناب عن ذكر وقائع واسماء وتواريخ كثيرة ، والاكتفاء بذكر الحوادث والاسماء والبلدان المهمة التي لابد من معرفتها لفهم سير التاريخ » •
- « الاعتناء في مقايسة الاحوال الماضية مع الاحوال الحاضرة واظهار الفروق والتشابهات بينها » •
- « الاهتمام بتصوير الوقائع والاحوال بطرق مؤثرة على مخيلة التلاميذ وجعلهم يتخيلونها وكأنهم رأوها » •
- « استعمال الخرائط دائما ، وبيان حدود الممالك ومواقع المدن » •
- « الاستعانة بالتصاوير لبيان الآثار الباقية من الامم والاجيال السالفة » •
- « زيارة الابنية التاريخية والاطلال القديمة والتدقيق فيها على قدر الامكان »[٨٠]•

ان في هذه القواعد محاولة اولى لاضفاء الحيوية والنشاط على درس التاريخ من خلال اهتمام المعلم بجوهر الاحداث وتقديمها للتلاميذ مرتبطة بالحاضر وإجراء المقارنات بينها ، علاوة على اعتماد التخيّل في عرض للوقائع وتجسيدها حسيا • كما اولت هذه القواعد عناية خاصة بالوسائل التعليمية متمثلة بالخرائط والصور والزيارات الميدانية وامعان النظر والتفكير فيها •

---

(٧٩) نقلا عن ، العارف ، المصدر السابق ، ص ٣٩ .
(٨٠) الحصري ، مذكراتي ، ج٢ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

واذا تفحصنا التوصيات التي ينبغي ان يراعيها معلم التاريخ • الواردة في منهج الدراسة الابتدائية (١٩٤٠) ، لرأيناها تشير الى ضرورة ان يكون درس التاريخ شائقا مملوءا بالحياة قصصيا طريفا مثيرا خاليا من التعقيد غير محشو باسماء وتواريخ ترهق الذاكرة • كما اوصت المعلم ان يربط الماضي بالحاضر وان يدرب الطلاب على استنباط الاسباب والنتائج للحوادث ، وان يستعين بوسائل الايضاح المختلفة من صور ورسوم وخرائط تاريخية وزيارة المتاحف والابنية التاريخية ودعت التوجيهات ــ للمرة الاولى ــ الى ربط درس التاريخ بالجغرافية[٨١] • وزاد منهج الدراسة المتوسطة للعام ذاته (١٩٤٠) على ما ورد في التوجيهات السابقة « افساح المجال للمناقشة والشروح » كما ادخل وسائل تعليمية ينبغي ان يستخدمها مدرس التاريخ في هذه المرحلة تمثلت بالمخلفات الفنية والمصنوعات النفيسة مثل : الاواني والاقمشة والسيوف والزخارف الخشبية والجصية والخطوط والنقود والسجاد والخناجر[٨٢]•

وبالرغم من ان التوجهات آنفة الذكر اعطت لدرس التاريخ ابعادا جديدة تجعله درسا مقبولا ومفهوما لدى الطالب ، الا انها بقيت محصورة في نطاق المعلم فهو الملقن والمزود بالمعرفة وهو محور عملية التعلم •

وقد جاءت التوجيهات في السنوات اللاحقة اكثر نضجا ومراعاة لدور الطالب في عملية تعلم مادة التاريخ ، فقد اوصى منهج الدراسة الاعدادية للعام الدراسي ١٩٤٣ــ١٩٤٤ المدرس باعتماد اسلوب كتابة المقالات التاريخية من قبل الطلاب والسماح لهم بالقائها واتاحة الفرصة للاخرين من الطلاب لنقدها • فضلا عن اعتماد اسلوب الحوار والمناقشة بينه وبين الطلاب داخل الصف •

---

(٨١) وزارة المعارف ، منهج الدراسة الابتدائية ، ١٩٤٠ ، مصدر سابق ، ص ٦٥ــ٦٦ •

(٨٢) وزارة المعارف ، منهج الدراسة المتوسطة ، ١٩٤٠ ، مصدر سابق ، ص٢٨

واوصت كذلك بان لا يكون المدرس صورة طبق الاصل من الكتاب المدرسي بل ينبغي ان يظهر قدراته واسلوبه الخاص به(٨٣).

اما منهج الدراسة المتوسطة للعام الدراسي ١٩٤٧ـ١٩٤٨ فقد اشار الى ان لا يلتزم المدرس بطريقة تدريسية واحدة بل يترك له الخيار في اتباع الطريقة التي يراها صالحة لموضوع الدرس الذي يدرسّه . وان يشوّق التلاميذ الى مادة الدرس ، وان يعرضها بطريقة تسهل عليهم الاستنباط .

وللمرة الاولى اشار المنهج الى ضرورة ان يكلف المدرس التلاميذ بعمل خرائط زمنية Time charts مبسطة ، وان تسعى المدرسة الى عمل حجرة صغيرة للتاريخ تكون نواة لمتحف تاريخي او انشاء جمعية تاريخية او اقامة مناظرات او تمثيل بعض الحوادث(٨٤).

ان مجمل التوجيهات المشار اليها آنفا ، تمثل الجانب النظري لاساليب التدريس ووسائله ، ان السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو مدى تمثل مدرسي التاريخ لهذه التوجيهات في الواقع التعليمي ؟ ان الجواب نستنتجه من تقرير عام قدمه ماثيوز وعقراوي عن حالة طرائق التدريس واساليبه لمجمل المواد الدراسية في المرحلتين الابتدائية والثانوية في فترة الاربعينات (١٩٤٥ـ١٩٤٦)، اذ اكدا ان « طرق التدريس في المدارس الابتدائية كلها تقريبا من نوع واحد ، المعلم فيها محور العمل ، وهو الذي يدير الدفة طول الحصة ، ويحاضر المعلمون احيانا للتلاميذ خصوصا في دروس التاريخ والجغرافية .. وقلما يحاول التلاميذ اثارة المناقشة او العمل في الحصة ، ولا يشجعون على توجيه الاسئلة في المسائل التي تستدعي اهتمامهم ، وقلما تلقى اسئلة من شأنها اثارة التفكير المبتكر ، إذ ان التدريس في هذه المدارس ينحصر في الغالب في سرد الحقائق والمعلومات ، والمطالبة باسذكارها وحفظها ، بالرغم من ان منهج الدراسة لا يقر هذه

(٨٣) وزارة المعارف ، منهج الدراسة الاعدادية ، ١٩٤٣ـ١٩٤٤ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤٤ ، ص ٢٥ـ٢٦ .

(٨٤) وزارة المعارف ، منهج الدراسة المتوسطة ١٩٤٧ـ١٩٤٨ ، مصدر سابق ، ص ٣١ـ٣٣ .

الطريقة »[85] . ان الجملة الاخيرة لهذا النص اقرار بان هناك تناقضا وبونا شاسعا بين ما مطلوب ان يؤديه المعلمون من قبل الادارة التربوية وبين حقيقة ادائهم داخل الصف .

ويستمر الباحثان بالقول : « لا تختلف طرق التدريس في المدارس الثانوية في جوهرها عنها في المدارس الابتدائية ... ان طريقة إيصال العلم الى الفهم التي يلجأ المعلم في المدرسة الابتدائية بعينها التي يرثها زميله في المدرسة الثانوية ، فلا عجب اذا افتقر الطلاب بوجه عام الى الاعتماد على الذات وتعليم انفسهم بانفسهم ، بسبب هذه الطريقة »[86] .

ان الانطباع السلبي حول واقع تدريس التاريخ في المدارس العراقية نقرأه ايضا في فترة الخمسينات ، إذ اشار نوري جعفر في كتابه (التاريخ طبيعته وفلسفته) المنشور عام ١٩٥٥ الى ان تدريس التاريخ في العراق لايزال مرتبطا بالنمط التقليدي من حيث المحتوى والاهداف ، وان طرائق تدريسه تعتمد على الاسلوب الالقائي التقريري والالتزام الحرفي بمحتوى الكتب المدرسية[87] .

اما هندرسن فقد اكد في تقريره الذي اعده عام ١٩٥٨ عن التعليم الالزامي في العراق « أنّ تدريس العلوم الاجتماعية في المدارس العراقية نمطي الى حد بعيد والسبب الرئيس لهذه الحالة فيما يبدو هو افتقار المعلمين انفسهم الى المعرفة الواسعة في هذه المجالات (كما) ان النقص في الخرائط ووسائل الايضاح الاخرى سبب آخر لهذا التدني في نوعية تعليم العلوم الاجتماعية »[88] .

---

(٨٥) ماثيوز ، رودرك ومتي عقراوي ، التربية في الشرق الاوسط العربي ، ترجمة امير بقطر ، المطبعة المصرية ، ١٩٤٩ ، ص ١٩٣ .

(٨٦) المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

(٨٧) جعفر ، نوري ، التاريخ طبيعته وفلسفته ص ١٥٧ .

(٨٨) هندرسن ، هيوبرت ، تقرير عن التعليم الالزامي في العراق ، ترجمة محمد جواد رضا ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠ ، ص ٢٨ .

ان الاشكالية المتصلة بتدريس مادة التاريخ في هذه الفترة تقع ضمن السياق الشائع لطرائق تدريس المواد الدراسية الاخرى ، فقد اشار كل من أديت وبندوز في دراستها عن التعليم في العراق في الفترة (١٩٥٠-١٩٥٨) الى ان « اساليب التعليم ... تتكون من املاء المدرس للمحاضرات على التلاميذ واستلامهم لها ثم خزنها في ذاكرتهم ، وكانت الامتحانات تتطلب ان يعيدوا الى المعلم على الورق ، وفي اغلب الاحيان ، وفي الكلمات نفسها ، ما كان قد اعطاهم اياه ،... وكان التلاميذ يظهرون قدرة فائقة على الحفظ ، ويعيدون عن ظهر قلب مقتبسات طويلة لا يدركون معانيها »[٨٩].

في الستينات شخص الامين في دراسة له (١٩٦٢) ثلاث سلبيات للطرائق الشائعة في تدريس التاريخ بالمدارس الاعدادية في العراق ، تمثلت بـ : الاستخدام الواسع لطريقة المحاضرة او الطريقة الاخبارية ، والنقص الواضح لوسائل التعليم التي تجعل دراسة الماضي اكثر واقعية وامتاعا وفاعلية ، والتعامل مع الكتاب المدرسي المقرر بمفرده[٩٠].

ولو تصفحنا منهج الدراسة الثانوية لعام ١٩٦٧ ، لرأينا ان التوصيات الموجهة الى مدرسي التاريخ تكاد تكون نفسها التوجيهات السابقة في الخمسينات والاربعينات ، وهي ذات محتوى نظري وصياغتها اقرب الى الاهداف وليست فيها اية دلالة الى اسلوب او طريقة تدريسية بعينها[٩١].

واستمرت التوجيهات في فترة السبعينات تأخذ ذات المنحى . ففي منهج الدراسة الابتدائية لعام ١٩٧٤[٩٢] ومنهج الدراسة المتوسطة لعام ١٩٧٥[٩٣]

---

(٨٩) اديت ، واني ايف بينروز . العراق - دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته ، جـ١ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسي ، ط١ ، الدار العربية للموسوعات ، ١٩٨٩ ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

(٩٠) AL - Amin, OP. Cit, PP. 196-197.

(٩١) وزارة التربية ، منهج الدراسة الثانوية ١٩٦٧ ، مصدر سابق ، ص ٥٤ .

(٩٢) وزارة التربية ، منهج الدراسة الابتدائية ١٩٧٤ ، مطبعة وزارة التربية ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ١٣٨-١٤٣ .

(٩٣) وزارة التربية ، منهج الدراسة المتوسطة ، ١٩٧٥ ، مصدر سابق ، ص٦٠.

نقراً : ان على مدرس التاريخ الاكثار من زيارة المتاحف والمواقع الآثارية ، وتأسيس الجمعيات التاريخية ، والقيام بتمثيل بعض الروايات ، واستخدام القصص ، والربط بالاحداث الجارية ، وتنظيم حلقات المناقشة ، وعمل نماذج ورسوم ، والاكثار من المطالعات التاريخية • وورد للمرة الاولى (استخدام الوسائل السمعية والبصرية) •

وحدد نظام المدارس الثانوية رقم (٢) لسنة ١٩٧٧ الاطار العام لما ينبغي ان تكون عليه طرائق التدريس والوسائل التعليمية في هذه المرحلة الدراسية ، دعي المدرسون الى :

اولا : « تطوير طرائق التدريس وتكييفها لتلائم نوع النشاط التربوي وطبيعة موضوعات الدراسة ، وتعدد قدرات الطلاب وتنوع ميولهم ، والاعتماد على استثمار نشاطهم الذاتي ، والخلاص من اساليب التلقين والاستذكار الآلي ، ومتابعة الاتجاهات الحديثة ونواحي التجديد في طرائق التدريس » •

ثانيا : « توفير الوسائل التعليمية ••• وصنع بعض نماذجها بمساهمة الطلاب ، وتتبع الاساليب السليمة في حسن استخدام تلك الوسائل وتكييفها لموضوعات الدراسة ولمستويات الطلاب وحاجاتهم ••• »(٩٤)•

وميدانيا اجرى الامين (١٩٧٩) دراسة مسحية للوسائل التعليمية لمادة التاريخ في عدد من المدارس المتوسطة في بغداد ، وتوصلت الدراسة الى ان الوسائل التعليمية في مدارس عينة البحث ملائمة للاستخدام الصفي ولكنها قليلة جدا في عددها ، ولاسيما بالنسبة للخرائط والاطالس والمراجع والمطبوعات التاريخية ، فضلا عن افتقار المدارس للخطوط واللوحات الزمنية والصور

---

(٩٤) وزارة التربية ، نظام المدارس الثانوية رقم (٢) لسنة ١٩٧٧ ، مجلة التوثيق التربوي ، ع٨ ، ١٩٧٧ ، ص ٨١

والافلام التاريخية ، وتنتهي الدراسة الى القول : ان ذلك الوضع مدعاة الى هيمنة الطريقة اللفظية الاستظهارية في تدريس مادة التاريخ[٩٥].

وتوصل ابراهيم (١٩٨٩) في دراسة له عن تقويم عملية تدريس التاريخ في معاهد المعلمين في العراق ، الى ان طريقة المحاضرة التقليدية المتداخلة مع الاسئلة والاجوبة وقليل من المناقشة العرضية هي من اكثر طرائق التدريس الشائعة الاستخدام لدى مدرسي التاريخ • اما الوسائل التعليمية ، فكانت محدودة الاستخدام وغير ملائمة لطبيعة المادة ذاتها ، ولا تساعد في تنمية المهارات التاريخية لدى الطلبة[٩٦].

ويلحظ ، من خلال ، ما سبق ذكره ، انه ، وعبر فترات زمنية طويلة ، هناك فجوة بين التوجيهات التي تقرها الانظمة المدرسية او واضعو مناهج التاريخ بخصوص الطرائق التدريسية والوسائل التعليمية التي ينبغي استخدامها وبين الواقع التعليمي ــ المدرسي • وربما يعود السبب في ذلك الى امرين : الاول ، ان تلك التوجيهات ذات طابع نظري بحت ، وانها تفتقد الى الخطوات الاجرائية لتنفيذها التي يمكن ان يحويها دليل او مرشد للمدرس ، وذلك غير متوفر بطبيعة الحال • والثاني يكمن في المفاهيم الشائعة لدى غالبية معلمي ومدرسي التاريخ حول طبيعة مادة التاريخ ، بوصفها مادة تقريرية سردية تتألف من مجموعة نصوص وتواريخ واحداث مسطرة في الكتاب المدرسي ، وما على المعلم والمدرس الا الشرح والالقاء وما على الطالب الا الحفظ والاستظهار •

---

(٩٥) الامين ، شاكر محمود ، دراسة مسحية للوسائل التعليمية لمادة التاريخ في عدد من المدارس المتوسطة في بغداد ، مجلة الاستاذ ، ع٢ ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٦ـ١٧٩ .

(٩٦) **Ibrahim, F., An Evaluation Study or the History Teaching Process in TTI in IRAQ, Un published Ph. D thesis, University of wales, 1989, PP. 248, 257.**

الاستنتاجات :

في ضوء ما جرى عرضه ومناقشته من حقائق وافكار وعلى وفق اهداف البحث يمكن صياغة الاستنتاجات الاتية :ـ

١ ـ تأثرت صياغة اهداف تدريس التاريخ في المراحل الابتدائية والمتوسطة والاعدادية بالمتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية التي سادت العراق عبر حقب زمنية متعاقبة •

٢ ـ كان الغرض من تدريس التاريخ في فترة السيطرة العثمانية هو ضمان ولاء الناشئة وطاعتهم للسلطنة ، فضلا عن تكريس الهيمنة التركية على العراق والاقطار العربية في حين ان البريطانيين سعوا الى الاستفادة من دروس التاريخ لتسويغ احتلالهم للعراق وغرس ذلك في اذهان التلاميذ•

٣ ـ كان الهدفان الوطني والقومي في مقدمة الاهداف التربوية التي نادى بها المفكرون والوطنيون والتربويون وتبنتها وزارة المعارف (التربية) منذ تأسيس الدولة العراقية ١٩٢١ •

٤ ـ اتسمت اهداف تدريس التاريخ في مراحلها الاولى بالغموض والمحدودية واعتمادها المضمون المعرفي فقط ، ومنذ السبعينات اضيفت مضامين مهارية الى محتوى تلك الاهداف •

٥ ـ انطلقت الاهداف في الثمانينات نحو صياغة اكثر علمية وواقعية وبدأت تنسجم مع التصنيف الثلاثي ذي المجالات المعرفية والمهارية والوجدانية •

٦ ـ عكست المناهج والكتب المدرسية في التاريخ خصائص الفترة الزمنية التي وضعت فيها سواء في مجال انتقاء الاحداث التاريخية او استخدام المصطلحات والمفاهيم وتفسيرها •

٧ ـ الفت غالبية الكتب المدرسية من قبل اساتذة مختصين في ميدان التاريخ لذا كان الطابع العلمي هو الغالب عليها ولاسيما المحاولات الاولى

للتأليف ، ويبدو ان هذه السمة ظلت مصاحبة للكتب المدرسية في التاريخ الى اليوم •

٨ ـ حدثت تطورات نوعية في مناهج التاريخ وكتبه المدرسية • بعد ثورة ١٧ـ٣٠ تموز ١٩٦٨ ، اذ اتضحت معالم الحقب التاريخية التي تناولتها تلك المناهج والكتب ، بعد ان كان معظمها يحمل عنوان (دروس التاريخ) كما انها اخذت سياقها الزمني المنتظم (قديم ـ اسلامي ـ حديث ـ معاصر) • الا ان محتواها ظل يغلب عليه الكم المعرفي من الاحداث التاريخية المفارق لبعض الاهداف التربوية المرسومة • وفي السنوات الاخيرة ظهرت الطبعات الجديدة لكتب التاريخ في المراحل الدراسية كافة بحلة جديدة على صعيد الشكل والمضمون والانشطة المصاحبة •

٩ ـ وجود تناقض بين الاطر النظرية لطرائق تدريس التاريخ المحددة من قبل الجهات التربوية وبين ما هو شائع في الواقع التعليمي ـ الصفي من طرائق تقليدية لا تؤدي إلا الى الحفظ والاستظهار ، ووسائل تعليمية محددة في استخدامها •

١٠ـ اقترن تدريس التاريخ في العراق بطريقة المحاضرة (الالقائية) ، وتداخل معها اسلوب الاستجواب (الاسئلة والاجوبة) مع قليل من الاستخدام لطريقة المناقشة باسلوبها العرضي •

التوصـــيات :

انطلاقا من الاستنتاجات التي توصلت اليها الدراسة الحالية ، ولان مادة التاريخ قد تحددت عبر تاريخها الطويل بأطر ومفاهيم تقليدية ضيقة ، يوصي الباحث بفتح آفاق مستقبلية جديدة لموضوع التاريخ وعلى النحو الاتي :

١ ــ ضرورة تبني اهداف جديدة لتدريـــس التاريـــخ في العراق على وفـــق الاتجاهات المعاصرة تقوم على تعزيز دور هذه المادة في التطور الذهنـــي والعقلي لدى الطلبة وشحن القدرة النقدية وتنمية مهارات التفكير الناقد والابداعي لديهم تحقيقا للهدف الوظيفي ، وعدم النظر الى مادة التاريخ من زاوية معرفية ثقافية فحسب ، وبالتالي يمكن ان ترقى هذه المـــادة الى مستوى المواد الدراسية الاخرى الانسانية منها والعلمية ، وربمـــا تؤدي ادوارا مقاربة للادوار التي تؤديها مواد الرياضيات والعلوم التـــي قطعت اشواطا في التطور والتجديد على صعيد الاهداف والمحتـــوى والانشطة المصاحبة ، لاسيما ونحن نعيش التحديات الفكرية والتقنيـــة للقرن الواحد والعشرين ، ولكي لا ينظـــر الجيل الجديـــد الى دروس التاريخ على انها دروس مملة لا تؤدي وظائف حقيقية في حياتهم المعاصرة.

٢ ــ ربما ان الشائع في محتوى مناهج التاريخ وكتبه المدرسية ، عبر المســـار التطوري له ، هو التاريخ السياسي والحربي مع اطلالة قصيرة علـــى التاريخ الحضاري ، لـــذا ينبغي ادخال مواضـــيع جديـــدة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي وتعزيز التاريخ الحضاري واعطاء مساحة اكبـــر للتاريخ المحلي ، فضلا عن تاريخ العلوم والتكنولوجيا .

٣ ــ تأكيد المواقف والمهارات والنتائج التربوية لتدريس التاريخ واعتماد الطرائق التدريسية الحديثة التي تعزز هذه الجوانب والتي تجعل الطالب مركزا لعملية التعليم ، كطرائق الاستقصاء ، وحل المشكلات ، والتعليم التعاوني ، والتعليم الفردي ، ودائرة التعلم ، والعمل الميداني ، والحقائب والرزم التعليمية ، واعتماد الوسائل التعليمية والتقنيات التربوية في التدريس •

٤ ــ يقترح الباحث اعداد مرشد او دليل لمن يدرس مادة التاريخ للمراحل الدراسية كافة ، اسوة بالادلة المعدة في بعض المواد الدراسية ؛ يأخذ بنظر الاعتبار ما ورد في الفقرات (١ــ٣) اعلاه وبما يحقق التدريس الفعال لهذه المادة •

٥ ــ بما ان الدراسة الحالية ، اولية اكتشافية في هدفها ؛ نظرية ــ مكتبية في منهجها ، رائدة في ميدانها ، لذا يوصي الباحث باجراء دراسات تحليلية اخرى تعتمد منهج تحليل المحتوى ، تكون اكثر عمقا وسعة وشمولا ونقترح ان يكون الموضوع ميدان بحوث في الدراسات العليا او مشروع كتاب •

منهج التعامل مع السيرة النبوية

الدكتور محمد عبدالله عويضة
عميد كلية الشريعة ـ جامعة الزرقاء الاهلية

الملخص

السيرة النبوية ، تسجيل لحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تسجيل لحركته بالدعوة الاسلامية من مرحلة التلقي والتبليغ الى مرحلة الدعوة والتمكين ، وهي كذلك تقدم الصورة النموذج ، والقدوة الحسنة للمسلمين متمثلة في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفاته وشمائله وحياته وعلاقاته .

والدارس للسيرة النبوية يقف امام كم هائل من المعلومات التفصيلية عن هذا كله ، وتحتاج هذه السيرة الى منهج للتعامل معها ، سواء من حيث اثبات حوادثها ، ام من حيث حجيتها ، ام من حيث دلالتها وتنزيلها على الواقع .

وهذه البحث محاولة متواضعة ومحاولة اولية لوضع معالم لهذا المنهج .

تمهيد : ـ

تعريف السيرة النبوية لغة واصطلاحا :

وردت كلمة السيرة في اللغة على عدة معان ، بمعنى الطريقة ، وبمعنى السنة ، وبمعنى المضي والجريان ، وبمعنى الهيئة .

قال الراغب الاصفهاني :

« السيرة : الحالة التي يكون عليها الانسان وغيره ، غريزيا كان او مكتسبا ، يقال : فلان له سيرة حسنة ، وسيرة قبيحة ، وقوله : (سنعيدها سيرتها الاولى) اي الحالة التي كانت عليها من كونها عودا »[1].

وقال الزبيدي :

« السيرة بالكسر : السنة وقد سارت وسيرتها ، قال خالد بن زهير :

فلا تغضبن من سنة انت سرتها فأول راض سنة من يسيرها

يقول : ان جعلتها سائرة في الناس .

وقال ابو عبيد : سار الشيء وسرته : فعم ، وانشد قول خالد .

والسيرة الطريقة : يقال : سار الوالي في رعيته سيرة حسنة ، واحسن السير ، وهذا في سير الاولين .

والسيرة الهيئة ، به فسر قوله تعالى : (سنعيدها سيرتها الاولى) ، والسيرة ، الميرة[2].

وقال ابن فارس :

« سير : السين والياء والراء اصل يدل على مضي وجريان ، يقال : سار يسير سيرا ، وذلك يكون ليلا ونهارا ، والسيرة : الطريقة في الشيء والسنة ، لانها تسير وتجري ، يقال : سارت وسرتها انا »[3].

---

(١) الراغب الاصفهاني ، الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، مادة سار ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١ ص ٢٤٦-٢٤٧ .

(٢) الزبيدي ، محمد مرتضى ، تاج العروس ، مادة سير ، المطبعة الخيرية ، ط١ ، مصر ، ١٣٠٦هـ جـ ٣/٣٨٦-٣٨٧ .

(٣) ابن فارس ، احمد ، معجم مقاييس اللغة ، مادة سير ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجليل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩١ جـ ٣/١٢٠-١٢١ .

وقال الفيومي :

« السيرة الطريقة ، وسارت الناس سيرة حسنة او قبيحة ، والجمع سير ، وغلب اسم السير في ألسنة الفقهاء على المغازي ، والسيرة ايضا الهيئة والحالة »[٤].

السيرة في الاصطلاح :

لم أقف على تعريف للسيرة ، وربما كان ذلك لظهورها ، فتأملت واجتهدت بهذا التعريف :

هي فرع من التاريخ ، يختص بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته واعماله .

وكثيرا ما ترد مقرونة بالمغازي ، فيقال المغازي والسير[٥].

والعلاقة بين المعنى اللغوي للسيرة والمعنى الاصطلاحي ظاهرة ، فدراسة حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه وإيامه ، لمعرفة طريقته وسنته وهيئته التي كان عليها من اجل التأسي بها والاقتداء .

اهمية السيرة النبوية

اقتضت حكمة الله تعالى وارادته ان يكلف عباده باقامة شرعه وتنفيذ حكمه في حياة الناس ، فأرسل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه برسالاته الى الناس ، وكان من جميل لطفه سبحانه ان يجعل الرسل نماذج وقدوات للعباد ، في حمل الرسالات ، وتنفيذها في واقع الحياة ، ومن هنا كان رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الاسوة والقدوة والنموذج للمسلمين ، قال الله

---

(٤) الفيومي ، احمد بن محمد ، المصباح المنير ، مادة سير ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ١١٣-١١٤ .

(٥) انظر : طاشكبرى زادة ، مفتاح السعادة ١/٢٦٠ .

تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »[٦].

والسيرة النبوية العطرة تمثل جانبا مهما من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحركته بهذا الدين ، وهو القدوة في ذلك للمسلمين .

واذا كانت السنة النبوية المشرفة تمثل كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول او فعل او تقرير او صفة ، فان السيرة النبوية هي احد جوانب هذه السنة المشرفة ، التي امرنا باتباعها لقوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[٧].

ولما كان الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم هو شطر الشهادتين واحد اركان الايمان ، وهو عليه الصلاة والسلام واجب الطاعة والاتباع ، فسيرته عليه الصلاة والسلام والاخذ بها تعد احد مظاهر هذا الاتباع وهذا الايمان وهذا الاقرار بالشهادتين .

وإذا كان القرآن الكريم وجانب مهم من جوانب السنة إنما هما نصوص نظرية هي اصول الاسلام وفكرته ومبادئه ، فان السيرة النبوية هي الجانب العملي والتطبيق الواقعي لهذه النصوص والمبادىء .

وإذا كان بين النصوص والتطبيق العملي مسافة تمليها الظروف الواقعية ، وقدرات الناس المتفاوتة ، فان في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة والحجة والدليل على منهج التعامل مع الواقع والظروف عند تنزيل الاحكام الشرعية عليها .

وفي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير وفهم للنصوص عند مباشرتها للاحداث والوقائع ، فهي بهذا بيان لكتاب الله ولسنة رسول الله

---

(٦) سورة الاحزاب ٢١ .

(٧) سورة الحشر ٧ .

صلى الله عليه وسلم وأي بيان وتفسير وفهم للنصوص أدق وأقرب وأصوب من فهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه انزلت هذه النصوص ، وهو المكلف بحملها الى العباد وتنفيذها فيهم ، ثم إن الفهم العملي يضيف الى معنى النص الحث على العمل به ، وتحقيق معنى القدوة والاسوة بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

ونحن بعد ذلك كله في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم امام حياة حافلة بالمعلومات والاحداث والوقائع والامكنة والتواريخ التي تمثل سجلا تفصيليا حافلا بالحقبة التاريخية التي وقعت فيها احداث السيرة العطرة .

والسيرة النبوية بذلك تمثل وثيقة تاريخية ذات قيمة تعد من اول المدونات في تاريخ العرب والمنطقة التي تصور الواقع في ذلك الزمان بجوانبه الاجتماعية والسياسية والعسكرية والديموغرافية وغيرها .

كما اشتملت السيرة النبوية على جوانب من حياة وسير عدد من الرعيل الاول الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت لهم مشاركة ومواقف في احداث السيرة تمثل نماذج في التحمل والبذل والتضحية والفهم والعمل يفيد منها المسلمون على مر الزمان .

ومن جوانب اهمية السيرة النبوية ما كان لوجود النبي صلى الله عليه وسلم من اثر في نفوس الصحابة ، فقد كانوا يتصرفون وهم ينظرون الى الوحي يتنزل في كل شؤونهم ، ويحذرون ان ينزل في احدهم قرآن او وحي اذا ما خالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم في سره او علانيته . وبهذا المعنى يكون سلوك الصحابة في عصر السيرة النبوية امتدادا للسيرة وظلالا لها يجعل حياة الناس في ذلك العصر ، مجالا للافادة منه والاقتداء به ، ومن هنا جعل الرسول صلى الله عليه وسلم طريقة الخلفاء الراشدين من السنة التي على الامة ان تعض عليها بالنواجذ : « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ »[٨].

---

(٨) الحديث رواه الترمذي وغيره ، جامع الترمذي . كتاب العلم ، باب الاخذ بالسنة واجتناب البدعة ح رقم ٢٦٧٦ جـ ٥/٤٤-٤٥ .

لهذا كله ولغيره كان السلف يحفظون السيرة ويتواصون على حفظهـا ويعلمونها اولادهم كما يعلمونهم القرآن الكريم ، لينقلوا لهم العلم والعمـل ، والنظرية والتطبيق في آن واحـد ، فتتكامـل العملية التربوية في نفوسهم ، ولا يكونون نصوصا حرفية جامدة ، او واقعا معاشا منبتا عن هدي الكتـاب والسنة ، كما هو حال الاجيال في هذا الزمان[٩] •

منهجية اثبات احداث السيرة

تدور السيرة النبوية بين علمين من العلوم الاسلامية لكل منهما منهجيـة ووسائله في اثبات احداثها ووقائعها هما :

١ ــ علم الحديث •

٢ ــ علم التاريخ •

فالسيرة النبوية كما عرفنا هي جزء من السنة النبوية ، والناظرون لها مـن هذا الجانب يخضعونها لمنهج المحدثين في اثبات الاخبار ، هذا المنهج الدقيـق الذي لا يثبت إلا ماهو صحيح متيقن من صحته ، لانه يتعامل مع دين ورسالة وإيمان لا مع مجرد قصص وروايات واحداث •

ويبدو ان إخضاع احداث السيرة لمنهج المحدثين هو السبب فيما وقـع فيه بعض علماء الرجال وعلماء الجرح والتعديل من اضطراب في دراسة احوال رواة السيرة والحكم عليهم فمن حكم عليهـم بمقاييس المحدثين لم يجـد إلا القليل ممن تصح رواياتهم ، وبناء على هذا المنهج لم يثبتوا من احداث السيرة إلا القليل ، وهذا مما ينبغي التنبه له عند دراسة السيرة لاسيما من الكتـب التي تخرج ما فيها احداث على طريقة المحدثين •

---

(٩) انظر في اهمية السيرة د. فاروق حمادة ، مصادر السيرة النبوية وتقويمها دار الثقافة ، ط١ ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ ص ١٢ــ١٩ .

لكن المحققين من علماء الرجال وعلماء الجرح والتعديل ميزوا بين روايات السيرة وبين روايات الحديث فتجدهم يقولون في تراجم كثير من رواة السيرة ضعيف في الحديث لكنه إمام في التاريخ والسير[10].

وقد بين الدكتور عبدالعزيز الدوري في دراسته حول نشأة علم التاريخ عند العرب ان علم التاريخ مر في ثلاثة مراحل :

المرحلة الاولى : وتمثلها مدرسة المحدثين ومثل لها بعروة بن الزبير والزهري وموسى بن عقبة في كتابة السيرة .

المرحلة الثانية : مرحلة الاخباريين الذين كانوا يجمعون الاخبار والقصص وتمثلها مدرسة العراق ومثل لها بمحمد بن اسحق ووهب بن منبه وابي مخنف وسيف بن عمر .

المرحلة الثالثة : مرحلة المؤرخين ، وبين ان منهم من اقتفى اثر مدرسة المحدثين كالطبري وابن قتيبة ، ومنهم من اقتفى آثار مدرسة العراقيين[11].

وإذا كان علماؤنا قد ميزوا بين صفات راوي السيرة وصفات راوي الحديث ، فان في هذا لفتة ذات دلالة في ان السيرة ينبغي ان يتعامل معها بمنهج المؤرخين مع منهج المحدثين لا بمنهج المحدثين وحدهم .

ومنهج المحدثين لابد منه في نصوص السيرة ذات الطابع التشريعي ، لانها والحالة هذه نصوص شرعية لابد من إثبات صحتها او عدم صحتها لانها جزء من الدين لا يحتمل التساهل فيه .

اما اذا كانت احداث السيرة ذات طابع بشري اجتهادي صدر عن الرسول

---

(١٠) انظر ترجمة الواقدي في : ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، دار صادر ـ مصورة ـ بيروت جـ٩ ص ٣٦٣ـ٣٦٨ .

(١١) انظر د. عبدالعزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب دار المشرق ، ط١ ، بيروت ١٩٨٣ ص ١٣ـ١١٨ .

صلى الله عليه وسلم بوصفه إماما وقائدا لا بوصفه رسولا مبلغا للوحي ، فهنا يكفي ان يستخدم معها منهج المؤرخين ٠

ومنهج المؤرخين يقوم على دراسة الواقعة في ظروفها المكانية والزمانية والاجتماعية(١٢) وهذا الجانب يلتقي الى حد ما مع نقد المتن عند المحدثين ؛ فقد نص المحدثون على ان من علامات الوضع او الضعف في الرواية مخالفتها للمنقول او مخالفتها للمعقول ، ومن ذلك بلا شك مخالفة التاريخ والواقع والظروف المعلومة والثابتة(١٣)٠

ويساهم المنهج التاريخي في تقديم صورة اشمل وتحليل اوسع للمحادثة من حوادث السيرة ، فضلا عن مساهمته في إثبات الحادثة جنبا الى جنب مع منهج المحدثين ٠

وأظن ان المنهج العلمي لدراسة السيرة يحتاج الى المنهجين معا : منهج المحدثين ومنهج المؤرخين ، مع ملاحظة مجال كل منهما من جانب ، وتكاملهما في دراسة الحادثة وفي إثباتها من جانب آخر ٠

وقد نبه الى ذلك د٠ عبدالله العروي فقال : « إذا عدنا الى قواعد النقد (الجرح والتعديل) عند اصحاب الحديث ، وقواعد الإمكان والاستحالة عند ابن خلدون ، إذا حللنا لغويا ومعرفيا المفاهيم الاصيلة المستعملة عند المؤرخين المسلمين ، من حديث واثر وخبر وشهادة وعدالة ٠٠٠ الخ نصل الى تصور متكامل للتاريخ كصناعة وتخصص ، ونصبح بذلك خبراء متخصصين في ميدان معرفي متميز »(١٤)٠

---

(١٢) حسين مؤنس ، دراسات في السيرة النبوية ، الزهراء للاعلام ، ط٢ القاهرة ١٩٨٥ . ص ١٤ وما بعدها .

(١٣) السيوطي تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ، دار الكتب الحديثة ؛ ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦ جـ ١ ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(١٤) عبدالله العروي ، مفهوم التاريخ ، ط١ المركز الثقافي العربي بيروت ، ١٩٩٢ جـ١ ص ٢٠ ٠

واذا تقرر ان السيرة جزء من السنة النبوية من حيث كونها فعلا نبويا ، فان في كتب السنة النبوية من المعلومات عن السيرة النبوية ما يجعلها مصدرا ثريا للسيرة لا يقل اهمية عن مصادر السيرة الاخرى ، بل إن كتب السنة اشتملت على كثير من احداث السيرة التي لا توجد في معظم كتب السيرة[١٥].

وقد صنف علماء الحديث احداث السيرة في عدد من الابواب كالجهاد والسير ، والفضائل والمناقب[١٦].

والسيرة النبوية بمجاليها التشريعي والتاريخي لابد عند التعامل معها من البداية من ثبوتها بأي من المنهجين الحديثي او التاريخي او هما معا حسب المجال الذي تعالجه .

وفي هذا الصدد نرى ان التوسع في اثبات حوادث السيرة لانها إن لم تقو على اثبات حكم شرعي ، فانها تصلح للافادة منها في المجالات الاخرى التي لا تتوقف على اثبات حوادث السيرة بمستوى منهج المحدثين الصارم في اثبات الاحاديث النبوية ، فيمكن ان يهتدي بها في المجالات التربوية والثقافية والاجتماعية وغيرها ، تماما كما نفيد من حوادث التاريخ واخبار الامم فنأخذ منها العبر والدروس ، وإن لم تكن في درجة الحكم الشرعي من حيث الثبوت .

اما اذا لم تثبت الواقعة فهي عندئذ في حكم غير الموجودة ولا يجوز التعامل معها ، إذ لا يجوز ان ينسب الى احد ما لم يفعله فضلا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا بد من ان تبذل الجهود العلمية وتوجه الى هذا الجانب من العلوم الاسلامية ، ولابد ان تتحرر العقول والنفوس من احداث ومواقف لا اساس

---

(١٥) انظر مثلا البخاري ، الجامع الصحيح ـ مع الفتح ـ المكتبة السلفية ، القاهرة كتاب مناقب الانصار ج ١٣٢/٧ــ٢٧٨ ؛ كتاب المغازي ٢٧٩/٧ــ٥٢١ ، ٣/٨ــ١٥٤ .

(١٦) المصدر السابق نفسه .

لها ساهمت في تشويه العقل المسلم وصياغة افكار خاطئة في عقول المسلمين وحياتهم •

ولاثبات السيرة فانني اقترح المنهج العلمي الاتي بايجاز :

١ ـ اثبات مصدرها ، إذ قد تتداول احداث منسوبة الى السيرة لا توجد في مرجع من مراجع السيرة على الاطلاق •

٢ ـ معرفة القيمة العلمية للمصدر الذي توجد فيه الحادثة ، وما مدى قوة هذا المصدر ودقته ، وما مدى الوثوق به ، وقد درس مصادر السيرة النبوية كثير من العلماء ينبغي الافادة من جهودهم كالدكتور اكرم العمري والدكتور فاروق حمادة وغيرهم[١٧]•

وفي هذا الصدد فاننا نقول إن اوثق مصادر السيرة النبوية هو القرآن الكريم الذي احتوى طرفا من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله ، كما احتوى العديد من مواقف اهل الجاهلية منه ومن دعوته ، واحتوى كذلك العديد من احداث سيرته كالهجرة والغزوات كبدر في سورة الانفال ، والتوبة ، وغزوة أحد في سورة آل عمران وفي سورة التوبة وغزوة الخندق في سورة الاحزاب وغزوة تبوك في سورة التوبة وصلح الحديبية وفتح خيبر في سورة الفتح •

كما تضمن القرآن الكريم الكثير عن الصراع مع اليهود كما في سورة البقرة والاحزاب والحشر وغير ذلك •

ثم يأتي بعد القرآن الكريم كتب الحديث الشريف وفي مقدمتها الصحيحان للبخاري ومسلم ، وكتب الشمائل التي تختص بجانب معين من جوانب السيرة•

---

(١٧) انظر : اكرم العمري : الروايات الصحيحة للسيرة ، فاروق حمادة ، مصادر السيرة النبوية وتقويمها ، حسين مؤنس ، دراسات في السيرة النبوية ص ١٣ـ٢١ ، عبدالعزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند المسلمين: دار المشرق ط١ ، بيروت ١٩٨٣ ص ١٣ـ١١٨ •

ثم تأتي بعدها كتب السيرة المتأخرة كسيرة ابن هشام ثم كتب المؤرخين كالطبري وابن كثير والذهبي وغيرهم • وعند الحديث عن كتب التاريخ فحري بنا ملاحظة منهج اصحاب هذه الكتب فكثير منهم التزم بجمع كل ما يقع له من الروايات ، من غير نقد ولا تمحيص ، واكتفى بالرواية بالسند ، وجعل العهدة على الراوي ، فمن اراد استخدام هذه الكتب فعليه دراسة الروايات سندا ومتنا للوقوف على مدى صحتها •

وقد اشار الى منهج العرض والجمع هذا د• عماد الدين خليل فقال : « إن القرآن الكريم يقدم اصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التكامل من مرحلة العرض والجمع فحسب ، الى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية ، كما فعل ابن خلدون على سبيل المثال ••• »[١٨] •

أما ما ورد في كتب الاخبارين المملوءة بالقصص والاسرائيليات فهذه تحتاج الى حذر وتيقظ كروايات ابي مخنف وسيف بن عمرو والواقدي •

وفي طريقة الاخباريين يقول الدكتور الدوري « فإن الاخباريين يمثلون مرحلة انتقال بين فترة سابقة ينعدم فيها الاسناد ، وبين اسلوب المحدثين الدقيق في اسناده ، إذ انهم يبدون كثيرا من الحرية واحيانا التساهل في استعمالهم للاسناد • فنجد سلال اسناد منقطعة ، او حالات لا يذكر فيها الا الاسم الاول للراوي او مجرد « قيل » او « عن رجل من ••• » او « عن اشياخ من ••• » او « عمن ادرك من اهل العلم »[١٩] •

وبعد هذا يأتي الشعر وهو ايضا مما ينبغي التدقيق في مدى ثبوته فلا يخلو من تفاصيل واضافات ربما الحقت بالسيرة في وقت متأخر • وقد درس

---

(١٨) عماد الدين خليل ، التفسير الاسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، ط١ بيروت ، ١٩٧٥ ص ٨ .

(١٩) د. عبدالعزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند المسلمين ص١٢٥ .

اللغويون هذه الاشعار ، يقول د. الدوري « إن اللغويين لعبوا دورا في تكوين اسلوب البحث اكثر دقة في النقد ، وذلك بدراساتهم للشعر ومحاولات للتمييز بين الشعر الصحيح والموضوع ، كما ساعدوا على جمع الروايات التاريخية وعلى غربلتها ، وهكذا ادخل اللغويون اسلوب النقد الداخلي للمواد ووضعوه جنب النقد الخارجي للمصادر والرواة[٢٠].

٣ ــ دراسة سند الرواية او ما يمكن ان يسميه المؤرخون بالنقد الخارجي ، ونحاول بهذا ان نجمع بين منهجي المحدثين من حيث شروط صحة السند من الاتصال والعدالة والضبط وعدم الشذوذ وعدم العلة في السند وبين منهج المؤرخين في النقد الخارجي بدراسة الظروف العامة الخارجية المرافقة للرواية .

وفي مجال اثبات وقائع السيرة فاننا نقبل الصحيح من الروايات بشروطه والحسن كذلك ، كما اننا يمكن ان نقبل الضعيف من الروايات ، بالشروط التي وضعها المحدثون للعمل بالحديث الضعيف وهي : ان لا يكون الضعف شديدا ، وان لا تكون الرواية في العقائد او الاحكام وإنما في مجال الترغيب والترهيب وفي مجال القصص والمواعظ ، وان تندرج تحت اصل ثابت[٢١].

فالرواية الضعيفة اذا كانت تتضمن تفصيلات لواقعة ثابتة في السيرة بسند صحيح او حسن تقبل وتندرج تحت قاعدة العمل بالحديث الضعيف التي ذكرناها .

٤ ــ دراسة متن الرواية او مضمونها بتطبيق منهج المحدثين من حيث عدم الشذوذ والمخالفة والنكارة او التفرد المردود ومن حيث عدم وجود علة في المتن بعدم مخالفتها للمنقول من النصوص ولا للمعقول من الاحداث

---

(٢٠) المصدر السابق نفسه .

(٢١) محمد عبدالحي اللكنوي ، الاجوبة الفاضلة للاسئلة العشرة الكاملة ، تحقيق ابو غدة ، المطبوعات الاسلامية ط٢ ، بيروت ١٩٨٤ ص ٣٦ـ٦٥ .

والوقائع ، والتواريخ وكذلك بتطبيق منهج المؤرخين من حيث موقع الرواية من ظروفها الاجتماعية والسياسية والديموغرافية •

٥ ـ عرضها على الكتاب والسنة الثابتة والسيرة الثابتة ، بحيث لا تكون معارضة لأي منها ، لانها وإن صحت من حيث الرواية فإن مخالفتها للمصادر الصحيحة الثابتة علامة على عدم ثبوتها ، او ان الرواة تصرفوا فيها حتى اصبحت مخالفة ، او انها منسوخة •

ونحن عندما نعرض رواية السيرة على هذه الاصول الثابتة لا نعني ألا تزيد عليها ، وإنما نعني عدم معارضتها لها ، إذ لا يشترط في السيرة ان يشهد لها القرآن او السنة الثابتة او السيرة ، وإنما المشترط ألا تخالفها ، لانها بهذا تكون شاذة لمخالفتها لما هو اثبت منها واصح ، وينبغي ان يكون الفرق واضحا بين الامرين ، إذ وقع بعض الناس في هذا الخطأ فردوا بعض السنن الثابتة بحجة عدم وجودها في القرآن الكريم ولمجرد كونها زائدة عليه ،فيخشى ان تمتد هذه النظرة الخاطئة الى السيرة بوصفها جزء من السنة النبوية •

٦ ـ ضبط النص من الروايات المختلفة : ان منهج التوثيق والنقل عن طريق الرواية قد يرافقه شيء من التجزئة للحوادث والاخبار ، فالراوي ينقل الجانب الذي سمعه او رآه ، او حفظه ، وغيره من الرواة كذلك ، فلا تتكامل احيانا تفاصيل الخبر او الحادثة إلا بجمع كل ما ورد حولها •

وهذا المنهج فضلا عن كونه يقدم الصورة المتكاملة للحادثة ، فانه قد يحمل في طياته من التفاصيل ، او التفاسير ـ من خلال الرواية بالمعنى ـ ما يقدم خدمة جليلة لتوثيق الحوادث والاخبار •

والدارس للسيرة ، الذي يريد ان يستدل على الواقع ، ويستنبط منها الاحكام والدروس والعبر ، يحتاج الى جمع كل الروايات حتى تتكامل لديه الصورة •

لكنه قد يقع في إشكالية الصحة والثبوت ، حيث قد تثبت بعض الروايات باسانيد صحيحة ثابتة ، وتأتي روايات باسانيد دون ذلك ولعل ما ذكرناه سابقا من جواز استخدام الروايات الضعيفة ، شريطة ان تكون تفصيلا لامر ثابت وليست إنشاء له يحل هذا الاشكال

حجية السيرة النبوية

قد تكون واقعة السيرة ثابتة بالقرآن الكريم بوصفه مصدرا من مصادر السيرة ، فتكون هذه الواقعة حجة لانها من القرآن الكريم .

وعرفنا مما سبق ان السيرة النبوية هي جزء من السنة النبوية ، فهي بهذا المعنى تأخذ حجية السنة ومكانتها من الاسلام والتشريع الاسلامي ، وحجتها بهذا ثابتة بالكتاب والسنة والعقل والواقع او التاريخ(٢٢).

فقد تضمن القرآن الكريم عشرات النصوص التي تأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتي تأمر بحبه ، والتي تأمر باتباع ما جاء به والتي ترتب الايمان بالله وحب الله تعالى على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والنزول على حكمه وأمره(٢٣).

كما تضمنت السنة النبوية النصوص الكثيرة التي تأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباع ما جاء به وقد عقد المحدثون كتبا في مصنفاتهم لهذا الامر فانظرها هناك(٢٤).

---

(٢٢) انظر حجية السنة : د. عبدالغني عبدالخالق ، حجية السنة ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ـ واشنطن . د. مصطفى السباعي ، السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي المكتب الاسلامي ، بيروت ص ٤٩ـ٥٦ .

(٢٣) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ، فقد ورد لفظ طاعة الرسول ٢٩ مرة في القرآن الكريم ، وورد الامر باتباعه في ٣ آيات .

(٢٤) البخاري مثلا : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة جـ ١٣/٣٤٦ـ٢٤٧ وسنن ابي داود : كتاب السنة جـ ٥/٤ـ١٢٧ .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فالسيرة النبوية في مجملها من قبيل السنة الفعلية ، كما انها تضمنت الكثير من السنة القولية والتقريرية .

وعمل الرسول حجة تماما مثل قوله ، وقد بحث علماء الاصول في حجية فعل الرسول صلى الله عليه وسلم واثبتوه ، وإن فرقوا بينه وبين القول في صراحة الدلالة عند التعارض بين القول والفعل .. (٢٥).

وكون السيرة تمثل الجانب العملي التطبيقي في معظمها من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، يعطيها مكانة خاصة واهمية زائدة تجعلها التجسيد العملي والتطبيق الفعلي لنصوص الكتاب ونصوص السنة النظرية ، فهي بهذا المعنى تمثل النص وتمثل تطبيقه في آن ، فتكون محلا للاسوة والقدوة ، ونموذجا للاهتداء والاقتداء به صلى الله عليه وسلم .

كما انها من جانب ثالث تمثل السير الواقعي والتسلسل التاريخي لحركة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدين دعوة ورسالة ، ونظاما ومنهاج حياة فهي من جانب نصوص شرعية ، وهي من جانب ثان تطبيق عملي ، وهي من جانب ثالث تاريخ لتسلسل العمل بهذا الدين ولهذا الدين .

ولا شك في ان الوقوف على المراحل التي مرت بها الدعوة الاسلامية ، يقدم في مجمله دليلا آخر وحجة اخرى وفائدة جديدة غير مجرد ورود النص النظري او ورود العمل التطبيقي .

وهنا لابد من التفريق بين منهج الاحتجاج بالقرآن او بالسنة الصحيحة وبين الاحتجاج بالسيرة النبوية ، فنحن بالنسبة للقرآن والسنة نبحث عن استنباط الحكم الشرعي من النص ، اما في السيرة فيمكن ان يكون المراد استنباط الحكم الشرعي كذلك ، ويمكن ان يكون المراد الافادة من واقعة

---

(٢٥) انظر إمام الحرمين عبدالله بن يوسف الجويني ، التخليص في اصول الفقه ، تحقيق عبدالله النيبلي ، دار البشائر الاسلامية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦ ج ٢/٢٥٤ .

السيرة في ابعادها التربوية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك ، وهذا امتداد آخر للسيرة زائد على مجرد اخذ الحكم الشرعي ، يعطي للسيرة ساحة اوسع يهتدي بها المسلم في ميادين الحياة المختلفة ، وإن لم يستفد من ذلك حكما شرعيا لسبب او لآخر •

منهج الاستدلال بالسيرة النبوية

للعلماء مناهج محددة في احتجاجهم واجتهادهم وفقههم لاحكام الشريعة، وهذه المناهج عامة في كل احكام الشريعة ونصوصها ، سواء أكانت من الكتاب العزيز ، او السنة النبوية ، او السيرة المطهرة ، وقد لخصها ابن عاشور في خمسة انحاء :(٢٦)

النحو الاول : فهم اقوالها ، واستفادة مدلولات تلك الاقوال بحسب الاستعمال اللغوي ، وبحسب النقل الشرعي ، بالقواعد اللفظية التي بها عمل الاستدلال الفقهي ، وقد تكفل بذلك علم اصول الفقه •

النحو الثاني : البحث عما يعارض الادلة التي لاحت للمجتهد ، والتي استكمل اعمال نظره في استفادة مدلولاتها ، ليستيقن ان تلك الادلة سالمة مما يبطل دلالتها ويقضي عليها بالنسخ والتنقيح ، فاما ان يسلم الدليل من المعارض ، والا نظر في كيفية العمل بالدليلين او ترجيح احدهما على الاخر •

النحو الثالث : قياس ما لم يرد حكمه في اقوال الشارع على حكم ما ورد حكمه فيه بعد ادراك علة الحكم

النحو الرابع : اعطاء حكم لفعل لا يعرف حكمه من ادلة الشريعة ولا نظير له يقيس المجتهد عليه •

---

(٢٦) انظر محمد الطاهر بن عاشور ، مقاصد الشريعة الاسلامية ، الشركة التونسية ـ تونس ص ١٥ ـ بتصرف ـ •

النحو الخامس : تلقي احكام الشريعة التعبدية ، التي لا يقف المجتهد على علتها .

بعد ادراك هذه المناهج ، فان للسيرة النبوية خصوصيتها التي تجعلنا نحكم فيها مناهج اخرى ، فضلا عن هذه المناهج العامة ، فاذا ثبت نص رواية السيرة ، من مصادرها المعتمدة ، وكان خاليا من المعارض ، فان المنهج المطلوب للاستدلال بوقائع السيرة يمكن ان نوضحه في المسائل الآتية :

١ ــ الفصل في وقائع السيرة ، بين ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه نبيا مبلغا عن ربه ، وبين ما صدر عنه بصفته اماما او قاضيا ، او اجتهاد بشري او غير ذلك من الوجوه التي درسها العلماء وفصلوا فيها .

فقد تناول هذا الامر العلماء الذي بحثوا في مقاصد الشريعة وعلماء اصول الفقه ، وبينوه ، قال القرافي في الفروق :

« لما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خير المرسلين وإمام الأئمة وقاضي القضاة وعالم العلماء ، فجميع المناصب الدينية فوضها الله تعالى اليه في رسالته ، وهو اعظم من كل من تولى منصبا منها في ذلك المنصب الى يوم القيامة ، غير ان غالب تصرفه ، صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ، لان وصف الرسالة غالب عليه ، ثم تقع تصرفاته صلى الله عليه وسلم منها ما يكون بالتبليغ والفتوى اجماعا ، ومنها ما يجمع الناس على انه بالقضاء ، ومنه ما يجمع الناس على انه بالامامة ، ومنه ما يختلف العلماء فيه لتردده بين رتبتين فصاعدا فمنهم من يغلب عليه رتبة ، ومنهم من يغلب عليه اخرى ..

« ثم تصرفاته صلى الله عليه وسلم بهذه الاوصاف ، تختلف آثارها في الشريعة : فما قاله او فعله على سبيل التبليغ كان ذلك حكما عاما على الثقلين الى يوم القيامة ، فان كان مأمورا به اقدم عليه كل احد بنفسه وكذلك المباح ، وان كان منهيا عنه اجتنبه كل احد بنفسه . وكل ما تصرف فيه عليه السلام بوصف الامامة لا يجوز لاحد ان يقدم عليه إلا بإذن الامام اقتداء به عليه السلام ، ولان سبب تصرفه فيه بوصف الامامة دون التبليغ يقتضي ذلك .

« وما تصرف فيه صلى الله عليه وسلم بوصف القضاء لا يجوز لاحد ان يقدم عليه الا بحكم الحاكم ، اقتداء به صلى الله عليه وسلم ، ولان السبب الذي لاجله تصرف فيه صلى الله عليه وسلم بوصف القضاء يقتضي ذلك ، وهذه هي الفروق بين هذه القواعد الثلاث »[٢٧].

ثم ذكر القرافي مسائل مما تختلف فيه انظار العلماء هل هي من التشريع او الفتوى او الإمامة ، او القضاء فقال :

« قوله صلى الله عليه وسلم (من احيا ارضا ميتة فهي له)[٢٨] اختلف العلماء رضي الله عنهم في هذا القول : هل تصرف بالفتوى فيجوز لكل احد ان يحيى اذن الامام في ذلك الإحياء ام لا ؛ وهو مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما ، او هو تصرف منه عليه السلام بالإمامة فلا يجوز لاحد ان يحيي إلا بإذن الإمام ، وهو مذهب إبي حنيفة رحمه الله .. » .

قوله صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة امرأة ابي سفيان لما قالت له صلى الله عليه وسلم إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني فقال لها عليه السلام (خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف)[٢٩] ، اختلف العلماء في هذه المسألة وهذا التصرف منه عليه السلام : هل هو بطريق الفتوى، فيجوز لكل من ظفر بحقه او بجنسه ان يأخذ بغير علم خصمه به ، ومشهور مذهب مالك خلافه ، بل هو مذهب الشافعي ، او هو تصرف بالقضاء ، فلا يجوز لاحد ان يأخذ جنس حقه او حقه اذا تعذر اخذه من الغريم إلا بقضاء قاض ، حكن الخطابي القولين عن العلماء في هذا البحث .. » .

---

(٢٧) احمد بن ادريس القرافي ، الفروق وبهامشه تهذيب الفروق ، ج ١ ص (٢٠٦) وانظر ما بعدها .

(٢٨) الحديث رواه البخاري وغيره ، الجامع الصحيح ، كتاب الحرث ، باب من احيا ارضا مواتا ، جـ٥ ص ١٨ ح رقم ٢٣٣٥ .

(٢٩) الحديث رواه البخاري وغيره ، الجامع الصحيح ، كتاب البيوع ، باب ٩٥ ، جـ٤ ص ٤٠٥ ح رقم ٢٢١١ .

« قوله صلى الله عليه وسلم « (من قتل قتيلا فله سلبه) »[٣٠] ، اختلف العلماء في هذا الحديث : هل تصرف فيه صلى الله عليه وسلم بالإمامة ، فلا يستحق احد سلب المقتول إلا ان يقول الإمام ذلك ، وهو مذهب مالك ، فخالف اصله فيما قاله في الإحياء وهو ان غالب تصرفه صلى الله عليه وسلم بالفتوى ، فينبغي ان يحمل على الفتيا ، عملا بالغالب ... »[٣١].

وقال محمد الطاهر بن عاشور :

« فما يهم الناظر في مقاصد الشريعة تمييز مقامات الاقوال والافعال الصادرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتفرقة بين انواع تصرفاته » .

ويقول :

« وقد عرض لي الان ان اعد من احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يصدر عنها قول منه او فعل اثني عشر حالا ، منها ما وقع في كلام القرافي ومنها ما لم يذكره : وهي : التشريع ، والفتوى ، والقضاء ، والإمارة ، والهدي ، والصلح ، والاشارة على المتشير ، والنصيحة ، وتكميل النفوس ، وتعليم الحقائق العالية ، والتأديب والتجرد عن الارشاد[٣٢] . من ذلك مثلا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في عرض ثلث ثمار المدينة على غطفان على ان ترجع من الاحزاب ، فلما راجع الانصار ، اخبرهم انه ليس وحيا وانما أمر يصنعه لهم ، فرفضوه ، فلم يمضه عليه الصلاة والسلام ، اي ان الامر من قبيل العمل السياسي الذي يمارسه الامام ، حسب مقتضيات الظرف والمصلحة[٣٣].

---

(٣٠) الحديث رواه البخاري وغيره ، الجامع الصحيح ، كتاب المغازي ، باب ٥٤ ، جـ ٨/ص ٣٥ ح رقم ٤٣٢١ .

(٣١) القرافي ، الفروق ، ١/٢٠٧-٢٠٩ .

(٣٢) محمد الطاهر بن عاشور ، مقاصد الشريعة ص ٢٨-٢٩ .

(٣٣) ابن هشام ، محمد بن عبدالملك ، السيرة النبوية ، مكتبة الجمهورية ، القاهرة جـ ١٤٧/٣ .

٢ ـ دراسة الواقعة من وقائع السيرة ، هل هي خصوصية من خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم او حالة تشريعية عامة للناس ، وقد تناول علماء الاصول هذه المسألة وفرقوا بين ما كان امرا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم وما كان تشريعا عاما •• والقاعدة في ذلك ان التخصيص بالنبي صلى الله عليه وسلم لا يثبت إلا بدليل ، وإلا لتعطل الشرع ، فقد يقول كل مقصر عن امر من امور الدين ، هذا الامر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم[٣٤].

فمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم التي وقعت له في احداث السيرة ، هي من هذا القبيل ، كنثر التراب في وجوه رجال قريش عندما خرج من بيته مهاجرا ، وتكثير اللبن في ضرع الشاة الهزيلة عند ام معبد ، وتكثير الطعام في بيت جابر ومثله في غزوة تبوك •

ومن ذلك ظروف نشأته من يتم وفقر ، ورعايته للغنم ، وتجارته لخديجة، فهي من خصوصياته عليه الصلاة والسلام ، إذ ليس من التشريع ان يكلف كل مسلم بعمل ذلك • ومثل هذا تعدد زوجاته لاكثر من اربع ، وعدم السماح له بالزواج من غير زوجاته ، قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا »[٣٥].

ومن امثلة ذلك اعماله الجبلية ، « فإن رسول الله يعمل في شؤونه البيتية ومعاشه الحيوي اعمالا لا قصد منها الى تشريع ولا طلب متابعة ، وقد تقرر في اصول الفقه ان ما كان جبليا من افعال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٣٤) انظر : عمر الاشقر : مسائل في فقه الكتاب والسنة ، دار النفائس ، ط١، عمان ١٩٩٤ ص ١٩ وما بعدها . والشاطبي ، ابراهيم ، الموافقات في اصول الاحكام ، دار المعرفة بيروت ، ١٩٧٥م ج ٢/١٧٩ ، د ـ٣/٢٤٢ـ ٣٤٣ . والجويني ، عبدالملك بن عبدالله ، البرهان في اصول الفقه ، تحقيق عبدالعظيم الديب ، قطر ، ط١ ، ١٣٩٩هـ ج/٤٩٥ .

(٣٥) سورة الاحزاب آية (٥٢) .

لا يكون موضوعا لمطالبة الامة بفعل مثله ، بل لكل احد ان يسالك ما يليق بحاله وهكذا كصفات الطعام واللباس والاضطجاع والمشي والركوب ونحو ذلك سواء كان ذلك خارجا عن الاعمال الشرعية كالمشي في الطريق ، والركوب في السفر ام كان داخلا في الامور الدينية كالركوب على الناقة في الحج »[٣٦].

وفي هذا كله لابد من ادراك الآية الكريمة التي تحدثنا عن طبيعة الرسول ووظيفته وان لا نخلط بينهما ، قال الله تعالى « قل إنما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا »[٣٧].

فهو عليه الصلاة والسلام بشر ، وهو ايضا رسول يبلغ ما انزل اليه من ربه سبحانه وتعالى .

ونحن إن كنا ننبه الى هذا التفريق بين السيرة التشريعية وغيرها ، فاننا نؤكد ان الجانب غير التشريعي منها ، وإن لم يفد احكاما تشريعية في الوقائع المماثلة ، إلا انه يفيد جوا عاما لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة المجتمع الاسلامي في عهد النبوة تؤخذ منه الدروس والعبر في مجالات اخرى اوسع من مجرد بيان الحكم الشرعي للواقعة ، فالمثال الذي ذكرناه عن محاولة النبي صلى الله عليه وسلم توقيع اتفاق مع غطفان على ان ينسحبوا من الاحزاب ولهم ثلث ثمار المدينة ، إن كان لا يفيد حكما شرعيا في جواز مثل هذا الاتفاق، بوصفه صادرا عن النبي صلى الله عليه وسلم بصفة الامامة ، إلا انه يفيد في مجالات اخرى ،يفيد مثلا ان الحاكم المسلم عليه ان يبحث في السبل الكفيلة بانقاذ اتباعه اذا ما ضاقت بهم الامور ، ويفيد ان في العمل السياسي من المرونة والسعة ما ليس في غيره من المجالات .

---

(٣٦) ابن عاشور ، مقاصد الشريعة الاسلامية ص ٣٧-٣٨ . والجويني ، البرهان ١/٤٨٧-٤٨٨ .

(٣٧) سورة الكهف آية (١١٠) .

٣ ـ دراسة واقعة السيرة لمعرفة ظروفها ومعرفة تاريخها وهل هي ذات طبيعة مرحلية ، او حكم نهائي محكم ، او هل حكمها ثابت محكم او انـــه منسوخ •

ومسألة المرحلية ومسألة النسخ مسألتان تستحقان الوقوف عندهمـــا ، فالحكم المرحلي ، يمكن ان يحتاج اليه اذا عاش المسلمون في ظروف مشابهة وفي نفس هذه المرحلة ، وهذه الصفة في السيرة النبوية وفي الدعوة الاسلامية ميزة تعطي المسلم من المرونة ما يمكنه من التعامل مع الظروف المختلفة ، وهو يجد في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لكل مرحلة حكما ولكل حالة معالجة •

ومن امثلة ذلك ما ورد في سيرته صلى الله عليه وسلم من السرية والعلنية في الدعوة فهو امر مرهون بالظروف ، ويمكن ان يحتاج اليه في ظروف اخرى مشابهة ، ولا يصدق عليه حكم الناسخ والمنسوخ كأن يقول قائل العلنية هي الحكم الاخير الناسخ للسرية ، فلا يجوز اليوم استخدام السرية لانها منسوخة، وانما هما مرحلتان من مراحل الدعوة ، يستخدم المسلمون ايا منهما حسـب واقعهم وظروفهم •

ومن امثلة ذلك ايضا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود حيث وادعهم اول الامر ، ثم اجلاهم عن المدينة ، واوصى باخراجهـم من جزيـرة العرب فهذه احكام مرحلية ، تحكمها الظروف والملابسات ، وموازين القوى ، ومدى الالتزام بالعهود •

ويبدو ان حجم وثائق السيرة التي تتصف بصـفة المرحلية ، الخاضـــعة للظروف والملابسات وموازين القوى ، والمصلحة مقارنة بالوقائع ذات الاحكام المحكمة الثابتة ، كبير بحكم كون السيرة هي حركة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الدين ، وهذه الحركة العملية محكومة بطبيعتها الى حد بعيد باعتبـارات الظرف والواقع والمصلحة •

وعند ارادة العمل بمقتضى احكام السيرة ذات الصفة المرحلية فلابد من مراعاة الظروف ، وان ضابط ذلك كله تحقيق المصلحة ودرأ المفسدة •

اما حالة النسخ فهي صورة اخرى ينبني عليها الغاء الحكم السابق واحكام الحكم اللاحق ، ولا يجوز العودة الى ما نسخ ، لان الاحكام قد استقرت وثبتت ، هذا مع ملاحظة ما ذكرناه من قبل من كون السيرة النبوية ذات ظلال وامتدادات واسعة ، لا تقتصر على الثابت الذي يفيد الحكم الشرعي ، وإنما هي ذات فوائد عدة في المجالات المختلفة ، بما تتضمنه من ظروف وملابسات وفضاءات لا تقل في دلالتها واهميتها عن مجرد اثبات الحكم الشرعي •

ومن امثلة ذلك في السيرة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم اباح للمسلمين في بعض الغزوات نكاح المتعة ، ثم حرمه في خيبر ، ومثل ذلك لحوم الحمر الاهلية ، والغاء الطواف بالبيت للمشركين وللعراة وتحريم الخمر وغير ذلك •

واذا ادركنا المرحلية في السيرة النبوية ، فينبغي ان ندرك ابعادها وآثارها على الاستدلال باحداثها على واقعنا ، فلا يجوز ان يصبح الحكم المرحلي نهائيا وحكما شرعيا ثابتا في كل حال ، وإنما هو حكم خاص بظرف او مرحلة لا يعمم على غيرها ، ولا يقاس عليه في غير امثالها من المراحل •

٤ ـ دراسة واقعة السيرة لمعرفة هل هي حالة خاصة بشخص او قوم او بلد او ظرف ، او انها عامة وحكم ثابت محكم وينبني على هذا التفريق صحة التعامل مع السيرة النبوية ومنهج الاستدلال بها ، بحيث لا يخلط بين الامرين فلا يصبح حكم الواقعة الخاصة حكما عاما او قاعدة عامة •

ومن امثلة ذلك مثلا :

جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت : يا رسول الله إني

اصرع واتكشف فادع الله لي ، فخيرها عليه الصلاة والسلام بان تصبر ولها الجنة او يدعو الله لها فقالت بل اصبر ولكن ادعو الله ألا اتكشف(٣٨) .

اظن ان هذه حالة خاصة ، والحكم المستفاد منها حكم خاص ، لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من فضل هذه المرأة وتقواها وقدرتها على الاحتمال، فاذا كانت كذلك فانها لا تصلح حكما عاما يستدل به على عدم التداوي والصبر على الامراض ، كيف وقد امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوي بقوله عليه الصلاة والسلام «تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد الهرم »(٣٩).

ومثاله ايضا : النهي عن الانتباذ في الدباء والحنتم والمزفت والمقير(٤٠) ، الوارد في حديث وفد عبد القيسي في الصحيحين ، قال ابن عاشور : « فإن النهي تعين كونه لاوصاف عارضة توجب تسرع الاختمار لهذه الانبذة في بلاد الحجاز فلا يؤخذ ذلك النهي اصلا يحرم لاجله وضع النبيذ في دباءة او حنتمة مثلا لمن هو في قطر بارد ، ولو قال بعض اهل العلم بذلك لعرض الشريعة للاستخفاف »(٤١).

وقد اورد ابن عاشور الكثير من الامثلة التي يصدق عليها انها كانت حالة خاصة بشخص او بقوم او لظرف ، وجعل سببها انها وردت للمصالحة او للنصيحة او المشورة او الارشاد الى الاكمل .... »(٤٢).

---

(٣٨) الحديث رواه البخاري وغيره ، الجامع الصحيح ، كتاب المرضى ، باب ٦ جـ ١٠ ص ١١٤ ، ح رقم ٥٦٥٢ .

(٣٩) الحديث رواه ابو داود وغيره ، السنن ، تحقيق الدعاس ، حمص كتاب الطب ، باب ١ ، جـ ١٩٢/٤ ح رقم ٣٨٥٥ .

(٤٠) الحديث رواه البخاري وغيره ، الجامع الصحيح ، كتاب اخبار الاحاد ، باب ٥ ، جـ ٢٤٢/١٣-٢٤٣ ، ح رقم ١ر٧٢٦٦ .

(٤١) ابن عاشور ، مقاصد الشريعة الاسلامية ، ص ٣٢ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٣٣-٣٩ .

٥ ـ دراسة واقعة السيرة من حيث ظروفها ومناسبة حدوثها ، لمعرفة الملابسات المرافقة لها ، والواقع الذي انزلت عليه ، حتى تتمكن من تنزيلها على الواقع المعاصر[٤٣] ، مع ملاحظة ان العبرة بعموم اللفظ وعموم الحادثة لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند علماء الاصول[٤٤].

وهاتان المسألتان : تنزيل الحادثة على الواقع ، والوقوف على سبب ورود الحادثة من المسائل المهمة في التعامل مع السيرة النبوية ، وقد بينها العلماء وصنفوا فيها التصانيف في اسباب نزول القرآن الكريم[٤٥] وفيه كثير من وقائع السيرة وفي اسباب ورود الحديث[٤٦] وفيه كما عرفنا الكثير من وقائع السيرة ، كما ان كتب السيرة افاضت في بيان اسباب حوادثها .

الخاتمة والنتائج

اشتمل هذا البحث على تعريف للسيرة ، وبيان أهميتها ، واثبات صحة نقلها ، واثبات حجيتها ، ومنهج الاستدلال بوقائعها .

وقد خلص الباحث الى النتائج الاتية:

١ ـ بيان مكانة السيرة النبوية واهميتها في العلوم الاسلامية ، والحاجة الماسة اليها ، بما تتضمنه من تعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم وشمائله وحياته وحركته بهذه الدعوة .

---

(٤٣) انظر وهبة الزحيلي ، اصول الفقه الاسلامي دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٦ ، ١/٤٤٥ وما بعدها .

(٤٤) ابو الخطاب الكلوذاني ، محفوظ بن احمد ، التمهيد في اصول الفقه ، تحقيق مفيد ابو عمشة مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، ط١ ، مكة ١٩٨٥ ، ج ٢/١٦١ .

(٤٥) انظر مثلا الواحدي ، علي بن احمد ، اسباب النزول ، البابي الحلبي ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٤٦) انظر ابن حمزة الحسيني ، البيان والتعريف في اسباب ورود الحديث الشريف ، المكتبة العصرية ، ط١ ، بيروت .

٢ ــ دراسة منهج لاثبات السيرة النبوية ، والوقوف على منهجي المحدثين والمؤرخين ، وان المنهج الامثل هو الافادة من المنهجين معا في اثبات حوادث السيرة النبوية •

٣ ــ ان السيرة النبوية حجة فيما تفيده من احكام ، وانها تكتسب حجيتها من القرآن والسنة والواقع •

٤ ــ الوقوف على معالم منهج للتعامل مع السنة وكيفية الاستدلال بوقائعها ، يقوم على التفريق بين ما هو من قبيل الدين والوحي ، وبين ما هو من قبيل الاجتهاد البشري الذي يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم لانه إمام او قاض او مرب ، او بخصائصه الجبلية •

المراجع

١ ــ القرآن الكريم .

٢ ــ البخاري ، محمد بن اسماعيل ، الجامع الصحيح ــ مع الفتح ــ المطبعة السلفية ، القاهرة .

٣ ــ البرهان في اصول الفقه ، تحقيق عبدالعظيم الديب ، ط ١ ، قطر ، ١٣٩٩هـ .

٤ ــ الترمذي ، محمد بن عيسى ، جامع الترمذي ، تحقيق احمد شاكر ، البابي الحلبي ط١ ، القاهرة ١٩٦٥ .

٥ ــ الجويني ، امام الحرمين ، عبدالله بن يوسف ، التلخيص في اصول الفقه ، تحقيق عبدالله النيبلي ، دار البشائر الاسلامية ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦م.

٦ ــ حسين مؤنس ، دراسات في السيرة النبوية ، الزهراء للاعلام ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٧ ــ ابن حمزة الحسيني ، البيان والتعريف في اسباب ورود الحديث الشريف ، المكتبة العصرية ، ط١ ، بيروت .

٨ ــ ابو الخطاب الكلوذاني ، محفوظ بن احمد ، التمهيد في اصول الفقه ، تحقيق مفيد ابو عمشة ، مركز البحث العلمي بجامعة ام القرى ، ط١ ، مكة ١٩٨٥م .

٩ ــ ابو داود ، سليمان بن الاشعث ، السنن ، تحقيق الدعاس ، حمص .

١٠ــ الراغب الاصفهاني ، الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١م .

١١ـ الزبيدي ، محمد مرتضى ، تاج العروس في شرح القاموس ، المطبعة الخيرية ، ط١ ، مصر ، ١٣٠٦هـ .
١٢ـ السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن ، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي دار الكتب الحديثة ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
١٣ـ الشاطبي ، ابراهيم ، الموافقات في اصول الاحكام ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٥م .
١٤ـ عبدالعزيز الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٣م .
١٥ـ عبدالله العروي ، مفهوم التاريخ ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٢م .
١٦ـ عماد الدين خليل ، التفسير الاسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٥م .
١٧ـ العسقلاني ، احمد بن حجر ، تهذيب التهذيب ، دار صادر ـ مصورة ـ بيروت .
١٨ـ عبدالغني عبدالخالق ، حجية السنة ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، واشنطن .
١٩ـ ابن فارس ، احمد ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجليل ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩١م .
٢٠ـ الفيومي ، احمد بن محمد ، المصباح المنير ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٧م
٢١ـ فاروق حمادة ، مصادر السيرة النبوية وتقويمها ، دار الثقافة ، ط١ ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠م .
٢٢ـ القرافي ، احمد بن ادريس ، الفروق وبهامشه تهذيب الفروق .
٢٣ـ محمد الطاهر بن عاشور ، مقاصد الشريعة الاسلامية ، الشركة التونسية ، تونس .
٢٤ـ محمد فؤاد عبدالباقي ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، دار الشعب ، القاهرة .
٢٥ـ مصطفى السباعي ، السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ، المكتب الاسلامي ، بيروت .
٢٦ـ اللكنوي ، محمد عبدالحي ، الاجوبة الفاضلة للاسئلة العشرة الكاملة ، تحقيق ابو غدة ، المطبوعات الاسلامية ، ط٢ ، ١٩٨٤م .
٢٧ـ الواحدي ، علي بن احمد ، اسباب النزول ، البابي الحلبي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٨م .
٢٨ـ وهبة الزحيلي ، اصول الفقه الاسلامي دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٦م .

تاريخ المغرب والاندلس : مدخل لدراسة نقدية جديدة

الدكتور عبدالواحد ذنون طه
كلية التربية ـ جامعة الموصل

الملخص

يؤكد البحث اهمية دراسات المغرب والاندلس ، وان الحاجة ما تزال ماسة الى المزيد من المؤلفات العربية الحديثة عن هذا الموضوع ، واعادة النظر فيما كُتب سابقا وتحليله ومعرفة الدوافع التي كانت وراءه • ويدعو البحث الى محاولة اخرى جديدة لفهم هذا التاريخ على وفق منظور عربي اسلامي شامل ، يأخذ بنظر الاعتبار وحدة هذا التاريخ وعدم انفصاله عن تاريخ الامة في المشرق • وتشير هذه الدراسة فضلا عن ذلك الى مجموعة من القواعد الاساسية التي تتواكب مع الاسس العلمية الرصينة • وتشكل بمجموعها مبادىء قويمة يمكن الاعتماد عليها في دراسة هذا التاريخ •

تمهيد :

لا تخفى أهمية تاريخ المغرب العربي بالنسبة الى التاريخ العام للدولة العربية الاسلامية ، فدراسته تحتل مكانة بارزة في مجال الدراسات التاريخية العربية • اما الاندلس ، فكانت تشكل في يوم ما جزءا عزيزا من المغرب العربي ، حيث استقر العرب فيها ، وعاشوا على ارضها ما يقارب ثمانية قرون اثروا فيها ، وتأثروا ، وكان اثرهم أقوى على السكان المحليين ، وعلى الاقوام المجاورة عبر جبال البرنيه **Pyrenees** فانتقلت حضاراتهم ، التي هي الاقوى والابعد اثرا في كل مجالات الحياة الى تلك الشعوب •

وازداد في العقود الاخيرة الاهتمام بتاريخ المغرب والاندلس ، وظهرت دراسات وبحوث كثيرة جدا ، تناولت جوانب مختلفة من هذا التاريخ • يضاف الى ذلك الدراسات التي قام بها العديد من المستشرقين منذ القرن الماضي • ومع هذا ، فان الوجود العربي الاسلامي في تلك الاجزاء الواسعة من شمال افريقيا ، وشبه الجزيرة الآيبيرية ، لم يستكمل بعد كل ما يتطلبه من الباحثين من جهد وعناء وتدقيق • ان الحاجة ماتزال ماسة الى المزيد من المؤلفات العربية الحديثة ، التي يَسهُل على القارىء العربي الاطلاع عليها • كذلك فانه لابد من اعادة النظر فيما كتب عن هذا التاريخ ، وتحليله ، ومعرفة الدوافع التي كانت وراءه ، أكتب من وجهة نظر قومية عربية اسلامية ، ام من وجهة نظر اجنبية غربية ، روج لها بعض المستشرقين ، واخذ بها بعض المؤرخين العرب من دون ان ينتبهوا الى الاغراض الحقيقية ، والدوافع المعادية الكامنة وراءها •

اننا إذَنْ امام حاجة ماسة الى محاولة اخرى جديدة لفهم هذا التاريخ وكتابته على وفق منظور عربي شامل ، يأخذ بنظر الاعتبار وحدة هذا التاريخ، وعدم انفصاله عن تاريخ الامة العربية الاسلامية عامة في المشرق والمغرب • ان هذا الفهم يجب ان يتواكب مع الاسس العلمية الرصينة المتبعة في كتابة التاريخ ، التي تعتمد اسلوب البحث العلمي النقدي ، الذي هو السبيل الوحيد للوصول الى الحقائق المجردة ، التي هي اولا واخيرا هدف المؤرخ من كتابة التاريخ •

ومن حسن الحظ ، فضلا عن جهود المؤرخين المصريين السابقة في هذا المجال ، فقد شعرت نخبة بارزة من مؤرخي المغرب العربي بهذه الحاجة الملحة ، وابتدأت دراساتهم الرصينة تطرق ابوابا كانت الى وقت قريب بعيدة عن متناول البحث التاريخي • فظهرت دراسات تاريخية تتميز بالدقة والشمول والتركيز على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، وعلاقته بالتطور التاريخي لهذه البلاد • ويمكن ان نشير في هذا المجال الى دراسات الاستاذ الدكتور

الحبيب الجنحاني من تونس ، والاستاذ الدكتور لقبال موسى من الجزائر ، والاستاذ الدكتور امحمد بن عبود من المغرب •

كما ظهرت دراسات وأقيمت ندوات كرست لبحث مصادر تاريخ عرب الاندلس بعد سقوط غرناطة ، حيث نشرت البحوث والدراسات والوثائق الجديدة المتعلقة بتأريخهم ، وذلك ضمن الجهود التي يبذلها مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية في زغوان بتونس بعناية الاستاذ الدكتور عبدالجليل التميمي • كذلك عقدت في كلية الاداب والعلوم الانسانية سلسلة من الندوات ضمن ملتقى الدراسات المغربية والاندلسية ، كرست لقراءة التراث المغربي والاندلسي وتوثيقه ، باشراف الاستاذ الدكتور حسن الوراكلي في تطوان بالمملكة المغربية • ويعقد في الاونة الاخيرة ايضا ندوة اخرى في كلية الاداب والعلوم الانسانية بالمحمدية في المغرب تتناول « الحضارة الاندلسية في الزمان والمكان » بمناسبة مرور خمسمئة عام على انتهاء الوجود العربي الاسلامي في شبه الجزيرة الآيبيرية ، تكرس لاعادة تقويم التراث الاندلسي والاستشراق ، واعادة كتابة التاريخ الاندلسي في ضوء المناهج الحديثة ، ودور العلوم في الاندلس في النهضة الاوربية والاستكشافات الجغرافية ، واستمرار الحضارة الاندلسية في شبه الجزيرة الآيبيرية والقارة الامريكية •

ويمكن ان يشار ايضا الى الجهود القيمة التي يقوم بها احد المشارقة في الاردن ، وهو الاستاذ الدكتور محمد عيده حتاملة في هذا السبيل ، لاسيما في محاولة تقصي كل الموارد القشتالية في شبه الجزيرة الآيبيرية ، وفي امريكا اللاتينية لدراسة اوضاع مسلمي الاندلس بعد انتهاء الوجود العربي فيها • يضاف الى هذا ، الجهود المخلصة التي يبذلها مؤرخو المغرب العربي لرصد جميع المصادر العربية عن تاريخ المغرب ، ومحاولة نشرها ليستفيد منها مؤرخ المغرب في اعادة كتابة التاريخ • ويأتي العمل الذي يقوم به الاستاذ محمد المنوني نموذجا رصينا في هذا المجال •

وعلى الرغم من امكاناتنا المحدودة في العراق بالنسبة للحصول على الدراسات الحديثة والمصادر التي تنشر في المغرب واسبانيا ، فقد قام نخبة من مؤرخينا بمحاولات جادة لدراسة هذا التاريخ بالنقد والتحليل ، نخص بالذكر منهم الاستاذ الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ، والمرحوم الدكتور خليل ابراهيم السامرائي ، والاستاذ الدكتور خليل ابراهيم الكبيسي ، والاستاذ الدكتور تقي الدين عارف الدوري ، والدكتور ناطق صالح مطلوب ، وغيرهم ممن اشرنا اليهم والى اعمالهم بالتفصيل في دراسة مستقلة(*) . وفي الوقت الذي يشيد فيه كاتب هذه الدراسة بجهود كل هؤلاء المؤرخين المخلصين ، وغيرهم ممن لم ترد الاشارة اليهم ، يتقدم بمساهمة متواضعة نحو مزيد من الفهم والتعمق في دراسة تاريخ المغرب والاندلس ، وتشير هذه الدراسة الى عدة قواعد اساسية تشكل بمجموعها مبادىء قويمة يمكن الاعتماد عليها في حالة دراسة فترة او موضوع معين من هذا التاريخ . وقد تبدو بعض هذه المبادىء والملاحظات معروفة لدى المختصين بتاريخ المغرب والاندلس . ولكن المطلوب هو محاولة الالتزام بها من قبل المؤرخ العربي المسلم ، ووضعها نصب عينيه ، لانه في هذه الحالة سيصل حتما في نتائجه الى مفهوم عام لتاريخ المغرب والاندلس ، يرتبط بتاريخ الامة جميعا ، ويشكل رافدا مهما من روافد حضارتها ، وتواصل عطائها في مختلف المجالات . وفيما يأتي عرض لبعض هذه الملامح الاساسية :

(*) ينظر : عبدالواحد ذنون طه ، « التراث المغربي والاندلسي في مؤلفات المؤرخين العراقيين » . قدم هذا البحث الى الندوة الثالثة لملتقى الدراسات المغربية ــ الاندلسية المقامة بكلية الاداب والعلوم الانسانية في تطوان بالمملكة المغربية للفترة من ٤ ــ ٦ شوال ١٤١١ / ١٩ ــ ٢١ نيسان ١٩٩١ . وسينشر في العدد السابع من مجلة دراسات اندلسية التي تصدر في تونس .

١ ـ تاريخ المغرب والاندلس جزء من التاريخ العام للدولة العربية الاسلامية :

حُرر المغرب العربي ضمن موجة الفتوح العربية الاسلامية التي ابتدأت منذ عهد الراشدين ، واستمرت في العهد الاموي • واصبحت مدينة القيروان قاعدة لولاية افريقية ، التي صارت مسؤولة عن شؤون المناطق المحررة في المغرب • وكذلك تبعت الاندلس من الناحية الادارية هذه الولاية الجديدة التي كانت ترتبط بدورها بالخلافة المركزية في دمشق[١]•

لقد جاءت عمليات الفتوح في هذه المناطق ضمن التطور العام الذي حل بالامة العربية بعد ظهور الاسلام ، وقيام الدولة العربية الاسلامية • وان البعد الجغرافي لبعض مناطق المغرب ، او الاندلس ، لا يعطي المؤرخ الحق في فصلها ودراستها بمعزل ، حيث لا يمكن فهم تطوراتها التاريخية واحداثها بصورة جيدة من دون الرجوع الى الشرق ، والتعرف على سير الاحداث فيه • فلقد كانت موجة الفتوح عامة في عصر الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦ـ٩٦هـ / ٧٠٥ـ٧١٥م) • ففي الوقت الذي كانت فيه قوات طارق بن زياد ، وموسى بن نصير تعمل على تحرير شبه الجزيرة الآيبيرية ، كان قتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، يعملان على مد رقعة الدولة العربية الاسلامية نحو الشرق الى الصين والهند[٢]•

وفي السنوات الاولى للوجود العربي الاسلامي في الاندلس ، نجد ان معظم الاحداث تتأثر بما يتم في المشرق من تغيير ، سواء على الصعيد

---

(١) ينظر : حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٦٠٤ .

(٢) ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢ : ٨٧/٩ـ٨٨ ؛ وانظر : عبدالواحد ذنون طه ، الجهد العسكري العربي الاسلامي في جبهة المشرق في العهد الاموي ، مجلة رسالة الخليج العربي ، العدد التاسع ، السنة الثالثة ، الرياض ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٢٣١ـ٢٤٨ .

السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي . وحينما تدهورت اوضاع الخلافة الاموية في سنواتها الاخيرة في المشرق ، سبب ذلك ايضا حالة من الفوضى ، والاضطراب ، وشبه الاستقلال ، سواء في المغرب ، حيث استقل عبدالرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة بولاية افريقية[٣] ، وفي الاندلس ، التي مرت بفترة شبه مستقلة في ايام آخر ولاتها ، يوسف بن عبدالرحمن الفهري[٤].

ولم يقتصر الامر على هذه الحقبة حسب ، بل ظلت الاندلس متصلة بالمشرق ومتأثرة به بعد سقوط الدولة الاموية ، وقيام الخلافة العباسية . فعلى الرغم من الانقطاع السياسي الذي حدث بين هذه البلاد وبين الخلافة العباسية بعد تأسيس الامارة الاموية علي يد عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (١٣٨ ــ ١٧٢ هـ / ٧٥٦ ــ ٧٨٨ م) ، ظل الاتصال الروحي والحضاري مستمرا مع المشرق العربي الاسلامي . فأخذت الاندلس المذهب المالكي عن طريق اتصالها بالحجاز بوساطة الحجاج ، والرحلات العلمية التي كانت قائمة ومستمرة بينها وبين معظم انحاء الدولة العربية الاسلامية الاخرى[٥] . ثم استعارت الكثير من مظاهر الحضارة والعمران من المشرق ، لاسيما في عهد عبدالرحمن الاول (الداخل) وخلفائه . وبلغت هذه المسألة اوجها في عهد عبدالرحمن الثاني ، او الاوسط (٢٠٦ـ٢٣٨هـ / ٨٢٢ـ٨٥٧م) ، الذي فتح

---

(٣) ابو اسحق ابراهيم بن القاسم ، الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقية والمغرب ، تحقيق : المنجي الكعبي ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ١٢٣ فما بعدها .

(٤) راجع : عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ، دار الرشيد النشر ، بغداد ــ ميلانو ، ١٩٨٢ ، ص ٣٩٦ .

(٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه الرحلات راجع ، جعفر صادق حسن ، الرحلات العلمية من الاندلس الى المشرق في عصر الامارة ، رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة ، كلية الاداب / جامعة الموصل ، ١٩٨٥

الباب واسعا امام التأثيرات المشرقية القادمة من عاصمة الخلافة العباسية في العراق[٦] .

وازداد هذا الاتصال عمقا ، لاسيما في النواحي العلمية والثقافية في عهد الخلافة في الاندلس ، حيث نجد الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠–٣٦٦هـ / ٩٦١–٩٧٦م) يبعث مندوبين الى مختلف المراكز العلمية المشرقية في العراق وغيره ، ليبحثوا له عن الكتب الجديدة ، ويرسلوها اليه[٧] . هذا فضلا عن استمرار الرحلات العلمية بين الاندلس وبقية انحاء الدولة العربية الاسلامية . وهكذا لم تنقطع هذه البلاد عن احداث المشرق ، وظل اهلها على اتصال باخوانهم ، فتواصل العطاء الحضاري للجميع ، على اختلاف اماكن تواجدهم ، يجمعهم في ذلك وحدة الامة الروحية والحضارية .

٢ ـ وحدة المغرب والاندلس وعدم الفصل بين تاريخهما :

لا يمكن التوصل الى فهم دقيق للتاريخ العربي في الاندلس من دون توجيه الاهتمام الكافي للاحداث في المغرب . فلقد كان الاتصال مستمرا بين الجانبين قبل الاسلام وبعده . وكانت الفعاليات التجارية المتبادلة بين شمال افريقيا وحوض البحر المتوسط ، لاسيما مع شبه الجزيرة الآيبيرية ، قوية جدا . وهناك العديد من الادلة على ان الموانىء المغربية كانت دائما مكتظة بالسفن والتجار القادمين من الاندلس[٨] . وفي الحقيقة ، فان اطلاع السكان المحليين ،

---

(٦) انظر : ابو العباس احمد بن محمد بن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، نشر : كولان وليفي بروفنسال ، ليدن ، ١٩٤٨ : ١٣٦/٢ ؛ احمد مختار العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣٤٠ .

(٧) ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٣ : ٢٠٠/١–٢٠٢ .

(٨) ابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، نشر : دي سلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، ص ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٥ .

وخبرتهم الكبيرة في شؤون شبه الجزيرة الآيبيرية ، كان احد العوامل الممهدة والمشجعة للفتح العربي الاسلامي لهذه البلاد • لقد وصل العرب في فتوحهم للمغرب الى اقصى حد يمكن ان يصلوا اليه من ناحية الامتداد الجغرافي ، وهو المحيط الاطلسي • وكان يمكن ان يقفوا عند هذا الحد لولا اقتناعهم بان الامتداد الطبيعي يحتم عليهم السير باتجاه الشمال ، حيث كان السكان المحليون ، الذين اعتنقوا الاسلام ، يعرفون هذه المنطقة جيدا ، فلفتوا انتباه العرب الى النتائج العظيمة التي يمكن ان تتحقق لو تم توحيد شبه الجزيرة الآيبيرية مع شمال افريقيا • وقد تم تنفيذ هذه الفكرة في نحو اربع سنوات فقط من انجاز فتح المغرب • وان دل هذا على شيء ، انما يدل على عمق الترابط الجغرافي والاقتصادي والسياسي ، الذي كان يجمع بين المغرب والاندلس •

ولقد اثبتت الاحداث اللاحقة بعد الفتح صدق هذا الترابط ، فكلما حدث حادث جلل في المغرب ، تجاوبت اصداؤه في الاندلس ، والعكس صحيح • وقد ادرك العرب هذه الحقيقة ، حيث عمدت الخلافة الاموية الى جعل الاندلس بعد الفتح جزءا من ولاية افريقية ، التي مركزها في القيروان ، وذلك لاقتناعها بضرورة توحيد المنطقتين • وبعد قرنين من الفتح تقريبا ، وحينما جاء الفاطميون الى شمال افريقيا ، ادركوا اهمية الاندلس ، فحاولوا الوصول اليها ، تعزيزا لمكانتهم • وفي الوقت نفسه ، شعر الامويون في الاندلس بالخطر الماثل في الشمال الافريقي ، ودارت احداث متلاحقة هدفها محاولة كل من القوتين لفرض السيادة على الاندلس والمغرب[٩] •

وفي منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ظهر المرابطون قوة جديدة في المغرب • ثم توسعوا في ارجائه ، حتى اصبحوا من

---

(٩) للاطلاع على المزيد من المعلومات بشأن العلاقات بين الاندلس والمغرب ، راجع : عبدالعزيز فيلالي ، العلاقات السياسية بين الدولة الاموية في الاندلس ودول المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٧ فما بعدها .

القوة بحيث عبروا الى الاندلس ، نتيجة للاحداث التي استجدت باستفحال خطر الممالك الاسبانية على المسلمين في الاندلس ، واستغاثة هؤلاء المرابطين للقدوم الى نصرتهم ، وقد انتصرت القوة العربية الاسلامية الموحدة من المغرب والاندلس في معركة الزلاقة **Sagrajas** سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م[١٠] . ولكن تردي الاوضاع في الاندلس ، واختلاف دول الطوائف فيها ، اوحى المزعيم المرابطي ، يوسف بن تاشفين ، بتوحيد العدوتين . وهكذا توحدت المغرب والاندلس تحت ظل المرابطين . وحينما انتهى دور هؤلاء في المغرب ، وسقطت دولتهم هناك ، سقطت ايضا في الاندلس . ثم توحدت الاندلس مرة اخرى مع المغرب في عهد الموحدين ، واثرت الاحداث التي جرت في كل جانب بالجانب الاخر سلبا او ايجابا . ولما انتهى النفوذ السياسي للموحدين في المغرب ، انقطع ايضا نفوذهم في الاندلس . وهكذا استمرت وحدة الاحداث بين الجانبين في العهود اللاحقة ، لاسيما في العهد المريني . فلقد كان هناك تعاون فعال بين المرينيين ومملكة غرناطة ، في محاولة لصد الزحف الاسباني عن هذه المملكة التي تمثل آخر الوجود العربي في الاندلس . فارسل المرينيون مجموعة من المجاهدين الى الاندلس للمرابطة فيها ، وقد عرفت هذه القوة العسكرية بمشيخة الغزاة ، وهي من الوحدات العسكرية التي كان هدفها التعاون الفعال بين المغرب والاندلس ، لصد النفوذ الاسباني ، ولتحقيق وحدة المصير المشترك بين البلدين[١١] . ولما وقعت الكارثة بسقوط

---

(١٠) انظر : محمد بن عبدالله الحميري ، صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره وترجمه الى الفرنسية : ليفي بروفنسال ، القاهرة ـ ليدن ، ١٩٣٧ ، ص ٨٣ـ٩٥ ؛ عبدالواحد بن علي المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩٣ـ١٩٦ .

(١١) انظر : لسان الدين ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبدالله عنان ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٧٤ : ٢/١٦ ، ٣٨ ؛ احمد بن محمد المقري ، ←

مملكة غرناطة ، لم يجد اهلها سوى المغرب ملاذا لهم ، وملجأ ، بعد ان انتهى كيانهم في الاندلس ، وفقدوا الامل في البقاء فيه • فهاجروا اليه ، وكـــان معظمهم مكرهين من قبل السلطات الاسبانية على ذلك ، حيث ابتدأوا حيـــاة جديدة متلاحمـــة مع اهله ، ســاهمت في خدمة مســـيرة الحضـــارة العربية الاسلامية[١٢] •

٣ ـ اعتماد جميع الموارد المتيسرة :

لا يمكن ان تقتصر دراسة المغرب والاندلس على كتب التاريخ وحدها ، بل يجب ان تتعداها الى كتب الجغرافية ، والانساب ، والتراجم ، والقواميس اللغوية ، والادب ، والشعر • ويجب الاهتمام بشكل خاص بالكتب المفقودة • ونعني بها الكتب الاندلسية التي ألفـــت ايام الوجـــود العربي الاســـلامي في الاندلس ، ثم ضاعت نتيجة للتعصب الديني الذي اعقب سقوط غرناطـــــة ، وخروج العرب من الاندلس • فلقد احرقت الالاف من المخطوطات العربية في ساحات غرناطة العامة[١٣] • وهكذا فقد العرب مصدرا مهما جدا من مصـــادر التاريخ الاندلسي ، لاسيما مؤلفات مؤرخين مشهورين من امثال : احمد بـــن محمد الرازي ، وابن حيان ، وابن ابي الفياض ، وغيرهم • ولكن من حســـن الحظ احتفظ لنا بعض المؤرخين المتأخرين بنصوص لا بأس بها من هـــــذه

←

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ : ١/٤٥٣ ، ٤/٣٨٥ .

(١٢) لمزيد من التفاصيل راجع : محمد رزوق ، الجالية الاندلسية بالمغـرب العربي ، مجلة المناهل ، العدد ٣٤ ، المغرب ، ١٩٨٦ ، ص ١٢١ـ١٨٦ .

(١٣) **Pascual de Gayangos , The History of the Muhammedan Dynasties in Spain , New York , 1964 , reprint of London edition 1840 - 1943 , VoL. 1, PP. VIII - IX .**

المؤلفات المفقودة ، فالى هذه النصوص يجب توجيه الانتباه الكافي ، والعمل على جمعها ، وتحقيقها استكمالا للفائدة •

ويمكن ان يقال الشيء نفسه بالنسبة للمغرب ، حيث هناك العديد من الكتب المفقودة ، وهي ثروة علمية جديرة بالبحث والاستقصاء • فلو تصفحنا كتاب « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي ، على سبيل المثال ، لوجدنا عشرات من اسماء المؤلفين ، والكتب المفقودة ، التي لم تلق العناية الكافية حتى الان • لهذا يجب ان تعرف هذه الكتب ، وان يلقى عليها الضوء ، ويشار الى اهميتها ، حتى يمكن الاستفادة مما تبقى منها ، والعمل على جمع نصوصها من مختلف المصادر التاريخية المتأخرة • ولكاتب هذا البحث محاولة متواضعة في هذا المجال للكشف عن موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي في المغرب والاندلس ، ودراسة اهمية كتب احمد الرازي ، وابن ابي الفياض المفقودة(١٤)•

وهناك امر آخر جدير بالانتباه في تاريخ الاندلس ، وهو عدم اغفال المصادر اللاتينية المسيحية التي تناولت احداث الفتح ، والوجود العربي الاسلامي في الاندلس • فهناك نفر من المؤرخين المحدثين ، لا يرون ضرورة استخدام مثل هذه الموارد ، على اساس انها متعصبة ، وتشوه الحقائق التاريخية • وقد حاول بعضهم ان يكتب فعلا جوانب من تاريخ الاندلس

---

(١٤) انظر : عبدالواحد ذنون طه ، موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن شمال افريقيا من الفتح الى بداية عهد المرابطين ، **مجلة المجمع العلمي العراقي** ، م ٣٦ ، ج٤ ، (١٩٨٥) ، ص ٢٠١–٢٦٢ ؛ كذلك : موارد تاريخ ابن عذاري المراكشي عن الاندلس من الفتح الى نهاية عصر الطوائف ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٣٧ ، ج٤ (١٩٨٦) ، ص ٣١٤–٣٧٩ ؛ وانظر ايضا : نشأة التدوين التاريخي في الاندلس – دراسة تطبيقية عن احمد بن محمد الرازي ، مجلة دراسات ، الجامعة الاردنية ، م٧ ، العدد ١ ، (١٩٨٠) ، ص ٧٣–٩٣ ؛ نص اندلسي من تاريخ ابن ابي الفياض ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م ٣٤ ، ج١ (١٩٨٣) ، ص ١٦٢ – ١٩٣ •

استنادا الى المصادر العربية فقط[١٥] • وعلى الرغم من احترامنا لوجهة النظر هذه ، والدوافع النبيلة التي تكمن وراءها ، لا يمكن الاتفاق معها في هـذا الشأن • لان التاريخ لا يكتب من وجهة نظر واحدة ، بل يجب الاطلاع على آراء كل الجهات المعنية بهذا التاريخ • وواجب المؤرخ هنا ، هو فرز الحقائق، ونقد المصادر ، وتبيان الغث من السمين ، والاشارة الى مواطن الدس ومناقشتها • فمن الطبيعي ان نجد مبالغات كثيرة ، ومجانبة للواقع في بعض هذه المصادر ، لاسيما وانها تكتب من وجهة نظر معادية • ولكن في الوقت نفسه ، نجد في بعضها موضوعية ، وعدم تحيز ، كما هو الحال مثلا بالنسبة الى حولية ازيدور الباجي ، التي تسمى ايضا بحولية سنة ٧٥٤م[١٦] ، وهي تعد المصدر المعاصر الوحيد عن فتح العرب للاندلس ، وعن السنوات الاولى من وجودهم هناك •

٤ ـ الاهتمام بالبناء الاقتصادي والاجتماعي :

ركزت معظم الدراسات عن المغرب والاندلس على التاريخ السياسي لهاتين المنطقتين ، ولا نجد الا قلة من البحوث التي اهتمت بالجانب الاقتصادي والاجتماعي ، على اهميته ، وخطورته ، ودوره في تحديد المسار السياسي في كل من المغرب والاندلس • ان عدم معرفة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين قبل الفتح ، لا يتيح لنا الاطلاع الكامل على اسباب المقاومة التي لقيتها الجيوش العربية في المغرب ، والسهولة النسبية التي تم بها افتتاح الاندلس • ان الارتباطات الاقتصادية التي كانت بين مجموعات عديدة من

---

(١٥) انظر : خليل ابراهيم السامرائي ، جهاد المسلمين وراء جبال البركات في المصادر العربية ، مجلة دراسات في التاريخ والآثار ، العدد ٢ ، بغداد (١٩٨٢) ، ص ١٩٣-٢٠٥ •

(١٦) **Isidoro Pacense , or : The Chronicle of 754.**
نشرت ملحقا ثانيا لكتاب « اخبار مجموعة » ، باعتناء : لافوينتي القنطرة ، مدريد ، ١٨٦٧ ، ص ١٤٦-١٦٢ •

السكان المحليين في شمال افريقيا مع البيزنطيين ، هي التي دفعتهم الى التعاون في مقاومة الفتح ، لاعتقادهم بتأثيره على مصالحهم الذاتية ، وحياتهم المقبلة . وكذلك الامر بالنسبة الى التكوين الاجتماعي لهؤلاء السكان ، الذي يتألف من وحدات قبلية مشابهة للمجتمع العربي آنذاك . فهذه الروح القبلية ، وعدم الرغبة للخضوع كانت ولاشك من اسباب المقاومة . ولكن سياسة الاندماج الاجتماعي التي اعتمدها الفاتحون العرب ، سهلت عملية الاختلاط ، والتفاعل بينهم وبين السكان المحليين ، وألغت التصورات الخاطئة التي كانت لدى بعض هؤلاء عن طبيعة الفتح العربي ، الامر الذي ادى الى اعتناق كثير منهم للاسلام ،والتخلي عن المقاومة ، وتركها ، ومن ثم التعاون مع الفاتحين في سبيل استكمال تحرير المغرب[١٧] . ولكن حينما اهمل بعض الولاة العرب هذا الجانب الاجتماعي ، وحاولوا اتباع سياسة اخرى مع السكان المحليين ، تقوم على معاملتهم كأناس خاضعين ، تمرد هؤلاء ، وظهرت المشاكل في المغرب، واستمرت طوال العهد الاموي[١٨].

وكذلك الامر بالنسبة للاندلس، فان التركيز على دراسة البناء الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلاد قبل الفتح ، والاشارة الى التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التي كانت تفتك بالمجتمع ، تؤدي بالباحث الى تشخيص العوامل الممهدة التي ساعدت على الفتح . وتشير ايضا الى ان من اهم نتائج هذا الفتح ، كان تحطيم البنى الاقطاعية وملكيات الاراضي الشاسعة للنبلاء ، الى ملكيات صغيرة ، استفاد منها عدد كبير من السكان المحليين ، وجنود الفتح . يضاف الى ذلك ، فان تشخيص الطريقة التي استقر فيها الجنود الفاتحون ، وكيفية توزيع الاراضي بينهم ، تساعد على معرفة الاسس التي تم فيها استقرار المسلمين في هذه البلاد ، ومن ثم كيفية تعاملهم فيما بينهم ، ومع

---

(١٧) قارن : موسى لقبال ، المغرب الاسلامي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط٢ ، الجزائر ، ١٩٨١ ، ص ٣٤ .

(١٨) المرجع نفسه ، ص ١٥٥-١٥٧ .

السكان المحليين ، ومعرفة اسباب الخصومات الداخلية بين مختلف فئات السكان[١٩].

ان دراسة البناء الاقتصادي والاجتماعي في الاندلس تضع يد الباحث على الكثير من الحقائق التي ادت الى التطورات السياسية في مختلف العصور اللاحقة للفتح . من ذلك مثلا ، اثر هذه العوامل الاقتصادية ، والتركيب الاجتماعي للمساهمين في حركة او هيجة الربض ، في عهد الحكم الاول (١٨٠ـ٢٠٦هـ / ٧٩٦ـ٨٢٢م) ، وكيف انها كانت من اهم الاسباب الدافعة لهذه الحركة[٢٠] وكذلك التركيب الاجتماعي لطبقة المولدين ، وهم ابناء الجيل الجديد الذين ولدوا من آباء مسلمين وامهات اسبانيات ، وعلاقته بانتفاضاتهم المستمرة على الدولة[٢١] . ويجب ان لا ننسى ايضا ان الاهتمام بالبناء الاقتصادي والاجتماعي للاندلس ، يقدم لنا اسبابا كافية لقيام دول الطوائف المختلفة ، ويجعلها محصورة ضمن ثلاثة عناصر ، هي العرب ، والبربر ، والصقالبة . وكل من هذه التجمعات تعود الى اسس قديمة ترسخت منذ الايام المبكرة للفتح ، واستمرت تحمل عوامل قوتها وضعفها الى نهاية الوجود العربي الاسلامي في الاندلس[٢٢].

---

(١٩) انظر ، طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ، ص ٢٠٣ فما بعدها .

(٢٠) لسان الدين محمد بن الخطيب ، اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ١٥.

(٢١) قارن : السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، دار المعارف ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨ــ١٣٠ ؛ عبدالواحد ذنون طه ، التنظيم الاجتماعي للاندلس في عصر الولاة ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد ٣٢ (١٩٨٧) ، ص ١٨٦ .

(٢٢) انظر : ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ١٤٤ ؛ العبادي ، في التاريخ العباسي والاندلسي ، ص ٤٦٥ـ٤٦٧ .

٥ ـ المصطلحات ومحاولة فهم مدلولاتها :

ان الدراسة الدقيقة لتاريخ المغرب والاندلس ، واعادة كتابته بشكل يخدم وحدة الامة ، يجب ان لا تمر مرورا سريعا على بعض المصطلحات التي ترد في روايات المؤرخين • وتبرز هذه المسألة بشكل ادق واعمق في تاريخ الاندلس • وفي الحقيقة ، فان المؤرخ الحصيف يستطيع ان يستخلص الكثير من النتائج من التفسير الموفق لهذه المصطلحات • فعلى سبيل المثال ، نجد في دراسة الاستقرار العربي الاسلامي في الاندلس الكثير من هذه المصطلحات ، التي تبدو اول وهلة ، وكأنها لا تعني شيئا للباحث ، مثل : تبيل ، وقنب ، وبراجلة ، وبرجلات ، وتاجرة ، وبشارة ، وكنتش معافر ، وارش ، وشوش • لكن بالرجوع الى اصول هذه الكلمات ، نجد انها قد جاءت نتيجة للتأثر والاحتكاك مع اللغات التي كانت سائدة في شبه الجزيرة الآيبيرية ، كاللاتينية، والقشتالية ، او بعض اللغات الآيبيرية القديمة الاخرى • وقد استعمل الجغرافيون والمؤرخون العرب هذه الكلمات مع تحريف بسيط لتناسب النطق العربي • وهم ولا شك يعنون بها معانيها الاصلية ، التي كانت معروفة في ذلك العصر ، ولكنها بمرور الزمن ، وبضياع الاندلس ، اصبحت لا تعني شيئا لمن يدرس تاريخ هذه البلاد دراسة سطحية ، فيمر بها مرورا عابرا ، وكأنها مصطلحات لا معنى لها •

ان الرجوع الى قواميس اللغة اللاتينية ، والمصطلحات التي كانت تستعمل من قبل سكان الاندلس في العصور الوسطى ، يبين معاني مذهلة لهذه المصطلحات ، يمكن في ضوئها تحديد الكثير من اسس الاستقرار العربي الاسلامي في الاندلس[٢٣] • فكلمة « تبيل » مشتقة من **Tablar & Tabula**

---

(٢٣) انظر على سبيل المثال :

F.J. Simonet, Glosario de Voces ibericas Latinas usandas enter los Mozarabes, reprint of Madrid edition, 1888, Amsterdam, 1967, PP. 83, 34-35, 24, 53, 56 57, 514, 474-475, 206, 521, 566, 234, 586 .

بالقشتالية ، وهي تعني مساحة مزروعة بالاشجار والنباتات • وحينما يـــرد تعبير « تيبل بني اوس » مثلا ، يقصد به منطقة استقرارية تتميز بوجـــود الاشجار والنباتات ، سكنت من قبل جماعات من قبيلة اوس العربية المعروفة • وكلمة « قنب » مشتقة من Campus اللاتينية ، والقشتالية هي Campo وهي تعني أية ارض يمكن زراعتها ، وهي مرادفة للكلمة العربية « الفحص » فهي منطقة للاستقرار وممارسة الزراعة للمستقرين النازلين فيها من المسلمـين العـرب والبربر • وكلمـة «براجلـة» أو «برجـلات» مشتقـة مـن Parcella & Barcella اللاتينية ، وهي من Particella ، اي الجـــزء الصغير ، وتعني كلمة Barcella ، قطعـة غير محـددة من الارض • وفي الاسبانية الحديثة ، استخدمت كلمة Parcella لتشير الى المناطق التي تقـع على منحدرات جبال سيرانيفادا Sierr Nevada في محافظة غرناطـــة Granada • فالبرجلات اذا في التعبير القديم للنصوص العربية ، لابد من ان تعني المناطق الاستقرارية على منحدرات جبال شاير ، او جبال الثلج ، التـي هي جبال سيرانيفادا •

وربما كانت كلمة « تاجرة » التي تشير اليها المصادر العربية ، هي الكلمة اللاتينيـــة tosca ، التي تعني الاجمة ، والتي ينمو فيها نبات الحلفاء • فتاجرة بني فلان مثلا هي المناطق الاستقرارية التي تتميز بمثل هذه المميزات • اما كلمة « بشارة » والتي يفهم ضمنا بانها عربية ، فهي ليست كذلك ، انمـا هي لاتينية الاصل ، إشـتقت من كلمتين همـا boscalia & boscus (بالقشـــتالية boscaje ، وبالاسبانية الحديثة bosque) التي تعنـي غابة صغيرة • ولهذا فعندما يرد في المصادر مصطلح « بشارة بني حسان » ، فذلك يعني المناطق الاستقرارية التي تتميز بوجود الغابات ، والتي عـــاش فيها بنو حسان •

وكذلك تعبير « قرية كنتش معافر » ، اي قرية « الخمس » لقبيلة معافر العربية المعروفـــة ، لان كلمـــة « كنتش » تعنـــي الخمـــس في كلا اللغتـــين اللاتينية والاسبانية (quintus, quinto) • وتظهر كلمة « ارش » العربية التي استخدمت لتسمية مناطق بجانة Pechina باسم اقليم ، او جزء أُرش اليمن ، بان بعض مناطق الاستقرار قد اعطيت لساكنيها منحة او هبة ، لان أَرش تعني العطية او النحلة • اما مصطلح « شوش » فيرد عادة منسوبا الى جماعة او مكان ، مثل « شوش الانصار » • وهذا المصطلح يعني وجود منجم للملح في المنطقة ، اي ان هؤلاء الانصار استقروا في منطقة تتميز بوجود مصادر طبيعية غنية بالمعـــادن ، لاســـيما الملـــح ، لان كلمـــة « شـــوش » التي إشتقت من Salsus اللاتينية (Salso بالقشتاليـــة القديمـــة ، sal بالاسبانية الحديثة) تعني الملح[٢٤]•

وهكذا نجد ان هذه المصطلحات تفتح لنا ابوابا واسعة لدراسة التاريخ الاندلسي ، لم تكن معروفة من قبل ، وهي تفسر الكثير من غوامض هـــذا التاريخ بما يخدم مصلحة كتابة تاريخنا القومي على وفق اسس علمية جديدة ، وبرؤية مدركة لخلفيات هذا التاريخ ومدى تأثره وتفاعله مع المعطيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للامم الاخرى •

٦ ـ الابتعاد عن الروايات غير المعقولة والمغرضة :

لا يخلو تاريخ المغرب والاندلس من الكثير من الروايات التـــي تحاول بشكل او بآخر تشويه هذا التاريخ ، سواء أكان ذلك عن قصد ، ام عـــن حسن نية • وهذه الروايات متنوعة ، منها عربية اسلامية قديمة ، ومتأخرة ، ومنها غير ذلك ، جاءت بها الموارد اللاتينية • وهي جميعا لا تخدم تاريخنـــا

---

(٢٤) راجع تفصيلات هذا الموضوع : طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي ، ص ٢٠٣ـ٢١٠ ، والمصادر التي دونت في الهوامش .

القومي ، لو أُخذت ورويت على علاتها بلا مناقشة وتفنيد . فالمطلوب من الدراسات التاريخية الحديثة ان تأخذ هذه المسألة بنظر الاعتبار ، وتحذر مثل هذه الروايات ، وتقلل من شأنها . وفيما يأتي بعض الأمثلة على هذه الروايات :

تصور بعض الروايات عملية انتقال ولاية افريقية من عقبة بن نافع الفهري الى ابي المهاجر دينار سنة ٥٥هـ/٦٧٤م ، ثم اعادة انتقالها الى عقبة للمرة الثانية سنة ٦٢هـ/٦٨١م ، على انها عملية مسرحية ، يتبارى فيها كل من عقبة وابي المهاجر على التنكيل بالآخر ، وكأن مجيئه للولاية لم يأت الا على سبيل الانتقام من الوالي السابق[٢٥] . ويستطرد بعض المؤرخين في وصف اعمال التعذيب التي انزلها ابو المهاجر بعقبة ، وكذلك القسوة التي عامل بها عقبة ابا المهاجر ، بحيث ينصرف ذهن القارىء تماما عن القيم الروحية والاخلاقية لكلا القائدين ، وهدفهما المشترك في سبيل انجاز تحرير المغرب العربي .

والواقع ان هذه الروايات لا يمكن ان تغير من حقيقة هذا الهدف ، وان اعمال عقبة بن نافع ، وانجازات ابي المهاجر تثبت هذا بما لا يقبل الشك . ثم اننا لم نسمع بخلافات شخصية بين القائدين قبل مجيئهما الى السلطة ، ولهذا فان اختلافهما لا يعدو ان يكون اختلافا في وجهات النظر حول كيفية انجاز الفتح وادارته . ولكن الرواة ضخموا هذا الخلاف وبرزوه ، فوصل الينا على هذا الشكل الذي هو بالتأكيد بعيد عن الواقع . وليس ادل على هذا الكلام من موقف أبي المهاجر مع عقبة حينما جوبه الاثنان بمحاصرة السكان المحليين في قلعة تهودا . فقد رفض ابو المهاجر ان ينسحب الى القيروان حسب طلب عقبة ، قائلا بانه سوف يقاتل معه حتى الرمق الاخير ، وهذا ما حدث

---

(٢٥) الرقيق القيرواني ، ص ٤٠ ؛ ابن عذاري : ١/٢٢–٢٣ .

فعلا ، حيث استشهد القائدان في خندق واحد دفاعا عن قضية العرب والاسلام في المغرب العربي[٢٦].

وفي الاندلس شواهد كثيرة على مثل هذه الروايات ، هناك مثلا مسألة اقحام مساعدة اسرة الملك القوطي غيطشة Witiza للمسلمين في اثناء الفتح . فتذكر الحوليات اللاتينية ، ان العرب والمسلمين عبروا الى الاندلس ، وهزموا الجيش القوطي بسبب خيانة اولاد غيطشة . والحقيقة ، كما تشير اليها بعض المصادر العربية ، هي ان هؤلاء وبعض نبلاء القوط ، قرروا التخلي عن لذريق Roderic ، آخر ملوك القوط ، في ساحة المعركة ، لانهم اعتقدوا بان المسلمين لا ينوون الاستقرار في البلاد ، وان العرش سيعود بعد اندحار لذريق الى اسرة غيطشة . ولكن الدراسة الجادة لاحداث الفتح ، تشير الى ان الجيش القوطي نفسه لم يكن في حالة تسمح له بالنصر ، وانه كان يتألف في معظمه من العبيد المجندين[٢٧] . ولهذا لم يكن هناك اي امل في ان يتمكن هذا الجيش من مقاومة الهجوم العربي الاسلامي ، وان دور اسرة غيطشة في ترجيح كفة المسلمين قد تعرض الى الكثير من المبالغة ، لاسيما من جانب الاسبان ومن تبعهم ، وذلك لتبرير الهزيمة ، والتقليل من شأن العرب وقوتهم .

---

(٢٦) ابو بكر عبدالله بن محمد المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق : بشير البكوش ، مراجعة : محمد العروسي المطوي ، دار الغرب الاسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ : ٤٢/١ ؛ وقارن : نهلة شهاب احمد ، المغرب العربي في عهد عقبة بن نافع الفهري ، رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة ، جامعة الموصل / كلية الآداب (١٩٨٧) ، ص ١٢٠ فما بعدها ، ١٣٨ .

(٢٧) E.A. Thompson, The Goths in Spain, Oxford, 1969, P. 265-267

ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن دور اليهود في الفتح ، فهو الاخر قد بولغ فيه كثيرا • حيث تشير بعض الروايات الى وجود اتفاق مسبق بينهم وبين العرب او « مؤآمرة » كما يحلو لبعض المؤرخين الاسبان ان يسموها ، وذلك لتسليم البلاد الى المسلمين(٢٨) • ومن الجدير بالذكر ان المؤرخين اليهود انفسهم لا يقبلون مثل هذه الروايات ، ويعدونها اساطير معادية للسامية(٢٩) • فكيف يمكن ان يتبناها مؤرخ عربي مسلم يكتب في هذا العصر • والواقع ان اليهود نتيجة للتضييق عليهم من قبل القوط ، لم يقاوموا الفتح العربي الاسلامي ، لاقتناعهم بحسن معاملة العرب لهم ، فموقفهم هذا كان موقفا مصلحيا بالدرجة الاولى ، وليس حبا في العرب ، او رغبة صادقة في التعاون معهم •

ومن الروايات المغرضة الشائعة الاخرى ، الصراع بين قادة فتح الاندلس، اي موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، ومغيث الرومي • فتزعم هذه الروايات، ان موسى بن نصير حسد طارق بن زياد حينما انتصر الاخير على قوات القوط ، وحقق المرحلة الاولى من فتح الاندلس ، وانه ــ اي موسى ــ كان يخشى ان يحصل طارق وحده على غنائم الفتح وامجاده ، من دون ان يبقي له شيئا • لهذا فقد سارع باللحاق به ، وعبر الى الاندلس بجيش كبير ، وسلك طريقا

---

(٢٨) R. Anador de los Rios, Historia social, politica y religiosa de los judios de Espana y portugal, Madrid, 1875-76, Vol. P. 107 ; Ballesteros y Beretta, Historia de Espana y su influencia en la historia Universal, Barcelona, 1918, Vol. 11, P. 107 .

(٢٩) Yitzhak Baer, A History of the Jew in Christian Spain , translated from the Hebrew by : Louis Schoffman, Philadelphia, 1971, VoL. 1, P. 23 ; Eliyah Ashtor, The Jews of Moslem Spain , translated from the Hebrew by Jenny Machlowits Klein and Aaron Klein, Philadelphia, 1973, VoL. 1, P. 22.

مغايرة لطريق طارق ، وافتتح مدنا اخرى ، اكثر غنى من تلك التي افتتحها طارق ، حتى يضمن مكاسب الفتح لنفسه . وحينما التقى بطارق أنبه وعاقبه بشدة على عبوره للاندلس وعدم إطاعته لاوامره[٣٠] .

ان اعتماد مثل هذه الروايات ، وكتابة تاريخ فتح الاندلس في ضوئها من دون مناقشتها ، والتعرف الى حقيقة الأهداف التي تكمن وراءها يعد جناية كبيرة على التاريخ العربي . ان الباحث المنصف في تاريخ المغرب والاندلس ، يعرف حتما انه لم تكن لموسى بن نصير اية حاجة الى حسد طارق ، لان طارقا كان احد قواده ، وما قام به وانجزه كان باسم موسى ، وباسم الخلافة العربية الاسلامية . وليس لقائد مثل موسى ان يحسد احدا على الفتح ، لانه هو الذي حمل لواء انجاز الفتح العربي في المغرب ، وهو بطله دون منازع . لقد كان هدف كل من القائدين حتما هو خدمة المبادىء الانسانية التي حملها العرب الى شعوب الارض لتحريرها . اما الخلافات فلا يمكن انكارها ، لانها دليل على اجتهاد قادة الامة . فكان لطارق رأي في فتح الاندلس وكيفية انجاز هذا الفتح ، لاسيما وانه كان فعلا في قلب الاحداث ، وهو الذي يقدّر كيفية التصرف للحفاظ على جنوده ، وعلى النصر الذي حققه . أما سلوك موسى بن نصير لطريق آخر في الفتح ، فهو طبيعي جدا ، لان مهمة موسى ، المتفق عليها حتما بين القائدين ، هي استكمال الفتح ، ودعمه ، ولا يتم هذا الا بالمرور في مدن اخرى غير تلك التي مر بها طارق . واخيرا فان لقاء طارق بموسى ، وتعاونهما معا لاستكمال فتح بقية المناطق لا يدل الا على التفاهم التام ، والرغبة الاكيدة في انجاز الفتح . فأين هذا التعاون من الروايات المغرضة التي حاولت تشويه الصورة الجميلة لتعاون

---

(٣٠) انظر عن هذه الروايات : عبدالرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم ، فتوح مصر واخبارها ، نشر : شارلس توري ، نيوهيفن ، ١٩٢٢ ، ص ٢٠٧ ؛ الرقيق القيرواني ، ص ٧٦ ؛ ابن عذاري : ١٣/٢ .

العرب والسكان المحليين في المغرب في تحقيق اعظم انتصار للامة العربية الاسلامية في مجال فتوح المغرب ؟

وتشير بعض المصادر اللاتينية الى اهمية الغنائم ، كعامل مباشر من عوامل فتوح العرب وجهادهم عبر جبال البرنيه **Pyrenees** ، او البرت ، كما تسمى في المصادر العربية ، بل هناك من يعمم هذا الامر ليشمل معظم حروب التحرير العربية ، وهذه مغالطة غير مقبولة ، لان الغنائم ما هي الا تحصيل حاصل ، ونتيجة حتمية من نتائج الحروب . فالغالب يأخذ من كل العصور ممتلكات المغلوب واسلابه وبقايا اسلحته . ولم يكن العرب يفعلون اكثر من هذا . ولكن الدس في هذا الامر ظاهر للعيان . فعلى سبيل المثال ، تورد الروايات المعادية ، ان التلهف على الغنائم كان السبب الرئيس في ضعف موقف العرب في حملة عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي على جنوب فرنسا . وان الفرنجة ادركوا هذه النقطة ، فهاجموا مؤخرة جيش المسلمين ، التي تضم غنائمهم ، مما ادى الى تراجع العرب واختلال نظامهم ، ومن ثم هزيمتهم(٣١) . ولكن الواقع ان جيش الغافقي كان يضم في مؤخرته أسر الجند ، اي اطفالهم ونساءهم ، لان هذه الحملة كانت في الغالب تنوي تثبيت موطىء قدم للمسلمين عبر جبال البرت ، والاستقرار في جنوب فرنسا . فكان من الطبيعي ان يختل نظام صفوف الجيش العربي الاسلامي حال تعرض مؤخرته للهجوم ، فكل جندي اراد ان يخلص اهله من الموت ، مما سبب الارتباك والهزيمة .

وهنالك مثال اخير على الروايات غير الواقعية في تاريخ الاندلس ، يتعلق بالعلاقات بين العباسيين والامويين . فتشير هذه الروايات الى دور الخليفة ابي جعفر المنصور ١٣٦ ــ ١٥٨ هـ / ٧٥٤ــ٧٧٥ م فيتحريض بعض قادةالجند

---

(٣١) **M. Reinaud, " Incursions of the Muslims into France Pedmont and Switzeland ", translated from the French by ; Haroon Sherwani, Islamic Culture, vol. 1V, 1930, P. 400-401 .**

في الاندلس على العصيان ، والعمل لاسترداد الاندلس للخلافة العباسية ، في عهد الامير عبدالرحمن الداخل ١٣٨ـ١٧٢هـ / ٧٥٦ـ٧٨٨م[٣٢] • ان مثل هذه الروايات لا يمكن الركون اليها في تعليل احداث الاندلس ، لان الخلافة العباسية لم تكن مستعدة لمثل هذه المحاولات ، والخليفة المنصور بالذات كان مشغولا في ذلك الوقت بحل المشاكل العديدة التي تواجهه في المشرق ، وليس من المعقول ان يفكر بارسال جند ، او بالتأييد العسكري لمغامرة بعيدة جدا عن مركز دولته في العراق • يضاف الى ذلك ان العباسيين لم يكونوا مسيطرين سيطرة فعالة على المغرب العربي حتى ذلك الحين ، وكانت سلطتهم مهزوزة في افريقية ، فكيف يفكرون بالاستيلاء على الاندلس ، ويحاولون استعادتها ؟

وتصور روايات اخرى اشتراك الخلافة العباسية في « مؤآمرة دولية » ضد الامويين في الاندلس ، شارك فيها الخليفة محمد المهدي ١٥٨ـ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م وملك الافرنج شارلمان ، الذي كان يريد تأمين حدوده الجنوبية في مواجهة المسلمين في شبه الجزيرة الآيبيرية • وان سر التقارب بين العباسيين والكارولنجيين الافرنج ، هو عداؤهما المشترك للدولة الاموية في الاندلس • وتتلخص «المؤآمرة» المزعومة في قيام تمرد محلي في الاندلس ، اعد له الخليفة العباسي ، بان اختار احد القادة ، وهو عبدالرحمن بن حبيب الفهري الصقلي ، وارسله الى الاندلس مع اسطول بحري ، وجيش من شمال افريقيا ، ليتعاون مع قائد آخر من الاندلس ، هو سليمان بن يقظان الاعرابي ، حاكم مدينة سرقسطة zaragoza • ثم يعبر بعد ذلك شارلمان بجيوشه الى الاندلس ، ويتجه الى مدينة سرقسطة ، فيسلمها له ابن الاعرابي ، وبهذا تطوق الاندلس ، ويقضى على حكم اميرها عبدالرحمن الداخل[٣٣]•

---

(٣٢) ابو بكر محمد بن عمر بن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، نشر : خوليان رايبيرا ، مدريد ، ١٨٢٦ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ اخبار مجموعة ، ص ١٠١ـ١٠٢ ؛ ابن عذاري : ٥٢/٢ •

(٣٣) انظر : العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣١٢ فما بعدها ؛ سالم ، المرجع ←

فهل يمكن تنفيذ مثل هذه « المؤآمرة » بهذه البساطة ؟ وهل يُعقل تورط المهدي العباسي في هذا الامر ؟ الواقع ان ما حدث في الاندلس من تدخل شارلمان ، وتمرد ابن الاعرابي والصقلبي ، ما هي الا امور خاصة بالاندلس ، لا علاقة للعباسيين بها • وقد اقحم اسمهم في هذا الامر ، وهم منه براء ، فلا يمكن للخليفة العباسي العربي المسلم ، ان يتآمر مع ملك اجنبي ، لا تربطه به رابطة ، ويبعد عنه الوف الاميال ، لسحق شعب ينتمي الى العروبة والاسلام، لا لشيء سوى الانتقام من الاسرة الاموية ، واسترداد الاندلس منها •

ان ادعاء مثل هذه الروايات بحاجة الى ادلة قوية ، وهي عرضة للتشكيك، ولا يمكن اعتمادها ، او الاخذ بها حين كتابة تاريخ الامة • يضاف الى ذلك ، عدم وجود دليل قوي في مصادرنا العربية المعتمدة ، يشير الى اي اتصال بين هؤلاء المتآمرين في الاندلس والخلافة العباسية ، او اي تنسيق وتعاون بين الخليفة المهدي ، ودولة الفرنجة ، ضد شعب الاندلس(٣٤)•

٧ ــ الحذر من الانسياق وراء تفسيرات بعض المستشرقين

أسدى بعض المستشرقين خدمة كبيرة جدا للدراسات المغربية والاندلسية ، ولا يمكن للمؤرخ المنصف ان ينكر فضلهم في هذا المجال • فهناك العديد من الدراسات التي ظهرت منذ القرن الماضي باللغتين الفرنسية والاسبانية • يضاف الى ذلك كله ، فقد ساهم هؤلاء المستشرقون بنشر مجموعة كبيرة من النصوص

←

السابق ، ص ٢٠١ ؛ ابراهيم طرفان ، المسلمون في اوربا في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٦ ؛ ص ١٧٢ ، عبدالجليل عبدالرحمن الراشد ، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والاندلس في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، مكتبة النهضة ، الرياض ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص ١١٤ــ١١٥ .

(٣٤) انظر على سبيل المثال : اخبار مجموعة ، ص ١١٠ــ١١٢ ؛ ابن عذاري : ٢/٥٥ــ٥٦ .

المغربية والاندلسية التي افادت هذه الدراسات واغنتها . ولكن مع ذلك فلبعض هؤلاء المستشرقين اخطاء كثيرة ، وجسيمة حيال العرب ، والحضارة العربية الاسلامية في الاندلس[٣٥] . ولهذا يجب على المؤرخ العربي ان يكون على حذر في تعامله مع دراسات بعض هؤلاء المستشرقين ، وان لا ينساق وراء تفسيراتهم ، بلا ترو او تفكير . وهنالك بعض الامثلة على هذه التفسيرات الخاطئة : من ذلك رأي المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال **Lèvi - Provencal** في الدمار الذي ألحقته (الكاهنة) في ارياف المغرب العربي في اثناء الفتح . فمن المعلوم وحسب ما تجمع عليه المصادر العربية ، ان السبب في هذا التخريب ، هو اعتقاد الكاهنة الخاطيء بان العرب لم يأتوا الى شمال افريقيا الا سعيا وراء المكاسب المادية ، ولهذا فقد امرت اتباعها بقطع اشجار الزيتون ، وتهديم الحصون ، وتخريب القرى والارياف ، حتى لا يبقى للعرب اية رغبة في العودة ثانية الى البلاد[٣٦] . ولكن ليفي بروفنسال يتجاهل ما جاءت به المصادر العربية ، حين يشكك بنسبة هذا العمل الى الكاهنة ، ويقرر بان العرب هم المسؤولون الحقيقيون عما اصاب افريقية من خراب في الاقتصاد الزراعي بعد ذلك بسنوات . ويتهمهم ايضا بانهم نسبوا هذا العمل الى الكاهنة[٣٧] . وهذا الرأي لبروفنسال ، كما هو واضح ، لا اساس له من الصحة ، وهو مبني على التخمين ، والقصد منه مكشوف ، وهو اتهام العرب بالهمجية ، والتخريب ، ومحاولة بث الفرقة والشقاق بين ابناء المغرب العربي ، خدمة للمصالح الاستعمارية .

---

(٣٥) لمزيد من التفاصيل راجع : مصطفى الشكعة ، « مواقف المستشرقين من الحضارة الاسلامية في الاندلس » ، بحث نشر في كتاب : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م : ٢/٢٧١–٣٤٣ .

(٣٦) الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقية والمغرب ، ص ١٦١ ؛ المالكي ، رياض النفوس : ١/٥٣ ؛ ابن عذاري : ١/٣٦ .

(٣٧) **Lévi - Provencal, " Un Noureau Récit de la Conquête de L'Afrique de Nord par les Arabes, Arabica, 1, 1954, PP. 32-33 .**

وكذلك يجب الحذر من بعض الاستنتاجات التي نادى بها المستشرق الهولندي رينهارت دوزي R. Dozy بالنسبة الى تاريخ الاندلس . فقد فسر الاحداث في هذه البلاد خطأ على انها مجرد صراع قبلي بين القيسيين واليمانيين . وحاول باستمرار ان يبرهن على ان العرب لم يكونوا سوى مجموعات متعادية ، لا يربط بعضها ببعض اية رابطة ، وهؤلاء هم رجال القبائل المنتمين الى المجموعات القبلية لعدنان وقحطان ، او القيسيون الشماليون ، واليمنيون الجنوبيون[٣٨] . ومن البديهي ان هذه الاستنتاجات القديمة الخاطئة لم تعد صالحة لتفسير الاحداث ، وهي لا تخدم بأي حال تاريخنا القومي ، لان العصبية القبلية لم تكن بالتأكيد السبب في نشوء الخلافات بين العرب في الاندلس . بل كانت هناك جملة عوامل اخرى ، منها ماله علاقة بالاستقرار وتوزيع الارض ، ومنها ماله علاقة بتعدد الاجناس ورغبتها في السيادة والسلطان . وان اقحام عامل العصبية وتأكيده ، ما هو الا محاولة للتقليل من شأن العرب ، واظهارهم بمظهر الاقوام المتخلفة ، التي جاءت بخلافاتها القبلية الى الاندلس . وهي محاولة مرفوضة ، ولا يجوز اعتمادها في كتابة تاريخنا العربي في المغرب والاندلس ، او في غيرها من اجزاء الدولة العربية الاسلامية .

ومن الاستنتاجات الخطيرة الاخرى لدوزي ، اتهامه العرب بانهم هم الذين حددوا اماكن الاستقرار للبربر في الاندلس ، وهو يعتقد ايضا بان العرب لم يكونوا عادلين في تقسيمهم للارض بينهم وبين البربر ، لانهم – اي العرب – على حد زعمه ، حاولوا الاحتفاظ بالاماكن السهلية الخصبة لانفسهم ، واقصوا البربر الى المناطق القاحلة والجبلية الجدباء[٣٩] . ولا يمكن

---

(٣٨) Renhart Dozy, Spanish Islam, English translation from Histoire des Musulmans d 'Espange by : F.G. Stokes, London , 1913, PP. 119-121, 126, 149 .

(٣٩) Ibid., P. 139 .

العثور في المصادر على اي تبرير لهذا الاستنتاج الذي نادى به دوزي ، وهو محاولة مكشوفة منه لبث الفرقة بين ابناء المغرب العربي . ولكن مع الاسف ، فان هذه المقولة ، التي نادى بها هذا المستشرق والتي لا اساس لها من الصحة ، قد صدقها بعض المؤرخين العرب المحدثين ، ورددوها ، واشاروا اليهـــا في مؤلفاتهم على انها من الحقائق المسلم بها(٤٠).

ان البربر لم يكونوا غرباء عن العرب ، او اعداء لهم ، حتـــى يعاملوهم هذه المعاملة التي يدعيها دوزي . فهم ابناء عمومتهم الذين يرجعون الى اصل واحد ، وهم اخوانهم في الدين الاسلامي ، وشركاؤهم في السلاح في عمليـــة افتتاح الاندلس . والواقع ان الباحث المتمعن في تاريخ اســـتقرار المسلمين في الاندلس ، لا يجد للعرب اي تأثير على اختيار البربر للاماكن التي نزلوهـــا ، لان استقرار العرب والبربر كان يخضع لعامل الصدفة لا غير . اذ لم تكـــــن لديهم فكرة واضحة في البداية عما ستكون عليه هذه الاماكن ، وان كـــان البربر اكثر اطلاعا ومعرفة بالمنطقة بحكم معيشتهم في الشمال الافريقـــي المجاور . ولهذا فقد كانوا في موقف افضل لاختيار احسن المناطق للاستقرار فيها . ويمكن تفسير وربط اختيارهم للمناطق الجبلية في الاندلس بالحقيقـــة التي تشير الى ان عددا كبيرا منهم عاشوا بالاصل في جبال المغرب ، ولهـــذا فليس من الغريب ان نجدهم يســـتقرون في الاماكـــن التـــي تشـــابه مناطـــق استقرارهم الاصلية(٤١).

من هذا يتبين لنا مدى الضرر الذي يمكن ان يصـــيب كتابة تاريخنـــا القومي ، لو اعتمدنا مثل هذه الاستنتاجات المتحاملة ، التي لا يتحكم فيهـــا

---

(٤٠) انظر : سالم ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ ؛ ابراهيم بيضون ، الدولـــة العربية في اسبانيا ، دار النهضة العربية ، بـــيروت ، ١٩٧٨ ، ص ٨٩ عنان ، المرجع السابق ، ق١ ، ص ٧١ .

(٤١) انظر : طه ، الفتح والاستقرار ، ص ٢٧١ .

سوى هوى المؤلف ، ورغبته في اظهار العرب بمظهر التخلف ، والخـــلاف ، وعدم الانصاف . ان الدس في هذه الاستنتاجات واضح بين ، لا يحتــاج الا الى قلم المؤرخ العربي المؤمن الواعي ، ليرد عليه ، ويفنده ، ويبين مقاصـــده ، واغراضه الدفينة ، معتمدا على النصـــوص التي تقدمها المصادر الاصـــلية ، واضعا نصب عينيه الاهداف السامية للتاريخ القومي لهذه الامة .

تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية
١٨٣٩ – ١٩١٨

الدكتور عصمت برهان الدين عبدالقادر
كلية الاداب – جامعة الموصل

الملخص

بعد أن فتحت الدولة العثمانية ابوابها للعرب المسلمين واليهود الهاربين من الاندلس بعد ان احتلها الاسبان ، بدأ اليهود بالتغلغل في مفاصل الدولة ومن ثم عملوا بعد ذلك على نشر مبادىء الحركة الماسونية وتأسيس محافل ماسونية ضموا اليها اعداد من المعارضين لحكم السلاطين من مختلف الاديان والقوميات المؤتلفة داخل الدولة العثمانية ، وسعوا الى تحطيم الدولة العثمانية، وذلك عن طريق اغراق الدولة العثمانية بالقروض والديوان ، وعن طريق كسب زعماء وقادة جمعية الاتحاد والترقي الى الحركة الماسونية وفتح ابواب المحافل الماسونية لعقد اجتماعات الجمعية وتوفير الحماية لها بالتعاون مع بعض الدول الاجنبية من خلال سفاراتها في الدولة العثمانية ، فعمل قادة الجمعية من الماسونيين على تنفيذ تعاليم الماسونية وزجوا بالدولة العثمانية في اتون الحرب العالمية الاولى والتي ادت الى تحطيمها ومن ثم انهيارها .

تمهيـــد :

تعد الماسونية[١] من أقدم الحركات السرية في العالم وأكثرها غموضـــا ، فهي إطار يضم الممارسات والمعتقدات التي يؤمن بها الماسونيون ، وذلك مـــن خلال رموز تشير الى فن البناء . وهـــذه المعتقدات تكون عـــادة ســـرية .
والحقيقة ان هذه الحركة مازالت سرا محيرا لم تفك كل رموزه بعد ، علـــى الرغم من المحاولات الجادة لبعض المفكرين والمؤرخـــين والباحثين ، الا ان الشيء الاكيد والمعروف عن هذه الحركة هو إرتباطها العضـــوي باليهـــود والحركة الصهيونية .

إن تاريخ نشوء الماسونية او جمعية البنائين الأحرار كما تسمى ايضـــا غير معروف بصورة واضـــحة حتى الآن ، حيـــث يختلف الباحثون في اصـــل الماسونية وتاريخها ، فقد غالى بعض دعاة الماسونية في اصل نشأتها ، فزعمـــوا ان الله سبحانه وتعالى هو مؤسسها الأول عند بدء الخليقة ، بينما زعم آخرون ان سيدنا آدم عليه السلام هو الـــذي انشأها بعد طرده من الجنـــة مباشرة ،

---

(١) جاء كلمة الماسونية من كلمة (Mason) التي تعني البناء او المعمـــار ، ويضـــاف اليها كلمة (Free) بمعنى حـــر فأصبحت البنـــاء الحـــر (Free Mason) . ولهذه الجمعية معابد، انها وطقوسها ، وتسمى فروعها المحلية (المحافل) وعليا درجات اعلاها (٣٣) وهي درجة الاستاذية . وهي منظمة يهودية ذات اهداف تخريبية تسعى السيطرة على العالم للتفاصيل انظر : العمران (جريدة) ، العدد ٣٧٦ ، ج٤٦ ، م١ ، ٢٢ آب (١٩٠٨) ، صابر طعيمه : الماسونية ذلك العالم المجهول (بيروت : دار الجبل . د.ت)

وهناك من نسبها الى جمعية ايزيس المصرية السرية ، كما يرجعها بعضهم الى عهد سيدنا موسى (عليه السلام) الذي نقل الاسرار المصرية الى الهنود ، ثم انتقلت الى الرومان وعدّوها المحفل الماسوني الاول ، وذهب بعضهم الآخر الى انها شيدت يوم بنى سيدنا سليمان (عليه السلام) هيكله المشهور عام (١٠١٢) ق٠م ــ وهو المحفل ــ الماسوني الثاني ، كما عد هيكل بطلهم (زرو بابل) المحفل الثالث ٠ وهناك من يقول انها تأسست تحت اسم (القوة الخفية) في الاعوام (٣٧ــ٤٤م) اسسها الملك هيرودوس اكريبا وحيرام ابيود (مبتكر الفكرة) وسمى هؤلاء محفلهم باسم اورشليم الا ان اول ظهور للماسونية بشكلها المعروف اليوم كان في مدينة ايكوسيا بأسكتلندا[٢]٠

في عام (١٧١٧) كان هناك ثلاثة من اقطاب اليهود يحتفظون بنسخة من مبادىء هذه الجمعية واهدافها وطقوسها ويجوبون العالم لغرض إعادة إنشاء واحياء الماسونية ، ثم قصدوا لندن التي يكثر فيها اليهود ، وقرروا تجديد نشاطها واستبدلوا الرموز القديمة باصطلاحات جديدة وقرروا تبديل تسمية الهيكل بالمحفل وتبديل اسم القوة الخفية الى البنائين الاحرار او الماسونية

(٢) شاهين بك مكاريوس ، الحقائق الاصلية في تاريخ الماسونية ، (مصر : مطبعة المقتطف ، ١٨٩٧) ، ص ٧ــ١٤ ؛ عوض الخوري ، تبديد الظلام او اصل الماسونية ، تحقيق وتقديم أبو صادق ، (بغداد : دار منشورات البصري ، ١٩٦٥) ، ص ٨٠ ؛ داؤد عبد الغفور سنقرط ، ابناء يهوذا في الخفاء ، القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية ، ج٢ ، (الاردن / عمان: دار الفرقان ، ١٩٨٣) ، ص ٧ــ٩ .

ووضعوا لهـا بعض المبادىء البراقة[٣] . ويبـدو ان الحركة الماسـونية والماسونيين يحاولون اضفاء هالة من الغموض حول قدم وأصل الماسـونية لاعطائها هيبة ورهبة في نفوس الاخرين .

عاشت الماسونية عصرها الذهبي في الغرب منذ ركوبها موجة التطـور البرجوازي في بداية عصر النهضة الصناعية في اوربا وتحولها الى احـدى عناصر هذه الطبقة الجديدة لتأخذ عناصرها الطفيلية حيزا كبيرا الى نشـاطها البرجوازي الاقتصادي وبناءها السياسي ــ الدولة ــ وبعـد ان اسـتطاعت ترسيخ نفسها في بريطانيا اولا إمتد وجودها في اغلب البلدان الاوربية ، وكان لابد للدول الرأسمالية قبل ان تلجأ الى الغزو العسكري بتهيئة الظـروف لها ، وخلق مناخ مناسب ودراسة اوضاع هذه المناطق من النواحي السياسـية والفكرية والاقتصادية ، والعمل من خلال احـداث تغيير نوعي في ميـزان القوى العالمية لصالحها وكانت الماسونية احدى الادوات التي اسـتطاعت بفعل نشاطها وفعالياتها المبكرة في الشرق ان تهيىء للاستعماريين مثل هـذه الظروف وان تساهم في إحداث مثل هذا التغيير[٤].

اليهود والدولة العثمانية :

بعد قيام محاكم التفتيش في اسبانيا ، وانتشار عمليات الاضطهاد الديني للمسلمين واليهود عام (١٤٩٢) ، لجأ قسم من اليهود الى احد قباطنة القـوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط خير الدين باربروسا الذي كان له سطوة بحرية معروفة في البحر المتوسط في ذلك الوقت ، طالبين المساعدة ، فعمـل

(٣) رعد الحلي ، « الماسونية عين اسرائيل في كل بلد » ، الطليعة العربية ، العدد ٧٣ ، ١ تشرين الاول ١٩٨٤ ، ص ٢٤ .

(٤) مالك منصور ، حقائق عن الماسونية (بغـداد : دار الثـورة ١٩٧٣) ص ٧٢ ، ٧٩ .

بأرباروسا على تهريبهم الى ثغور الدولة العثمانية ، وكان بعض حاخامات اليهود في اوربا قد قدّموا طلبا للسلطات العثمانية للسماح لليهود بالهجرة الى الدولة العثمانية ، وقد اجيبوا الى طلبهم • وفي جميع المناطق التي فتحها العثمانيون ووجدوا يهودا مضطهدين عملوا على نقلهم الى الدولة العثمانية ليتوزعوا في مدن استانبول وادرنة وأزمير وسلانيك[٥]•

إن اليهود الاسبان ، كانوا يحملون معهم الى الدولة العثمانية رصيدا مهما ، وعلى الرغم من انهم خسروا ثرواتهم خلال الطرد • الا انهم لم يخسروا رصيدهم المهني والمصرفي ، اذ كانوا اصحاب مهن وذوي خبرة في صناعة الاسلحة ، فضلا عن معرفتهم باللغات الغربية وخبرتهم في شؤون المال[٦] • لذا فقد تمتعوا بالامان والاهتمام في ظل العثمانيين واتيح لهم تقلد وظائف مهمة ، ووسط هذا الجو من الامان بدأ اليهود حياتهم في الدولة العثمانية ، حيث عدّ القرن السادس عشر « الحقبة الذهبية » في تاريخ اليهود[٧]•

ومن هنا بدأ تغلغل اليهود في المرافق التجارية والصناعية ، حيث اخذوا يمتلكون المحلات الكبيرة في أزمير وسلانيك وحتى في استانبول نفسها ، وقد حاول اليهود استغلال كل كبيرة وصغيرة بغية الوصول الى غاياتهم ، ومع تزايد الهجرة وبأعداد كبيرة منذ القرن السادس عشر بدأوا بالانتشار في مدن الدولة العثمانية : استانبول ، انقرة ، ادرنة ، جناق قلعة ، ازمير ،

---

(٥) د. احمد نوري النعيمي اليهود في الدولة العثمانية ، (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٩٠) ، ص ٢٥ ؛ جواد رفعت اتلخان ، الخطر المحيط بالاسلام ، ترجمة وهبي عز الدين ، (بغداد : ١٩٦٥) ، ص ٩٥ .

(٦) عزة جلال هاشم « الاقلية اليهودية في تركيا » ، السياسة الدولية ، العدد ٣١ القاهرة (يناير ١٩٩٨) ، ص ١٩١ .

(٧) اسماعيل صبحي ، سالنامة ثروت فتون ، او حبجي سنة ، استانبول (١٣٢٨) ، ص ١٦٨-١٦٩ ؛ هاشم ، المرجع السابق ، ص ١٩١ .

بورصة ، غازي عينتاب ، الاسكندرون ، مرسيين وغيرها[8] • ومن ثم امتد نفوذ اليهود وتغلغل في قصور السلاطين ليمتد بعد ذلك الى التدخل في سياسة الدولة العثمانية من خلال حبك المؤامرات والاقتصاد والنساء •

جذور الماسونية في الدولة العثمانية :

ان وجود اليهود والدونمة (المرتدون) في الدولة العثمانية يسَّر كثيراً انتشار المحافل الماسونية فيها ، فقد اسس اتباع شبتاي ليفي (١٦٢٦ — ١٦٧٦) اول محفل ماسوني في عام (١٦٧٥) ، والذي اصبح مصدر جميع المحافل الماسونية في الدولة العثمانية[9] • وفي عام (١٦٨٣) انشأ يهود سلانيك اول محفل ماسوني لهم فيها[10]•

ابتداءً من القرن الثامن عشر اخذت وجهة الاصلاح في الدولة العثمانية تتجه نحو اقامته على نمط اوربي مع المحافظة على الاصول العثمانية الاسلامية، وقد تمت اولى هذه المحاولات في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣—١٧٣٠)

---

(٨) سنقرط ، المرجع السابق ، ص ١٣١ ، النعيمي ، المرجع السابق ، ص٧، ومن الجدير بالذكر ان عدد اليهود في الدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية عام (١٤٥٣)م كان لا يتجاوز (٥٠٠) نسمة ، وخلال عمليات الطرد من اسبانيا عام (١٤٥٢) قدم حوالي (١٠٠) الف يهودي ، انظر : هاشم ، المرجع السابق ، ص ١٩١ ، النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٩) في عهد السلطان محمد الرابع ادعى اليهودي شبتاي سيفي (محمد عبدالعزيز البواب) انه المسيح المنتظر ، انه اضطر تحت تهديد الموت الى اشهار اسلامه ظاهريا وطلب من اتباعه اشهار اسلامهم على ان يمارسوا طقوسهم اليهودية في السر واطلق على هؤلاء اسم الدونمة (المرتدون) او العائدون ، لمزيد من التفاصيل انظر : مصطفى طوران ، يهود الدونمة ، ترجمة كمال خوجة ، (تونس : دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣) ؛ داؤد عبدالعفو سنقرط ابناء يهوذا في الخفاء ، اليهود في الوطن العربي ، ج٥ ، (الاردن / عمان : دار الفرقان ، ١٩٨٣) .

(١٠) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ ؛ سنقرط ، ج٢ ص ١٢٩ .

والصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا (١٧١٧ـ١٧٣٠) الى جانب مجموعة من الموظفين والمثقفين العثمانيين الذين ارادوا مزج الثقافة العثمانية الاسلامية بالثقافة الاوربية واقامة علاقات اوسع مع دول اوربا[١١] . وكانت النتيجة ظهور مجموعات جديدة ذات اتجاه علماني ، فكان ان تغلغلت الماسونية ضمن المفاهيم الجديدة ولتعمل على تأسيس اول محفل ماسوني في استانبول عام (١٧١٧م) والذي ارتبط بالمحفل الفرنسي (المشرق الاعظم الفرنسي) وكان الصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا قد رأى في الماسونية تجديدا في الافكار والاراء فانتسب اليها[١٢] . وقد عمل على تشجيع فكرة ارسال سفراء عثمانيين الى العواصم الاوربية للاطلاع عن كثب على منجزات المدنية الغربية ، وتقديم التقارير المتضمنة مشاهداتهم لانتقاء واقتباس ما يصلح لحياة الشرق ، وكان محمد چلبي الذي ارسل الى فرنسا عام (١٧٢٠) قد قدم بعد عودته منها تقريرا الى السلطان احمد الثالث بيّن فيه مدى التقدم الحاصل في اوربا في مختلف مناحي الحياة ، ثم شرح ما رآه للصدر الاعظم الذي عمل بدوره على حث السلطان للاخذ بمظاهر التقدم الذي اخذت به اوربا[١٣] . كما استطاع محمد چلبي وابراهيم متفرقة (١٦٧٤ـ١٧٤٥) وكانا من اوائل المنتسبين الى المحفل الماسوني في استانبول من إدخال اول مطبعة رسمية الى الدولة العثمانية على الرغم من معارضة شيخ الاسلام الذي حرم طبع القرآن الكريم والاحاديث

---

(١١) احمد فهد بركات الشوابكة ، حركة الجامعة الاسلامية ، ط١ ، (الاردن / الزرقا : مكتبة المنار ، ١٩٨٤) ، ص ٣١ .

(١٢) Tark Zafer Tunaya , Turkkige'de siyasal Partiler, cilt, 1, Ikinci mesrutiyet Dönemi 1908-1918. (Istanbul : 1988), S, 381 ;

النعيمي ، المرجع السابق ١٨٣

(١٣) الشوابكة ، المرجع السابق ص ٣١ .

الشريفة والمؤلفات الدينية والقانونية والتعليق عليها وطبع ما دون ذلك من المؤلفات(١٤).

أنتعشت الماسونية في اول عهد السلطان محمود الاول (١٧٣٠–١٧٥٤)، الذي قرر استقدام مستشار اوربي للشؤون العسكرية هو النبيل الفرنسي كلودر الكسندر الكونت دي بونفال (١٦٧٥–١٧٤٧)، الذي اشهر اسلامه وتسمى باسم احمد وكان في الوقت نفسه منتسبا للماسونية، وقد عهد السلطان اليه احياء فرقة قاذفي القنابل (الخمبرجية) التي كانت قد اضمحلت منذ فترة. وقد عمل على اجراء اصلاحات عديدة ذات طابع عسكري واصبح له نفوذه في الدولة العثمانية(١٥). وفي عام (١٧٣٨) أسس محفلا ماسونيا في جزيرة كورفو إلا انه لم يستمر لفترة طويلة(١٦).

شعر السلطان محمود الاول بخطر الحركة الماسونية وانتشار سطوتها، فعمل على مناهضتها منذ عام (١٧٤٨)، حيث اصدر امرا بأن تحيط الشرطة بالمحافل الماسونية وتعمل على طرد منتسبيها واقفال مقراتهم، إلا ان الماسونيين وجدوا الحماية لدى السفارة البريطانية في استانبول حيث تدخل السفير البريطاني في الامر، فكان ان اصر الباب العالي على توقف هذه المحافل عن العمل وان لا تؤازر الدول الاجنبية الجمعيات السرية ولاسيما المحافل الماسونية، كما صدرت قوانين تمنع على العثمانيين الانتساب الى الجمعيات

---

(١٤) **Izzet Nuri Gun, yalcin ceLiker, MasoLuk ve MasonLar, isimler, belgeLer, , (Istanbul : 1968), S, 18 ;**

احمد عبدالرحيم مصطفى، في اصول التاريخ العثماني، ط١، (بيروت / القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢، ص ١٦٠–١٦١.

(١٥) **Tunaya, A.G.E,S, 381 ; Nuri Gun, A.G.E,S,**

مصطفى، المرجع السابق، ١٦١–١٦٢.

(١٦) لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون، تقديم وتحقيق ابو صادق، (بغداد: دار البصري، ١٩٦٥) ص ٣٢٤.

السرية[١٧] . على اثر ذلك اصاب الضعف نشاط الحركة الماسونية الــذي استمر في الخفوت في عهدي السلطانين مصطفى الثالث (١٧٥٧ـــ١٧٧٤) وعبدالحميد الاول (١٧٧٤ـــ١٧٨٩) ، إلا ان ذلك لم يمنعها من تأسيس بعض المحافل في استانبول ، كعالم يمنعها من إثارة القلاقل والصعوبات للدولــة العثمانية وفي الولايات العربية التابعة لها[١٨].

وحينما تولى عرش آل عثمان السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ـــ١٨٠٧) اعجب السلطان بشعارات الثورة الفرنسية ، وقد دُوّن في عهده كتابا عـــن الماسونية يشير الى ان السلطان سليم الثالث اصبح ماسونيا وان «... الاحكام التي تتعلق بذاته فانه غير مبال بالاسلام ، وكان يعتنق الماسونية التي تعتبـــر عقيدة الزنادقة ... » لذا انتعشت الحركة الماسونية في عهده واســـتعادت بعض نشاطها السابق[١٩] . كما تم تأسيس اول محفل ماسوني في الوطـــن العربي عام (١٧٩٨) في مصر بعد الاحتلال الفرنسي ، وكان قد رافق عمليــة الغزو عدد من الفرنسيين الماسونيين وعلى رأسهم الجنرال كليبر الذي اســس المحفل المذكور واطلق عليه اسم ايزيس[٢٠].

في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ـــ١٨٣٩) اعيد انشاء محفل جزيرة كورفو تحت اسم (فيثاغورس) وبرعاية (المشرق الاعظم الانكليزي) ثـــم

---

(١٧) **Bernard Lewis, The Emergence of modern Turkey, (London : oxford university, 1968), P, 212, Tunaya , A.G.E. S, 381 ;**
شيخو ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(١٨) عماد عبدالسلام رؤوف ، الموصل في العهد العثماني ، فترة الحكم المحلي (١٧٢٦ـــ١٨٣٤) ، (النجف : مطبعة الاداب ، ١٩٧٥) ، ص ٤١٢ـــ٤١٣
Nuri Gun, A. G. E, S, 18 ;

(١٩) **Tunaya, A. G. E, S, 18 ; Nuri Gun, A. G. E, S, 318 .**

(٢٠) عبدالله التل ، الافعى اليهودية في معاقل الاسلام ، (بيروت : دار الارشاد ، ١٩٧١) ، ص ١٣ ، منصور ، المرجع السابق ، ص ٨١ .

تأسست محافل اخرى في استانبول وأزمير وغيرها ، بعضها تابع للمشرق الاعظم الانكليزي وآخر تابع للمشرق الاعظم الفرنسي وقسم آخر للمشرق الاعظم الايطالي[٢١] • وفي عام (١٨٣٨) تم انشاء محفل ايطالي في الاسكندرية بمصر باسم محفل (مينيس) نسبة الى مين ملك مصر[٢٢] •

انتشار الماسونية في عهد التنظيمات :

شهد عهد السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩-١٨٦١) نشاطا كبيرا للحركة الاصلاحية التي عرفت باسم (التنظيمات) وفور تسلمه العرش اصدر مرسوم (شريف كولخانة) يحتوي على بعض القوانين المقتبسة من الغرب ، وقد اريد من التنظيمات ان تكون القنطرة التي تعبر عليها الدولة العثمانية مشرقيتها الاسلامية الى غربيتها العلمانية والتي ترسخت فيما بعد كدولة علمانية ، ومع تنامي حركة الاقتباس بدأت افكار ونظم وقوانين غربية علمانية بالانتقال الى التطبيق العملي في الدولة العثمانية على حساب القوانين والاعراف والاخلاقيات التي تنبع (معظمها) من الشريعة الاسلامية •

في بداية عهد السلطان عبدالمجيد خفت النشاط الماسوني في العاصمة (استانبول) الا انه امتد الى الولايات العربية ، حيث أسس اول محفل ماسوني في ولاية البصرة عام (١٨٣٩) ، وفي عام (١٨٤٥) تأسس محفل جديد بالاسكندرية تحت اسم محفل (الاهرام) ، كما تأسس فيها محفل ايطالي عام (١٨٤٩)[٢٣] •

---

(٢١) شيخو ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٢٢) احمد علوش ، الجمعية الماسونية حقائقها وخفاياها ، (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦) ، ص ١٢٢ ؛ منصور ، المرجع السابق ص ٨١ .

(٢٣) ابو صادق ، الماسونية بلا قناع (بغداد : منشورات دار البصري ، ١٩٦٧)، ص ٥ ؛ غلوش ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٤

Nuri Gun, A. G. E, S, 18 ;

استفادت الحركة الماسونية من الظروف التي اوجدتها حرب القرم (١٨٥٣ـ١٨٥٦) ، لاسيما بعد اصدار مرسوم (خط همايون) عام (١٨٥٦) ، الذي تظهر في بعض فقراته عملية الاندماج في الغرب ، وقد كانت صيغته اكثر عصرية واكثر اقتباسا عن الغرب وبصورة لم تعهد من قبل في الوثائق العثمانية، فهو لم يستشهد بآية قرآنية واحدة او بقوانين الدولة القديمة وامجادها ، كما اكد من جديد تطبيق الخدمة العسكرية على المسلمين وغيرهم كما والحقت به مذكرة تؤكد من جديد الامر الصادر عام (١٨٤٤) . والخاص بعدم تطبيق عقوبة الاعدام على المرتدين عن الاسلام ، والعمل على مساواة الجميع مهما كانت اديانهم ومذاهبهم[٢٤] . كما ان معاهدة عام (١٨٥٦) التي عقدت بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية منحت اليهود حرية العمل لتستفيد منها الحركة الماسونية في ممارسة عملها دون خوف .

تزايد النفوذ البريطاني والفرنسي بعد وقوفهما الى جانب الدولة العثمانية في حرب القرم ، واستفاد الماسونيون ، من ذلك ، حيث قام اللورد رادينغ سفير بريطانيا في استانبول ، بتأسيس محفل (أسكوج) قرب غلطة ، كما افتتح السفير الفرنسي في استانبول محفل (الشرق الاعظم) فضلا عن افتتاح محفل ماسوني فرنسي آخر في منطقة بك اوغلي ، وفي هذا العهد اصبح كل من رشيد باشا وفؤاد باشا وعلي باشا واحمد وفيق باشا ونامق كمال وضياء باشا وشناسي ومدحت باشا اعضاء في المحفل الانكليزي ، واصبح رشيد باشا مسؤولا اداريا في محفل (اسكوج) وبعد انتقال اللورد رادينغ حل محله السير هنري بولفور الذي كان حريصا على متابعة النشاط الماسوني وديمومته في العاصمة العثمانية استانبول[٢٥] . وهنا يمكن تسجيل ملاحظة مهمة عن

---

(٢٤) مصطفى ، المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢٥) Tunaya, A. G. E, S, 18; Nuri Gun, A. G. E, S, 18-19.

المدى الذي استطاعت الحركة الماسونية الوصول اليه من خلال استغلال الدول الاجنبية ونفوذها وسياستها ، وتهيئة هؤلاء لخدمة اهدافها ، واذا ما علمنا ان رشيد باشا ومدحت باشا وغيرهما ، تقلدوا فيما بعد منصب الصدارة العظمى فأننا سندرك مدى هيمنة المحافل الماسونية ولاسيما الانكليزية على الباب العالي وفي توجيه السياسة العامة للدولة العثمانية ، هذا بالاضافة الى ان مقرات السفارات الاجنبية في استانبول اصبحت بمثابة بؤر لتأسيس محافل جديدة وفرض حمايتها على الماسونيين •

اتصف عهد السلطان عبدالعزيز (١٨٦١-١٨٧٦) بعدة صفات منها :

تنظيم الدولة على الصعيد الداخلي ، وإصدار بعض القوانين الاصلاحية ، واصلاحات على الجانب العسكري وكذلك التقدم والرقي على الصعيد الفكري ، الا انه في الوقت نفسه وصلت خزينة الدولة الى هاوية الافلاس نتيجة التبذير والاسراف كما إتصف عهده ايضا بالتضيق على حرية النقد الناجمة عن التقدم الفكري في اواسط المثقفين العثمانيين المتأثرين بالثقافة الغربية، مما اضطر هؤلاء الى الهجرة الى لندن وباريس وجنيف وتحولوا من النقد الى التحريض على الثورة ، واخذوا يرسلون مقالاتهم عن طريق دور البريد الاجنبية التي تتمتع بالحصانة ، وكان على رأس هؤلاء ابراهيم شناسي الذي يعد اول اديب يعتنق الماسونية ، ومثله كان ضياء كوك ألب امين عام القصر السلطاني قبل هربه الى اوربا وكان متأثرا بعالم الاجتماع اليهودي (دوركهايم) وكان يترجم كتب الاديب الماسوني الفرنسي اميل زولا ، وكذلك ضياء باشا ونامق كمال ، وكان هؤلاء قد انشأوا جمعية سرية في باريس عام (١٨٦٥) واطلق عليها اسم العثمانيين الجدد عام (١٨٦٧)[٢٦]•

---

(٢٦) موفق بني المرجة ، صحوة الرجل المريض او السلطان عبدالحميد الثاني والجامعة الاسلامية ، (الكويت : مطابع دار الكويت للصحافة ، ١٩٨٤) ، ص ١٨٨-١٨٩ ؛ Lewis, OP. Cit, P, 130-131 .

وعلى الرغم من التضييق الذي مورس ضد المثقفين ، إلا ان عناصر الحركة الماسونية استطاعت تأسيس عدة محافل في استانبول منها محافل انكليزية وفرنسية والمانية وقد ضمت عددا من الارمن واليونانيين واليهود والمسلمين[٢٧] . كما انتشر العديد من المحافل الماسونية في العديد من الولايات العثمانية ومنها الولايات العربية مصر وبلاد الشام وانضم اليها بعض المثقفين العرب سواء كان الذين آمنوا بمبادئها او الذين انبهروا بها او الذين خدعوا بها او من انتموا لمجرد إشباع غريزة الفضول[٢٨] .

ساهمت المحافل الماسونية ولاسيما في استانبول في محاولات خلع السلطان عبدالعزيز ، وكان على رأس المتآمرين حسين عوني باشا (وهو من يهود الدونمة) وكان صدرا اعظم سابقا ووزيرا للحربية ، والصدر الاعظم مدحت باشا ، والصدر الاعظم رشيد باشا وشيخ الاسلام خير الله افندي[٢٩] .

ومن اجل ضمان نجاح عملية الخلع عمل المتآمرون الكبار على ضم كبار الشخصيات العثمانية ، ومنهم ولي العهد الامير مراد الذي كان ماسونيا متحلقا بأفكار الثورة الفرنسية متأثرا بذلك بصديقه الشاعر نامق كمال ، وكان ميالا

---

(٢٧) Nuri Gun, A. G. E, S, 19 ; Tunaya, A. G. E, S, 382

(٢٨) للتفاصيل انظر : حسين عمر حمادة ، شهادات ماسسونية ، ط٢ ، (دمشق : دار قتيبة ، ١٩٨٣) ؛ وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية/ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠ــ١٩٢٠) ، (بيروت : معهد الانماء العربي ، ١٩٧٦) ص ١٢٦ــ١٤٣ ؛ شيخو ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ــ١٠٦ ، منصور ، المرجع السابق ، ص ٨١ــ٨٣ ؛ بني المرجه ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ــ٣٤١ .

(٢٩) احمد صائب بك ، واقعة السلطان عبدالعزيز ، تعريب محمد توفيق جانا ، ط٢ ، (بيروت : مطبعة الاقتصاد ، ١٩١١) ، ص ١٦٨ــ١٦٩ ، ٢٥٤ــ٢٥٧ .

; Tunaya, A. G. E, S, 382 ;
T. yiLmaz oztuna, Tarkiy turihi, cilt 12, (Istanbul, 1967) S, 58-59).

الى حياة العبث والمجون ، وارتبط بصداقة مع ولي عهد بريطانيا الامير إدوارد الذي استطاع ان يضمه الى الماسونية وزوده برسالة لاستاذ المحفل الماسوني (اسكوج) في استانبول يوصي بقبوله في محفل (المشرق الاعظم الانكليزي) وبعد ضمه الى عصبة المتآمرين اخذ يحضر الاجتماعات السرية معهم في بيت مدام (فلوري)[٣٠] .

من اجل تهيئة الاجواء الدولية ، استغل حسين عوني باشا سياحته في فرنسا لاجراء عدد من الاتصالات السرية مع كبار السياسيين والعسكريين الفرنسيين كما اجرى لقاء مع رئيس لجمهورية الفرنسية (ماك ماهون) للتباحث حول موضوع خلع السلطان عبدالعزيز ، وفي الوقت نفسه كان مدحت باشا يجري اتصالا سريا مع السفير البريطاني في استانبول هنري اليوت حول الموضوع نفسه[٣١] . وبما ان السلطان عبدالعزيز كان على علاقة طيبة مع الروس من خلال الصدر الاعظم السابق محمود نديم باشا صديق الروس الحميم ، لذا فان عملية خلع السلطان عبدالعزيز لن تثير عدوتيها التقليديتين فرنسا وبريطانيا بل ستكون موضع ترحيب .

بعد ان هيأ المتآمرون الاوضاع محليا ودوليا ، تمت عملية خلع السلطان عبدالعزيز بهدوء ونصب الامير مراد سلطانا على عرش آل عثمان تحت اسم مراد الخامس ، الا ان السلطان الجديد لم يهنأ بمنصبه اذ ما لبث ان ظهرت عليه امارات مرض عقلي استوجبت عزله وتنصيب الامير عبدالحميد محله تحت

---

(٣٠) **Nuri Gun, A. G. E, S, 20 ; oztuna, A. G. E, S, 62.**

(٣١) اورخان محمد علي ، السلطان عبدالحميد الثاني ، حياته واحداث عهده (الانبار : دار الانبار ، ١٩٨٧) ، ص ٦٦–٦٨ .

(٣٢) لمزيد من التفاصيل ، انظر ، حسين حفظي ، سلطان مراد وبسبب خلعي (باب عالي جادة سندة ، ٢٨ نومرولي مطبعة ده طبع أولنمشدر ١٣٢٦ ، ص ٤–١٥ ؛ صائب بك ، المصدر السابق ، ص ٢٤٤–٢٧٢ .

اسم السلطان عبدالحميد الثاني[٣٢] • ليبدأ التاريخ العثماني مرحلة جديدة وحاسمة •

كان الموقف الرسمي للدولة العثمانية تجاه اليهود وديا حيث عوملوا معاملة طيبة وعادلة وتمتعوا بقدر كبير من الاستقلال في إدارة شؤونهم ، إلا ان مطامع التي استهدفت الاستيلاء على فلسطين وإقامة « دولة يهودية » عن طريق حث اليهود في مختلف انحاء العالم على الهجرة اليها ، دفعت بالعثمانيين الى اتخاذ بعض الاجراءات ضدهم ؛ وما ان اعتلى السلطان عبدالحميد الثاني العرش عام (١٨٧٦) حتى عمد الى متابعة النشاط اليهودي في الدولة العثمانية عامة وفلسطين خاصة ، وكان يعلم نياتهم حيث يقول في مذكراته السياسية : « أن لليهود نفوذا في اوربا اكثر من نفوذهم في الشرق ، لهذا فأن دول اوربية كثيرة ارادت التخلص من اليهود ــ العرق السامي ــ وايدت هجرتهم الى فلسطين ، ولكن في دولتنا عددا كبيرا من اليهود ، فاذا كنا نريد ان يستمر العنصر العربي الاسلامي متوفقا في فلسطين يجب ان لا نسمح بتهجير اليهود اليها ، واذا كان الامر عكس ذلك وسمحنا لهم بالهجرة فانهم بفترة قصيرة يسيطرون على الحكم وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الاكيد »[٣٣] • وعمد السلطان عبدالحميد الثاني الى تعيين رؤوف باشا متصرفا للقدس عام (١٨٧٦) ، وكان معروفا بكفاءته ونزاهته ، وكان يرسل بين الحين والاخر مفارز لتعقب اليهود المقيمين في فلسطين بصورة غير مشروعة ويطردهم منها • بالرغم من ذلك فان اعداد اليهود المتسللين الى فلسطين كانت تزداد تدريجيا ، فبعد ان كان عددهم عام (١٨٨٠) (٢٢) الف يهودي اصبح عام ١٨٨٢ (٢٤) آلف يهودي ، واخذت

---

(٣٣) Sultan Abdulhamit, siyasihatratim, dergâh yaynLari, (IstanbuL), S, 76.

اعدادهم تزداد باضطراد ـ ولاسيما يهود روسيا ـ منذ عام (١٨٨٢) • وبهدف الحد من تدفق الهجرة اليهودية الى فلسطين فرض السلطان عبدالحميد الثاني قيودا على المهاجرين عام (١٨٨٢) • الا ان هذه القيود لم تطبق بسبب فساد الجهاز الاداري في فلسطين الذي كان يتحايل على تلك القيود وغيرها من الاجراءات الاخرى بالتعاون مع القناصل الاجانب لتسهل دخول المتسللين والمهاجرين الى فلسطين مقابل رشاوي من اليهود والقناصل الاجانب لاسيما قناصل روسيا والمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة ، علاوة على ذلك فان المهاجرين اليهود من رعايا الدول التي كانت تتمتع بامتيازات في الدولة العثمانية بموجب نظام الامتيازات الاجنبية ظلوا يتمتعون بهذه الامتيازات نظرا لعدم تخليهم عن جنسياتهم السابقة[٣٤]•

ازاء السياسة الصارمة للسلطان عبدالحميد الثاني ضد استيطان اليهود في فلسطين عمد ثيودور هرتزل ـ مؤسس الحركة الصهيونية فيما بعد ـ الى التمهيد لمقابلة السلطان عبدالحميد الثاني بغية الحصول على وعد بالسماح لليهود بالهجرة الى فلسطين مقابل دفع اموال طائلة لخزانة السلطان الخاصة وخزائن الدولة العثمانية ، وقد اجرت اتصالات عدة مع كبار رجال الدولة العثمانية منذ عام (١٨٩٣) ومن هؤلاء جاويد بك بن الصدر الاعظم وخليل رفعت ونوري بك سكرتير عام وزارة الخارجية العثمانية وعزت باشا العابد السكرتير الثاني للسلطان عبدالحميد الثاني ، فضلا عن توسيط مسؤولين واصدقاء اجانب[٣٥]•

---

(٣٤) عصمت برهان الدين عبدالقادر ، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني (١٩٠٨ـ١٩١٤) رسالة ماجستير غير منشورة (الموصل : جامعة الموصل ، ١٩٨٩) ، ص ٢٠٠ـ٢٠١ .

(٣٥) لمزيد من التفاصيل عن محاولات هرتزل ، انظر : ثيودر هرتزل ، يوميات هرتزل ، اعداد انيس صايغ ، ترجمة هيلدا شعبان صايغ ، ط٢ ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) .

في (١٨) أيار (١٩٠١) اثمرت تلك الاتصالات عن اجراء مقابلة مع السلطان وقد رافق هرتزل فيها حاخام اليهود في الدولة العثمانية موسى ليفي ، وعدد الاثنان إفضال السلطان عبدالحميد الثاني ورعايته لليهود ، كما تحدث هرتزل عن امكانيات اليهود المالية من اجل اعانة الدولة في ضائقتها المالية ، وطلب الاثنان منه السماح لليهود بالهجرة الى فلسطين[٣٦] • وكان السلطان مدركا لما يريده اليهود حيث يقول : « إن الصهيونية لا تريد اراضي زراعية في فلسطين لممارسة الزراعة فحسب ، ولكنها تريد ان تقيم حكومة ••• وانني اخبرهم ان عليهم ان يستبعدوا فكرة انشاء دولة في فلسطين لانني لازلت اكبر اعداءهم »[٣٧] • لذا كان رده على مطاليب هرتزل ووسطائه : « إنني لا استطيع ان اتخلى عن شبر واحد من الارض ، وهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد قاتل شعبي في سبيل هذه الارض ، ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم • اذا مزقت إمبراطوريتي فعلهم يستطيعون آنذاك ان يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، ولكن يجب ان يبدأ ذلك التمزيق اولا في جثتنا وانني لا استطيع الموافقة على تشريح اجسادنا ونحن على قيد الحياة »[٣٨] ؛ كما ان السلطان كان مستعدا لفتح ابواب الدولة امام هجرة اليهود ضمن سياسة تهجير خاصة على ان تستثنى فلسطين من الهجرة • ومن جانب اخر بذل السلطان جهده لابقاء يهود الدونمة في مدينة سلانيك • معقلهم الرئيسي وعدم إفساح المجال لمجيئهم الى العاصمة استانبول[٣٩]•

---

(٣٦) حسان علي حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الهجرة الصهيونية (١٨٩٧–١٩٠٩) ، ط٢ ، (بيروت : الدار الجامعية للطباعة والنشر ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٢–١٨٣ ؛ اتلخان ، المرجع السابق ، ص ١٢١–١٢٢ •

(٣٧) **Abdülhamit, A. G. E, S, 77.**

(٣٨) حلاق ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ •

(٣٩) هرتزل ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ ؛ اتلخان ، المرجع السابق ، ص٧٥–٧٦؛ **Abdülhamit, A. G. E, S, 59.**

بعد اعلان الدستور العثماني عام (١٨٧٦) ، ازدادت فعاليات الحركة الماسونية ونشاطها حيث تم تأسيس العديد من المحافل ، في استانبول ثم افتتاح محافل جديدة وقد تنوعت فمنها الفرنسية والانكليزية ولايطالية واليونانية ، وقد مارست جميعها نشاطات وفعاليات ، واكثر هذه الفعاليات كانت في الروملي وبلهسا وسلانيك ، وكانت الاخيرة مركز العمل الماسوني ، وكان السلطان عبدالحميد الثاني يعتقد أن الماسونيين يخدمون اهداف الانكليز والفرنسيين والارمن واليونان ، وان جميع النشاطات المعادية داخل الدولة العثمانية تغذى من قبل هذه الجماعات الموالية للاجانب ، وفعلا كانت محافل سلانيك وكوسوفو ومناستر تحت سيطرة الاجانب[٤٠].

كانت عينا السلطان عبدالحميد الثاني تراقبان النشاط الماسوني ، ولاسيما في استانبول لذا فان اول ضربة جدية وموجعة للماسونية كانت في عهده ، حيث شرع في ابعاد من يخشى خطره من السياسيين والمناصرين للماسونية وعلى رأسهم الصدر الاعظم مدحت باشا الذي قد وزع اعوانه في المراكز الحساسة في الدولة مثل ضياء باشا ونامق كمال ورشدي باشا ، وكان السلطان يعلم ان هؤلاء من الماسونيين و « أنهم داخلون في جمعيتها »[٤١] . لذا فانه عمل على تشتيتهم ولاسيما بعد عزل مدحت باشا من منصب الصدارة العظمى ، وابعد ضياء باشا سفيرا في برلين ، ونفى الاديب نامق كمال وعددا اخر من السياسيين خارج العاصمة استانبول[٤٢].

---

(٤٠) Nuri Gun, A. G. E, S, 21-23 ; Tunaya, A. G. E, S,383,

(٤١) Ismet Bozdag, AbluL hamidin hatira dafteri, yayina hazirLayan vesadeLest, Ren , (IstanbuL - 1925). S, 41.

(٤٢) Niyazi Berkes. The development of secuLarism in Turkey. (Canada : 1964). P, 104-105 .

شرع السلطان عبدالحميد الثاني بتعقب المحافل الماسونية واصدر اوامره المشددة بغلق جميع المحافل الماسونية في الاراضي العثمانية ، وفعلا تم غلق بعضها • ومع اعتبار فترة حكم السلطان عبدالحميد الثاني المظلمة للحركة الماسونية في الدولة العثمانية فان بعض المحافل الماسونية مارست نشاطها في منتهى السرية ، وقد كتب احد الماسونيين « ان مضايقات السراي للماسونيين كانت في استانبول اما الروملي ومقدونيا وبلهسا وسلانيك وما جاور هذه المناطق فقد كانت المحافل الماسونية تعمل بهمة ونشاط كبيرين »(٤٣)•

وقد يعزى ذلك الى ان السلطان عبدالحميد الثاني لم تكن في حوزته الامكانيات الكافية لمراقبة جميع النشاط الماسوني في جميع الاراضي العثمانية ومتابعة تنفيذ اوامره بدقة متناهية وعدم معرفة افراد الشرطة العثمانية وجهاز الجاسوسية (الخفية) قواعد هذه المحافل ووسائلها المتناهية السرية ، هذا فضلا عن امتلاك الحركة الماسونية لجميع الامكانيات المادية والمعنوية ووسائل الاغراء والتهديد والرشاوي لشراء الذمم وكسب الانصار •

بذلك الحركة الماسونية جهودا مضنية في سبيل مزاولة نشاطها في الدولة العثمانية ونجحت في تأسيس محافل عديدة في استانبول وازمير بعضها تابع للمشرق الاعظم الانكليزي واخر للفرنسيين وثالث للايطالي ، حتى اصبح عدد الماسونيين العثمانيين عام (١٨٨٢) نحو (١٠) آلاف شخص بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسؤولين ، وفي سنة (١٨٨٤) تم تأسيس محفل اعظم من لدن الماسوني (سافا باشا) وقد ارتبط هذا المحفل بالمحفل الايطالي الاعظم والمسمى محفل (ريزورتا) ، وكان لهذا المحفل والمحفل الاخر المسمى (فيرتاس) ، دور كبير في تفعيل وتنشيط الحركة الماسونية في الدولة العثمانية وخاصة في سلانيك ومقدونيا ، وكان يقود النشاط الماسوني في ذلك الوقت اليهودي الدونمي عمانوئيل قرەصو الذي كان يحمل درجة استاذ اعظم ،

---

(٤٣) **Nuri Gun, A. G. E, S, 22-25 ;**

وكان لمحافل سلانيك مميزاتها الخاصة ، حيث كان عدد اليهود فيها كبيرا ، كما انها مركز تجاري واسع مع الغرب ، اضافة الى الكثافة الاجنبية ، مما شمل فعاليات رجال الامن والشرطة العثمانية(٤٤).

في مايس (١٨٩٠) ، اجتمع (٤٥) شخصا من ممثلي الماسونية العثمانية ، وعملوا على تأسيس محفل ماسوني عثماني اطلقوا عليه اسم (المشرق الاعظم العثماني) وقد رشح لهذا المنصب الماسوني العثماني محمود اورفا باشا ، وبعد وقت قصير تم الاعتراف بالمحفل الجديد من الماسونية الفرنسية والايطالية(٤٥). ويعد هذا اول محفل ماسوني عثماني برئاسة محلية .

استمرت محاربة السلطان عبدالحميد الثاني للماسونية ومحافلها ، وكانت اوامره المشددة تمنع حتى مجرد الكتابة عن الماسونية او الاشارة اليها ، وكانت عينا الرقيب تتابع المطبوعات وتعمل على شطب ومنع اية كتابة عن الماسونية ومحافلها ونشاطاتها سواء في داخل الدولة العثمانية او خارجها .

حاول الماسونيين ارضاء السلطان عبدالحميد الثاني ليسمح لهم بتوسيع نشاطهم والسماح لليهود ببعض الامتيازات في فلسطين ، وقد قام الماسوني عمانوئيل قره‌صو مدفوعا من تيودور هرتزل والمحافل الماسونية بمقابلة السلطان عارضا عليه مبلغ (٥) ملايين ليرة ذهبية هدية له ، و(١٠٠) مليون ليرة ذهبية اخرى على شكل قروض بدون فائدة وعلى مدى (١٠٠) عام مقابل الامتيازات تلك ، الا ان السلطان غضب غضبا شديدا وامر بطرد قره‌صو ، فكان ان خرج قره‌صو الى باخرة اقلته الى ايطالية ومن على متنها ارسل برقية الى السلطان قال فيها : « رفضت عرضا سيكلفك ويكلف دولتك كثيرا » . وكان رد السلطان عام (١٨٩٢) بأصدار امر يقضي باغلاق المحافل ومنها محفل (فينيقية)

---

(٤٤) حلاق ، المرجع السابق ، ص ٢٩٠ ؛ محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧ ؛ **Nuri Gun, A. G. E, S, 23-24 ;**

(٤٥) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ .

في بيروت ، تحسبا لتغلغل النفوذ البريطاني عن طريق بلاد الشام ، لارتباطات هذا المحفل بالمحفل الماسوني الاكبر المصري الذي كان يسيطر عليه الماسون الانكليز ، الا ان ذلك لم يمنعهم من ممارسة نشاطهم بصورة سرية وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في الكهوف خارج بيروت حذرا من اكتشاف امرهم من السلطات العثمانية[٤٦].

في عام (١٨٩٤) عاد السلطان عبدالحميد الثاني ليجدد اوامره الصارمة باغلاق جميع المحافل التي عاودت نشاطها ما عدا محافل سلانيك لارتباطاتها الدولية والحماية الاجنبية المفروضة عليها ، ونظرا لخطورة الاوضاع والتحركات العلنية والسرية للمحافل الماسونية في سلانيك وسيطرة الماسونيين على مجالس اداراتها مما يسبب خطرا على الحكم العثماني ، اصدر السلطان اوامره عام (١٨٩٥) الى لجنة التفتيش في الروملي لزيادة اعضاء المجالس فيها[٤٧].

في عام (١٨٩٧) عقد المؤتمر الصهيوني الاول في بازل في سويسرا وتكشفت اهداف الحركة الصهيونية بشكل علني مما جعل الدولة العثمانية تأخذ حذرها ، وبعد عام (١٨٩٨) شنت الدولة العثمانية حملة جديدة ضد الماسونية ولاسيما بعد اخفاق وساطة الامبراطور الالماني غليوم في اثناء زيارته لاستانبول ، حيث رفض السلطان عبدالحميد الثاني اعطاء اليهود اي امتياز في فلسطين ، وكان اليهود والصهاينة والماسون يُكفّرون ويطاردون وتغلق الاوكار والمحافل اينما وجدت[٤٨].

---

(٤٦) شيخو ، المرجع السابق ، ص ١٧٨ ؛ سنقراط ، ج٢ ، ص ١٣٨ ؛ منصور ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٤٧) حلاق ، المرجع السابق ، ص ٢٩٠ .

(٤٨) ابو صادق ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢-٢٣٤ . ومن الجدير بالذكر ان اليهود الذين حضروا مؤتمر بازل في سويسرا عام (١٨٩٠) هم ممثلوا الماسونية ، ومما يؤكد ذلك ان الموقعين على البروتوكولات في نهاية البروتوكول (٢٤) وقعوا بالعبارة التالية «ممثلون صهيون من الدرجة ٣٣». انظر عجاج نويهض ، بروتوكولات حكماء صهيون ، م١ ، (بيروت : منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨٠) ص ٢٩٢ .

الحرب ضد السلطان :

عندما خاب امل اليهود والصهيونية والماسونية في الحصول على مايريدون من السلطان عبدالحميد الثاني ، اعلنوا الحرب ضده ، وكانت لديهم وسائلهم العديدة لهذه الحرب : المال ، والاقتصاد ، والاعلام •

شنت الصحافة اليهودية الصهيونية حملة عالمية مستعينة بثالثة الاثافي الماسونية العالمية ، استخدمت المحافل الماسونية في فرنسا وايطاليا لنشر الدعاية ضد السلطان عبدالحميد الثاني ، ولم تترك عيبا من عيوب الحكم الا والصقته بحكمه ، حتى اصبح بعرفهم رمزا للظلم والاستبداد والقسوة ، كما استخدموا اسلوب بث الاشاعات الكاذبة ، فقد اشاعوا وجود سوء تصرف وسرقات في مشروع سكة حديد الحجاز الذي ساهمت به الدول الاسلامية ، وان معظم الاموال حولت لخزانة السلطان ، مما جعل السلطان يأمر بتشكيل لجنة محايدة من خبراء اوربيين برئاسة جنرال الماني للتحقيق في تلك الاشاعات وبعد بضعة اشهر من تلك التحقيقات ظهر عدم وجود اي اساس لتلك الاشاعات(٤٩) • وبالتأكيد فان الحركة الماسونية والصهيونية شعرتا بخطر امتداد السكة الحديدية الى الحجاز مما يؤثر على مخططاتهم المستقبلية في فلسطين والوطن العربي •

لم يكتف الماسونيون ببث الدعايات والاشاعات ، بل عملوا على تأجيج نار الفتنة وأثارة العصبيات والاثنيات ونبش الماضي وتحميل العثمانيين اوزار احداث فتنة لبنان عام (١٨٦٠) ، واثارة احداث بلغاريا من جديد(٥٠)• ولاسميا ان السلطان عبدالحميد الثاني كان يواجه ظروفا صعبة مثل التدخلات الاجنبية

---

(٤٩) التل ، المرجع السابق ، ص ٧٨ ؛ اتلخان ، المرجع السابق ، ص ١٢٧-١٢٩

(٥٠) زياد ابو غنيمة ، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الاتراك ، ط١ ، (الاردن / عمان : دار الفرقان ، ١٩٨٣) ، ص ٤٧-٥٢ ؛ هاشم ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ •

بحجة حماية الاقليات ، وانبعاث المشاعر القومية التي حاول السلطان احتواءها عن طريق رفع شعار « الجامعة الاسلامية » كبودقة تجمع مختلف قوميـــات الدولة العثمانية .

في عام (١٨٨٩) شكلت جماعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية في استانبول منظمة سرية هدفها عزل السلطان عبدالحميد الثاني ، وكان وراء هذه المنظمة رجل ماسوني الباني يدعى ابراهيم تيمو (ادهم) ، وكان قـــد توقف عام (١٨٨٨) في نابولي وبرنديزي وهو في طريقه الى بلده البانيا ، وزار خلال اقامته هناك محفلا ماسونيا مع احد اصـــدقائه وتعرف هنـــاك على دور جمعية الكاربوناري (الفحامين) في تاريخ ايطاليا[٥١] . وقد انتقلت جمعيـــة الاتحاد والترقي التي اسسها سلانيك ، وهناك التقت مصالح يهود الدونمـــة والحركة الماسونية والجمعية المذكورة لازاحة السلطان عبدالحميد الثاني عـــن الحكم ، وفيها توثقت العلاقات بين ضباط الجيش الثالث وبين المحافل الماسونية المنتشرة هناك[٥٢] .

---

(٥١) آرنست رامزور ، تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ترجمة احمد صالح العلي ، (بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٠) ، ص ٥٠ . ومن الجدير بالذكـــر ان معظم قادة جمعية الاتحاد والترقي من اصول غير تركية ، فأنور باشا ابن لرجل بولندي ، وطلعت باشا من مسلمي الغجر البلغاريين ، واحمـــد رضا من اب تركي وام مجرية ، وابراهيم تيمو الباني ، وجاويد بـــك ونسيم ماز لياح من يهود الدونمة ، وجميع هؤلاء من الماسون . انظـــر : جواد رفعت اتلخان اسرار الماسونية ، ترجمة نور الدين الو عنف المحامي ، سليمان محمد امين القابلي ، (الدوحة مؤسسة دار العلوم للطباعـــة والنشر والتوزيع ، د.ت) ص ٥٩ ؛

Lewis, oP, cit, P, 212 ; Berkes, oP Cit, P, 305 ;

(٥٢) جون هاسلب ، السلطان الاحمر عبدالحميد ، تعريب فيليب عطـا الله ، (بيروت : دار الروائع الجديدة ، ١٩٤٧ ، ص ٢٩٧

Berkes, oP. Cit, P, 305 ;

تلاحمت الجهـود الداخلية والخارجيـة بغية التخلـص من السـلطان عبدالحميد الثاني ، وعليه فقد قرر محفل (المشرق الاعظم) الماسـوني خلـع السلطان بداية عام (١٩٠٠) ، وبدأ يجذب جمعية الاتحاد والترقي منذ بدايتها ، وقد رحبت المحافل الماسونية القديمة في سلانيك بالفكرة ، ويعود الفضـل في جذب عناصر الجمعية الماسونية الى عمانوئيل قرهصو الاستاذ الاعظم لمحافـل سلانيك[٥٣] . وعليه فقد عقدت الجمعية اجتماعاتها الأولى في المحفل الماسوني الايطالي ، وفتحت السفارات الاجنبية للمعارضة ، كما وكانت بريطانيا وفرنسا سباقتين لايواء اللاجئين من معارضي الحكم الحميدي وتركتهم يعملون علنـا لاسقاط السلطان ، كما كانت ايطاليا تشجع هذا الميول ، وسهلت اتصـالات عناصر الجمعية في الداخـل والخارج من خـلال البريـد الاجنبي المتمتـع بالحصانة[٥٤] . كما عملت الحركة الماسونية بالتعاون مع المؤسسات الصهيونية على تمويل صحيفة (تركيا الفتاة) وصحيفة (عثما نيتشر لريد) الناهضـة للسلطان عبدالحميد الثاني[٥٥] .

بعد رفض السلطان عبدالحميد الثاني مطالب هرتزل في المقابلة ، قـدم الاخير تقريره الى لجنة الاعمال الصهيونية عن نتيجة المقابلة وجاء فيه « أقـر على ضوء حديثي مع السلطان عبدالحميد الثاني انه لا يمكن الاستفادة مـن تركيا الا اذا تغيرت حالتها السياسية ، اما عن طريق الزج بها في حروب تنهزم فيها ، او عن طريق الزج بها في مشـكلات دولية ، او بالطريقتين معـا في آن

---

(٥٣) الاستانة العلية ، مجلة الهلال ، ج٣ ، س١٨ ، اول ديسـمبر ١٩٠٩ ، ص ١٣٥ ؛ رامزور ، المرجع السابق ، ص ١٢٤–١٢٦ ، ٢٠٠ .

(٥٤) سعيد الافغاني ، سبب خلع السلطان عبدالحميد الثاني ، مجلة العربي ، العدد ١٦٩ ، الكويت ١٩٧٢ ، ص ١٥٢ ؛

Serif Mardin, The genesis of young Ottman thougha, (New Jersy : 1962), P, 116-117.

(٥٥) حلاق ، المرجع السابق ، ص ٣١٩ .

واحد » وفي اول مؤتمر عقده اعضاء جمعية الاتحاد والترقي عام (١٩٠٢) ، اقر المؤتمرون خطة للاطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني ، وعرضت الخطة على ادموند مونسن (E. Monson) السفير البريطاني في باريس الذي حولها الى اللورد ساندرسن Sanderson الوكيل العام لوزارة الخارجية ، وطلب الاتحاديون توفر الحماية البحرية لهم من اي عمل قد تقوم به روسيا لمنع نجاح انقلابهم ، وقد نال المؤتمرون وعدا بالتأييد[٥٦] . استعانت الحركة الماسونية بكبار الشخصيات وصغارها في سبيل تنفيذ خططها ، حيث نظمت المؤامرة الارمنية الاولى بتشجيع ودعم ادوارد السابع ملك بريطانيا الماسوني ، والذي قدم (١٣) الف ليرة ذهبية للمنظمة الارمنية السرية (الطاشناق) من اجل اغتيال السلطان عبدالحميد الثاني ، كما فتح اعتمادات مالية في المصارف الاجنبية لخدمة الاهداف الصهيونية وقد قامت مجموعة الاغتيال بالهجوم على الباب العالي وقامت مجموعة اخرى بمهاجمة (البنك العثماني) عام (١٨٨٦) . وقد القي القبض على مجموعة الاغتيال في الباب العالي وعلى اثر ذلك حركت الحركة الماسونية انصارها وعلى رأسهم السفير البريطاني في استانبول لحمايتهم بحجة الامتيازات الاجنبية وكان له ما اراد[٥٧] .

بعد اخفاق الخطة الاولى لاغتيال السلطان عبدالحميد الثاني ،اعدت الحركة الماسونية خطة جديدة في سويسرا وكلف بالامر (ادوارد جورس) وهو يهودي مجري ، فرنسي الجنسية تدرب في روسيا على اعمال الاغتيالات وتعاون جورس مع منظمة (الطاشناق) الارمنية السرية ، وقد استطاع هؤلاء ادخال عربة الى البلاد صنعت خصيصا لهذا الغرض ثم اعيد تركيبها ووضعت

---

(٥٦) ابو غنيمة ، المرجع السابق ، ص ٤٦ـ٤٧ ؛ الشوابكة ، المرجع السابق ، ص ٣١٥ـ٣١ .

(٥٧) مصطفى طوران ، اسرار الانقلاب العثماني ترجمة كمال خوجة (تونس : دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٤) ، ص ٩ ؛ بني المرجة ، المرجع السانق ، ص ٢٣٠ .

قنبلة موقوتة تحت كرسي القيادة . وقد حضر السلطان الى المسجد لاداء صلاة الجمعة في (٢١) تموز (١٩٠٥) ، وبعد انتهاء الصلاة اراد السلطان مجاملة شيخ الاسلام جمال الدين افندي فأمضى بضع دقائق معه ، وفي هذا الوقت بالضبط انفجرت العربة ، الا ان السلطان لم يصب باذى[٥٨] . وقد كشفت التحقيقات حجم المتفجرات التي بلغت (٨٠) كغم مع (٢٠) كغم من قطع الحديد، وذهب ضحية الحادث (٣٦) شخصا وجرح (٥٨) شخصا ، والقي القبض على جورس ومعاونيه اليهودي الروسي قسطنطين فيوليانا الذي انتحر بقطع شرايين يده والارمني ميكائليان وابنته روبينا ، والغريب ان السلطان عفا عن جورس وامر باخراجه من اراضي الدولة العثمانية[٥٩] . ويبدو ان إستعانة الماسونية والحركة الصهيونية بالارمن في كلتا الحادثتين كان يراد منه فضلا عن التخلص من السلطان ، احداث رد فعل شعبي ضد الارمن مما قد يؤدي حدوث مجزرة ضدهم تلقى تبعتها على العثمانيين وتعمل الماكنة الدعائية الماسونية ضد العثمانيين المسلمين بحجة إنصاف الاقليات والطوائف الدينية في الدولة العثمانية ، ومما يزيد اجرام الماسونية انها لم تحترم حرمة الجامع وحرمة الانفس البشرية التي ازهقت .

لم يكتف المتآمرون بالارمن بل كانت عناصر الاتحاد والترقي والماسونية تعمل بكل همة ونشاط ، ومن هؤلاء مصطفى كمال (اتاتورك فيما بعد) ، يعمل ضمن منظمة سرية تعرف باسم (الوطن) الا انه سرعان ما وقع بايدي البوليس السري فاودع السجن لفترة ثم افرج عنه وارسل في مهمة الى دمشق وهناك اخذ يتحرك خفية للاتصال بالضباط في غزة وحيفا وبيروت وطرابلس ، الا انه نقل الى مسقط رأسه (سلانيك) وهناك تعرف على جمعية الاتحاد

---

(٥٨) هاسلب ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥ ؛ طوران ، المرجع السابق ، ص ٩-١١ ، النعيمي ، المرجع السابق ، ص ١٤٧-١٤٨ .

(٥٩) محمد علي ، المرجع السابق ، ص ١٦٣-١٦٥ ؛ بني المرجة ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

والترقي وانتمى اليها ، ثم انتمى لمحفل (فيدانا) وعمل على تنظيم الماسونيين ويهود الدونمة ، وعدد من اقوى منظمي النشاط الماسوني اليهودي السري • ومن جانب اخر كان رئيس جمعية الاتحاد والترقي احمد رضا يجري اتصالاته بـ « الجمعية الاسرائيلية » في مصر في اثناء وجوده فيها عام (١٩٠٧)[٦٠]•

من اجل التهيئة للانقلاب ، دفع عمانوئيل قره‌صو انصار الحركة الماسونية وجمعيةالاتحادوالترقي طلعت بك وجمال بك وأنور بك ونيازي وغيرهم الى العمل باقصى جهد ، وفي (٢٣) تموز (١٩٠٨) القت الجمعية منشورات في شوارع سلانيك تدعو الناس للتجمع في اليوم التالي (٢٤) تموز ، الا ان الناس تجمعت في اليوم نفسه (٢٣) تموز في ميدان اوليمبوس ، وتقاطر الخطباء من قادة الماسونية والجمعية لالقاء خطبهم من شرفة فندق (اوليمبوس بلالاس) ، وطالب هؤلاء بضرورة اعلان الدستور ، وكان على رأس الخطباء عمانوئيل قره‌صو الذي القى خطبته باليهودية (الاسبانية) ، وفي المساء اعدت مأدبة وعزفت فيها الموسيقى العسكرية نشيد المارسلياز نشيد الثورة لفرنسية[٦١] • وارسل انور بك نيابة عن جمعية الاتحاد والترقي رسالة الى الصحيفة الصهيونية (New Freiepress) لاشعارها بالانقلاب ضد السلطان وان الجيش سيزحف على العاصمة اذ لم يلب السلطان مطاليب الجمعية • كما وادى رشيد باشا وهو ماسوني من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي دوره في اخافة السلطان من « انتفاضة الامة » اذ لم يعلن السلطان الدستور خلال ساعتين »[٦٢] • وقد استجاب السلطان ، وارسل برقية الى جميع الولايات اعلن فيها موافقته على اعلان الدستور •

---

(٦٠) سليمان مظهر ، « الذئب الاغبر والانقضاض على الضحايا » ، مجلة العربي ، العدد ٤٦٠ ، مارس ١٩٩٧ ، ص ٦٣ ؛ رامزور ، المرجع السابق ، ص ٨٦ ؛ الشوابكة ، المرجع السابق ، ص ٣١٠ .

(٦١) روحي بك الخالدي المقدسي ؛ « الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة » ، مجلة الهلال ، ج٣ ، س ١٧ ، ١ ديسمبر ١٩٠٨ ، ص ١٦٨–١٦٩ ؛ سنقرط ، ج٢ ، ص ١٣٣ .

(٦٢) حلاق ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣ ؛ النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

انقلاب ١٩٠٨ وسيطرة الماسونية :

بعد نجاح انقلاب عام (١٩٠٨) انتعشت امال الحركة الماسونية والصهيونية، وجرت في مدينة سلانيك ـ قلب الماسونية ومركز الانقلاب ـ مسيرة نظمتها المحافل الماسونية حضرها هيئات وشخصيات كبيرة محلية وعالمية ، وتصدرها عمانوئيل قرهصو الذي القى خطابا تحت علم الماسونية[٦٣] . وشارك اليهود الماسونيين مختلف الولايات العثمانية الطوائف الاخرى ابتهاجا باعلان عودة العمل بالدستور ، وكان في مقدمة المتظاهرين فرحا بالدستور رئيس الحاخامات (حاخام باشي) في استانبول ، وفي فلسطين ، فاق يهود القدس جميع الطوائف في اظهار عواطفهم ، ونشط خطباؤهم في تمجيد العهد الجديد ، وبالغت جرائدهم المحلية في مدحه ، كما بادرت الحركة الصهيونية في رفع علمها في يافا[٦٤].

من اجل تأمين فرض سيطرة الاتحاديين والماسونيين عمد الانقلابيون الى ابدال وزارة الشرطة بـ « مديرية الامن العام » والتي تسيطر على الشرطة والدرك (الجندرمة) ووضعت تحت امر ماسوني من سلانيك ، كما وضعت إدارتا المطبوعات الخارجية والداخلية تحت امرة يهود ماسون وغلاة الاتحاديين[٦٥] . وعلى اثر ذلك صدر العديد من الصحف اليهودية في ولايات الدولة العثمانية ولاسيما استانبول ، سلانيك ، القدس ، منها : التبهجيو ، صاحب الامتياز : غراموتا ، تلغراف : باسف سلامي ، مسرت : عزت ومحمود خلوصي ، بوانا اسيه راثيا : يوسف فران ، آل قومر سيال : فرانقوبك ، النوئه ل اريو : ياقو الغرناطي ، زورنال وسلانيك : قسيم افندي ، اوهنيس : ميثون

---

(٦٣) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(٦٤) عبدالمسيح الانطاكي ، نيل الاماني في الدستور العثماني ، (مصر : ١٩١٤)، ص ٧٥ ؛ الشوابكة ، المرجع السابق ، ص ٣١٠–٣١١ .

(٦٥) اتلخان ، الخطر ... ، ص ١٥٣ ؛ محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

اروملاح ، هاسيفي : يهودا لبيب بن اسحاق ، هاشكان : حمدو بنت شاومو خاتون[٦٦] .

من اجل السيطرة على احكام مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية تم تعيين طلعت بك وزيرا للداخلية وجاويد بك نائب سلانيك وزيرا للمالية ، كما عين العديد من ضباط الجمعية من الماسون في المحاكم العسكرية بعد ان اعلنت الاحكام العرفية مدة سنتين ، كما وضع (٩٠) ماسونيا تحت امرة طلعت وجاويد والماسوني الاخر نسيم روسو ، فشكلت هيئة ادارية عامة ماسونية مؤلفة من طلعت وشيخ الاسلام موسى كاظم والصدر الاعظم حلمي باشا ثم حل محله حقي باشا عندما اصبح صدرا اعظم عام (١٩١٠)[٦٧] .

في شهر آب (١٩٠٨) اي بعد شهرين من الانقلاب ، اجتمع (٤١) ممثلا عن المحافل الماسونية المحلية في استانبول ودعوا الى تأسيس مجلس الشورى العثماني الماسوني الاعلى ، وفي (٣٠) اذار (١٩٠٩) تأسس المجلس المذكور برئاسة الماسوني المصري عزيز حسن باشا ، وعضوية كبار زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، وفي فترة تأسيس المجلس كان هناك (٢١) شخصا يحملون درجة (٣٣) وهي درجة الاستاذية في المحافل الماسونية[٦٨] . ومن ثم تم في السنة نفسها تأسيس (المشرق الاعظم العثماني) ، وانتخب طلعت بك استاذا اعظم له ، وانتخبت هيئته العليا من كبار الاتحاديين مع معاونين من اليهود والنصارى ، وفيما بعد انتخب وزير المالية جاويد بك استاذا اعظم لجميع المحافل الموجودة

---

(٦٦) محمود راغب ، نوسال راغب ، برنجي سنه ، (درسعات : قرەيت مطبعة سي ، باب عالي جادة سنده ، ١٣٢٤) ، ص ٣٢٧-٣٣١ ؛ المقتبس (مجلة ، ج٥ ، م٥ ، ١٩١٠ ، ص ٣٤٦) .

(٦٧) المشرق (مجلة) ، ج٥ ، س١٤ ، ايار ١٩١١ ، ص ٣٨٣ ؛ محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦-٢٩٧ ؛ اتلنخان ، الخجر ... ، ص ١٥٣ .

(٦٨) للتفاصيل عند اسماء اعضاء المجلس المذكور واسماء حاملي الدرجة (٣٣) ، انظر : **Nuri Gun, A. G. E, S, 26.**

في استانبول[٦٩] • وبدأت المحافل الماسونية تنتشر في العاصمة استانبول وبقية الولايات العثمانية وبشكل علني ، حيث اسس (١٢) محفلا جديدا في استانبول اشهرها محفل (الدستور) الذي كان من كبار رؤسائه طلعت بك وجاويد بك وقد انظم اليه جل نواب الجمعية في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) والاعيان ، كما انتشرت المحافل الماسونية في الولايات العربية المحيطة بفلسطين[٧٠] • ويبدو ان لاطماع اليهود في فلسطين دورا في ذلك من خلال تسهيل تسلل المهاجرين اليها •

ان الدور الكبير للاحداث الخطيرة في الدول العثمانية لمحفل فيرتاس الذي مارس نشاطه تحت رئاسة عمانوئيل قره‌صو ، وكان تحت امرة الاخير كل من جمال بك وطلعت بك ، كمان سياسة الجمعية واعمالها وقراراتها كانت تقرر في المحفل المذكور ، ووضعت اجراءات الحكومة وتحركات السلطان تحت انظاره ، فضلا عن ان قرار خلع السلطان عبدالحميد الثاني كان قد اتخذ في هذا المحفل ، حيث قدم من سلانيك وفد اتحادي ضم : طلعت وانور وجاويد ورحمي وعقدوا اجتماعات مع رؤساء الجمعية في استانبول تم على اثرها اتخاذ قرار بالعمل على احداث عصيان مسلح واغتنام الفرصة للاستيلاء على ثروة مقر يلدز ثم خلع السلطان وتنصيب ولي العهد محمد شاد[٧١] • وقد استلم قره‌صو (٤٠٠) الف ليرة ذهبية من البنك الايطالي ثم اعطاها لثري

(٦٩) اتلخان ، الخطر ... ، ١٥٢ • وللتفاصيل عن النظام الداخلي والقانون الاساسي واسماء قادة المحفل المذكور ، انظر :

Nuri Gun, A. G. E, S, 25-28 ; Tunaya, A. G. E, S, 387-388.

(٧٠) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤ ؛ محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ ؛ بني المرجة ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢

Nuri Gun, A. G. E, S, 25-28 ;

(٧١) طوران ، اسرار ... ، ص ٣٩ ؛ الشوابكة ، المرجع السابق ، ص ٣٠٧ ؛

Nuri Gun, A. G. E, S, 24,

يدعى سليم دراغا الذي اعطاها بدوره لايوب صبري قائد الجناح العسكري لجمعية الاتحاد والترقي ، لصرفها على احداث (٣١) اذار (١٩٠٩) نيسان (١٩٠٩) او ما عرف بالثورة المضادة وكانت العناصر التي بدأت الاحداث في اليوم المذكور تنتمي الى الافواج الاربعة التي ارسلت خصيصا من سلانيك الى العاصمة وكانت تحت امرة العقيد الماسوني اليهودي السلانيكي رمزي بك ، وقد كوفيء الاخير بعد انتهاء الاحداث بتعيينه رئيسا لاركان حرب السلطان محمد رشاد الخامس وعين اخاه مشرفا على معتقل السلطان عبدالحميد الثاني في سلانيك[٧٢] .

اتهم عبدالحميد الثاني وانصاره بالاحداث ، لذا فقد قرر الاتحاديين والماسونيين على خلعه ومنحو شرف اصدار القرار لمجلس النواب (المبعوثان) الذي اجتمع في منطقة سان ستيفانو (يشيل كوي) تحت حرب الجيش الثالث (جيش الحركة) واصدار القرار المذكور ، وليكون القرار اكثر ايلاما للسلطان فقد شكل وفد تبليغ القرار للسلطان من اليهود والارمن وعلى رأس هؤلاء عمانوئيل قرهصو الذي سبق ان هدد السلطان بالخلع ، ثم نقل السلطان الى فيلا (آلاتيني) في سلانيك معقل الماسونية[٧٣] ، وينكر السلطان عبدالحميد الثاني اية علاقة له بالاحداث ، كما انه رفض اصدار اية اوامر لقواته بالتصدي لجيش الحركة لانه حسبما يقول يرفض اراقة دماء المسلمين ، ويقول السلطان : « ان العمل الوحيد الذي استطاع الماسونيين القيام به في الدولة العثمانية ، هو نشر الشقاق والتمرد بين صفوف الجيش من دون ان يعلموا انهم يعملون لصالح انكلترا التي تدعي نشر الافكار الحرة في امبراطوريتنا ، واشد ما يؤلمني ان يتعاون هؤلاء الضالون الاتراك مع

---

(٧٢) محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ؛ طوران ، اسرار ... ص١٦

(٧٣) تقويم وقائع ، نومرو ١٩٤ ، ١٥ نيسان ١٣٢٥ ، هاسلب ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩-٣٣٣ .

اليونانيين ، والبلغاريين في سبيل ازاحة المستبد عن الحكم[٧٤] . وقد احتفل الماسون واليهود بخلع السلطان عبدالحميد الثاني « مضطهد اسرائيل » واخذت الصحف اليهودية الماسونية تزف البشرى للعالم ولليهود بشكل خاص ، كما خرجت التظاهرات في سلانيك تعبيراً عن الفرح والابتهاج ، وطبعت صور هذه المظاهرات في بطاقات بريدية تباع في الأسواق العثمانية[٧٥] .

خلال الاعوام الاربعة الاولى من حكم الاتحاديين (١٩٠٨–١٩١٢) ، كان لوزير المالية اليهودي الماسوني جاويد بك دور كبير في اقتراض الدولة العثمانية قروضا انقضت فلوسها حيث تم اقتراض (٤٠) مليون ليرة ، في حين انها لم تستقرض مثلها في (٣٠) عام ، وكان جاويد بك يرافق زوج اخته الصدر الاعظم حقي باشا في زيارته للحصول على قروض من باريس ، كما كان قد اتفق مع رفاقه الاتحاديين على تدبير اموال يهودية مقابل الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين ، وقد استطاع عام (١٩١٠) ان يعقد قروض مع بيوت مالية يهودية[٧٦] . وقد انفق ربعها على الجيش والربع الاخر على عناصر الجمعية وانصارها والباقي دخل خزينة الجمعية[٧٧] . ويبدو ان مسألة اغراق الدولة العثمانية بالقروض هو تنفيذ للبرتوكول (٢٠) من بروتوكولات حكماء صهيون القاضي باغراق غير اليهود (الغرييم) بالقروض والاستعانة من المصارف اليهودية ليسهل تحقيق غايات اليهود[٧٨] .

---

(٧٤) Bozdag, A. G. E, S, 107, 123-124.

(٧٥) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦ ؛ محمد علي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

(٧٦) الائتلاف العثماني (جريدة) ، العدد ١٦ ، س١ ، بيروت ، ٢٣ رمضان ١٣٣٠هـ (٥ ايلول ١٩١٢م) ، الشعلان ، الخطر ... ، ص ١٥٣ ؛ حلاق ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

(٧٧) الائتلاف العثماني ، العدد ٤٠ ؛ س١ ، بيروت ، ١٠ شوال ١٣٣٠هـ (٢١ ايلول ١٩١٢م) .

(٧٨) نويهض ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦–٢٨٠ .

واجهت السياسة الاقتراض الاتحادية الانتقاد ، حيث انتقد بعض النواب في البرلمان العثماني ، وبضمنهم النواب العرب ، تخبط وزارة المالية وعدم دقتها في تنظيم حساباتها مما دفعها الى عقد قروض مع دول اجنبية مما ادى الى تدخل الدول الاجنبية والصهيونية العالمية في شؤون الدولة العثمانية ، كما اشاروا الى النشاط الصهيوني في فلسطين وشط العرب ، وعلى الرغم من هذه الانتقادات فأن قرهصو نائب سلانيك وزعيم محفل فيرتاس كان يرى ان مسألة الهجرة اليهودية الى فلسطين غير مهمة ، مما اثار غضب النواب العرب الذين شنوا حملة ضد النشاط الصهيوني في فلسطين ومخاطره على المنطقة ، كما وزعوا طوابع تحمل شعارات الحركة الصهيونية وصور زعمائها ، كما اوضحوا ان الحركة الصهيونية تعمل على تهريب السلاح الى داخل فلسطين وتقوم بتدريب اليهود عليها فضلا عن جمع الضرائب والاموال لصالح الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية وإفساد الجهاز الاداري العثماني وشراء الذمم ونهب الكنوز والاثار العربية الاسلامية[٧٩].

حروب التفتيت :

جاء في البروتوكول السابع من بروتوكولات حكماء صهيون « .. وعلينا ان نكون في موضع يمكننا من تناول اي عمل من اعمال المعارضة وذلك بابقاء الحرب بين البلاد المعارضة لنا وجاراتها في حال قيامهم جميعا في وجهنا يدا واحدة ، فحينئذ لا سبيل الا ان نستوقد حربا عالمية كاسحة »[٨٠] . وتنفيذا لذلك فقد عمد اليهود والماسونيون على ادخال الدولة العثمانية في سلسلة

---

(٧٩) للتفاصيل ، انظر : عبدالقادر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠–٢٠٨ . ومن الجدير بالذكر ان عدد النواب اليهود في مجلس النواب (المبعوثان) كان (٥) نواب ، انظر :

Sevket Sureyya Aysemer, Enver Pase, 1908 1914), Cilt 2, (Istanbul : 1971), S, 93.

(٨٠) نويهض ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

من الحروب بغية اضعافها وتفتيتها ، وقد تعاون في سبيل تحقيق هذا الهدف كبار الماسونيين من العثمانيين ومن غلاة جمعية الاتحاد والترقي سواء الماسونيين منهم عن وعي ودراية او المخدوعين بشعاراتها ، كما استغلت الماسونية العالمية عناصرها في مختلف المراكز القيادية المحلية والدولية واثارة المطامع في ارث (الرجل المريض) ومن هنا بدأ التطبيق العملي من خلال حروب التفتيت .

كانت ايطاليا تخطط لغزو طرابلس الغرب منذ اواخر القرن التاسع عشر لذا بذلت اقصى جهودها لاحتلالها في الفترة (١٩١١–١٩١٢) وكان الماسونية دور كبير في تسهيل مهمة الاحتلال ، حيث لعب الماسوني اليهودي الدونمي متر سالم دوره في ذلك ، وكان موضع ثقة طلعت بك كما كان ذا اتصالات واسعة بالاوساط العالمية ، وقد سافر الى ايطاليا وقابل رئيس بلدية روما الماسوني ناثان ، وهناك رسمت الخطط اللازمة لتسهيل عملية الغزو ، وبعد عودته استطاع اقناع الاتحاديين بسحب الاسلحة والعتاد من طرابلس الغرب بحجة تعميرها كما سحبت بعض القطعات العسكرية وارسلت الى اليمن بسبب وجود اضطرابات فيها ، وقد قبض متر سالم ملايين الليرات الذهبية ثمن نجاحه بالمهمة[٨١] .

كان الصدر الاعظم حقي باشا سفيرا سابقا للدولة العثمانية في روما وصديقا لرئيس بلديتها ناثان ، كما ان الوزارة الايطالية آنذاك كانت لها علاقتها الواسعة مع جمعيات سلانيك ومعظم اركان وزارة حقي باشا وشيخ الاسلام[٨٢] . وعندما بدأت عملية الغزو ارسل رئيس الوزراء الايطالي

---

(٨١) اتلخان ، اسرار ...، ص ٦٣–٦٤ . ومن الجدير بالاشارة ان احد المصادر يذكر ان جمعية الاتحاد والترقي قبضت ثلاثة ملايين ليرة كقسط اول لاخلاء طرابلس الغرب من الجنود والاسلحة ، وثلاثة ملايين اخرى بعد الاحتلال . انظر : الائتلاف العثماني ، العدد ٤٠ ، س١ ، بيروت ، ١٠ شوال ١٣٣٠هـ (٢١ ايلول ١٩١٢م) .

(٨٢) الائتلاف العثماني ، العدد ٣٧ ، س١ ، بيروت ، ٧ شوال ١٣٣٠هـ (١٨ أيلول ١٩١٢م) ؛ اتلخان ، الخطر ...، ص ٢١٣ .

اليهودي الماسوني لوتزاني رسولا يهوديا ماسونيا ايطاليا الى العاصمة استانبول ليسعى هناك لمصلحة ايطاليا مستخدما الوسائل الماسونية لبلوغ مناه[٨٣] . وكان يهود طرابلس الغرب قد سهلوا عملية الاحتلال حيث عملوا ادلاء لقوات الغزو الفاشية وجواسيس على عناصر المقاومة الوطنية ، اما يهود الدونمة في استانبول فقد كانوا في اثناء عملية الغزو يبتزون الدولة العثمانية سياسيا واقتصاديا رغم دعوات التضامن الوطني[٨٤] .

تعالت الانتقادات ضد سياسة الاتحاديين والصدر الاعظم حقي باشا ووزارته المستقيلة عام (١٩١١) ، ولاسيما في مجلس النواب العثماني ، حيث قدم نواب طرابلس الغرب تقريرا الى المجلس مكون من (٩) نقاط اتهموا فيه وزارة حقي باشا بالاهمال والتقصير في الدفاع عنها مما مكن الايطاليين من احتلال اجزاء منها واتهموه بالخيانة وطالبوا بمحاكمته ، الا ان وزارة سعيد باشا ـ الاتحادية ايضا ـ التي اعقبتها لم تتخذ اي اجراءات ، وفي اثناء المناقشات التي اعقبت ذلك حاول نائب السلانيك قرەصو تخفيف حدة التوتر داعيا الى ضبط النفس « لان المسألة ابعد من ان تكون مسألة طرابلس الغرب وحدها ... » مدعيا ان المشاكل الداخلية هي التي شجعت ايطاليا على غزو طرابلس الغرب ، الا ان النواب العرب طالبوا بضرورة بحث المسألة بكل جدية وضرورة محاسبة المقصرين ، وقد ادى احتدام مسألة الغزو الى حل مجلس النواب في (١٨) كانون الثاني (١٩١٢)[٨٥] .

ادت اجراءات الاتحاديين المتطرفة قوميا وسياسيا ومحاولاتها تتريك الدولة وصهر القوميات المؤتلفة في اطار الدولة العثمانية ، وسياستها الخاطئة التي قادت الى ضياع طرابلس الغرب ، الى قيام مجموعة من الضباط عرفت

---

(٨٣) التل ، المرجع السابق ، ص ٨٨ ؛ شيخو ، المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

(٨٤) بني المرجة ، المرجع السابق ، ص ٢٥١–٢٥٢ ؛ النعيمي ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٨٥) لمزيد من التفاصيل ، انظر : عبدالقادر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩–٢١٨ .

باسم مجموعة ضباط الانقاذ « خلاص كار ضابطان كروبي » بانقلاب ادى الى سقوط الاتحاديين ومجيء حكومة حزب الحرية والائتلاف برئاسة مختار باشا ، التي سارعت الى عقد صلح مع ايطاليا تخلت الدولة العثمانية بموجبه عن طرابلس الغرب ، ولعل سبب ذلك بوادر اندع حرب البلقان الاولى التي شنتها كل من اليونان وبلغاريا وصربيا ضد الدولة العثمانية .

اسهم الماسونيون العثمانيون في اشعال حرب البلقان ، حيث كان عمانوئيل قره‌صو مسؤولا عن تكوين عصبة البلقان ودفع دولها الى الحرب ضد الدولة العثمانية تمهيدا لاضعافها ثم تحطيمها ودفعها الى الانهيار[٨٦] . كما كان لليهود دورا كبيرا في اضعاف الجيش العثماني المحارب في بعض مناطق البلقان، مما سبب خسائر كبيرة في الارواح والمعدات وانسحاب الجيش العثماني من بعض تلك المناطق ، فحينما حوصرت مدينة ادرنة من الصرب والبلغار ، وعندما كانت المدينة تعاني من الجوع والفقر والحرمان ، كان يهود الدونمة والماسونيون داخل المدينة المحاصرة يتآمرون ضدها ، فأخذ قسم منهم يعمل على خلق الفوضى في صفوف الجيش المحاصر عن طريق اثارة المنافسات السياسية والنزاعات الحزبية ، في حين ان القسم الاخر ولاسيما اليهود كانوا يعتصرون الحياة داخل المدينة حيث احتكروا مادتي السكر والملح وضاعفوا اثمانها مما ارهق الجيش والاهالي ، وحينما حاول الجيش وضع يده على المواد الغذائية ، القى اليهود الملح في الابار وباعوا مائها بالفناجين قيمة كل فنجان قرش صاغ ، ولم يكتف اليهود بذلك ، بل كانوا ينقلون اخبار المدينة ومواقعها الحصينة ومناطق تواجد قطعات لجيش العثماني الى البلغار عن طريق كتابة التقارير ، ووضعها في قناني والقائها في النهر ، هذا فضلا عن بث الاشاعات واضعاف المعنويات ، وقد القي القبض على بعضهم وحكم عليهم بالاعدام ، الا

---

(٨٦) رامزور ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ ؛ اتلخان ، اسرار ...، ص ٦ ؛
Nuri Gun, A. G. E, S, 29-34.

ان القوات البلغارية شنت هجوما صاعقا خلال الايام (١٠-١٣) اذار (١٩١٢) استطاعت من خلاله اختراق الدفاعات العثمانية بعد ان نفذت الاعتدة والاغذية وقل عدد المدافعين فكان ان اضطرت القوات العثمانية الى الاستسلام على ان تنسحب باحترام(٨٧).

في عام (١٩١٢) اعلنت البانيا انفصالها عن الدولة العثمانية مستغلة ظروف حرب البلقان ، واستطاعت القوات الالبانية تحقيق بعض الانتصارات ضد الحاميات العثمانية ، وعندما ارسلت الدولة العثمانية بعض القطعات لقمع الانفصال وقبل التحام القوات المتحاربة القى العديد من الجنود والضباط الماسون السلاح ، بل سلم بعض ضباط الفرقة الاولى منهم اسلحتهم لقوات الانفصاليين الالبانيين ، مما احدث ارتباكا في تشكيلة القطعات ادى فيما بعد الى استيلاء الانفصاليين على مدينة (اسكوب) الالبانية ، الا ان قائد الفرقة الحادية عشرة المشير ابراهيم باشا وجه انذار للقوات الانفصالية بضرورة اخلاء المدينة خلال ساعتين ، وامام ضغط القوات العثمانية اضطر الانفصاليون الى اخلاء المدينة ، وهكذا سدت الثغرة التي احدثها الضباط والجنود الماسون(٨٨).

ومن ثم اعقبتها حرب البلقان الثانية التي ادت الى خسارة الدولة العثمانية غالبية مقاطعاتها في منطقة البلقان .

حرب الانهيار :

استغل الاتحاديون والماسونيون هزائم حكومة حزب الحرية والائتلاف في حرب البلقان ، وقادوا انقلابا ناجحا عام (١٩١٣) ، تمكنوا من خلاله اعادة فرض سيطرتهم على الدولة العثمانية ، وكان للعناصر الماسونية اليهودية تمثيل

---

(٨٧) اتلخان ، الخطر ... ، ص ٥٧-٦٤ .

(٨٨) اتلخان ، اسرار ... ، ص ٤٢-٤٣ . ومن الجدير بالذكر ان احد المراجع يذكر ان اول محفل ماسوني افتتح في الدولة العثمانية كان محفل (برات) مركز البانيا . انظر : النعيمي ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

كبير في تشكيلة الوزارة الاتحادية ، فطلعت باشا اصبح وزيرا للداخلية ثم صدرا اعظم ، وانور باشا وزيرا وزيرا للحربية ، وجمال باشا حاكما عاما لاستانبول ثم قائدا للجيش السادس ، وجاويد بك وزيرا للمالية ثم مفتش عام للاعاشة ، وبساريا افندي اليهودي الماسوني وزيرا للاشغال العامة ، ونسيم مازلياح اليهودي الماسوني وزيرا للتجارة والزراعة ، واوسقان افندي وزيرا للبريد والبرق ، فضلا عن العشرات من عناصرهم القيادية في ادارة الدولة المختلفة العسكرية والمدنية •

ان الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ـ١٩١٨) من تدبير اليهود وتهيئتهم كما يشير الى ذلك البروتوكول السابع المار الذكر ، فضلا عن اقوال اليهود ، فهذا الصحفي اليهودي الانكليزي (دين ميس هانوالدر) يقول في كتابه (الحقيقة البريطانية) : « ان عودة اليهود الى فلسطين بصورة كاملة ونهائية ظافرين ستكون بعد الحرب الكونية الاولى التي ستقع قريبا ••• وفي هذه الحرب ستمزق الامبراطورية التركية وسيمتلك اليهود الارض الموعودة ظافرين » ، وهذا صحفي يهودي اخر يقول في جريدة (فلسطين الجديدة) عام (١٩٢٣) : « نظن ان التاريخ سيحقق لنا حادثة انشاء وطن قومي لليهود من احدى النتيجتين الرئيسيتين لحرب ، فلاجل هذا فقد دفعنا العالم الى الحرب ، وغلبناهم » •

تقع مسؤولية اشراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى على الماسونيين وقادتها وهم قادة الماسونية العثمانية وقادة جمعية الاتحاد والترقي في الوقت نفسه ، ويعد وزير الحربية انور باشا المسؤول الاول عن قرار انضمام الدولة العثمانية الى دول الوسط في الحرب[٨٩] • وعند نشوب الحرب

---

(٨٩) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ؛ اتلخان ، الخطر ٠٠ ، ص ٢٠١ـ٢٠٢
Nuri Gun, A. G. E, S, 29.

العالمية الاولى ، وبينما كانت الجيوش العثمانية تحارب في مختلف الجبهات ، كان كبار قادة الماسونية في الدولة العثمانية مشغولين بنهب الدولة وارزاق قواتها المحاربة وادويتها ، فهذا زعيم محفل فيرتاس ومخطط السياسة العثمانية من وراء الستار الماسوني عمانوئيل قرهصو قد نصب مفتشا عاما للاعاشة ، واستطاع في اثناء وجوده في هذه الوظيفة ان يجمع اموالا طائلة لحسابه الشخصي ، اما فؤاد سورايا باشا احد قيادي محفل ضياء الشرق المؤسس عام (١٩١٠) واحد معاوني وزير الحربية انور باشا ، فكان يعمل في المستشفى المركزي ويسجل اسماء الماسونيين الذين يفدون اليها ، وكان يسرق الادوية بعلم انور باشا ، وبعد اجراء التحقيقات جرى التعتيم على الموضوع من قبل هيئة التحقيق الماسونية[٩٠].

حاول اليهود الحصول على وعد من الدولة العثمانية باستعمار فلسطين ، وعرض ممثل الحركة الصهيونية في استانبول ريتشارد لختيم على الحكومة العثمانية تشكيل قوة يهودية من يهود بولونيا لتقاتل مع الجيش العثماني ، مقابل شرط واحد وهو ان يسمح لليهود بأستعمار فلسطين ، الا ان العرض رفض[٩١] . ويبدو ان سبب الرفض هو الخشية من الرأي العام الاسلامي داخل الدولة العثمانية وخارجها ، وبعد اخفاق حملة الدردنيل ، وبغية شق الجبهات العسكرية العثمانية ، حاول الحلفاء والماسون الاتصال بجمال باشا (السفاح) وهو أحد العناصر القيادية الاتحادية الماسونية ، من أجل القيام بثورة يطيح من خلالها بالسلطان والدولة العثمانية وتنصيب نفسه خليفة على المسلمين وحصر العرش في نسله ، الى ان تصادم المصالح الاستعمارية بين كل

---

(٩٠) رامزور ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ ؛ اتلخان ، أسرار ... ، ص ٦ ؛
Nuri Gun, A. G. E, S, 30.

(٩١) نويهض ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

من فرنسا وانكلترا وروسيا ادى الى اخفاق الاتصالات[٩٢] ، وانتهت الجولة الاولى من جولات احداث انشقاق داخلي في الجبهات العثمانية المختلفة .

عمل اليهود بكل قواهم من اجل تدمير الدولة العثمانية والحيلولة دون خروجها من الحرب قبل هزيمتها بالكامل ، واعترف حاييم وايزمن خليفة هيرتزل في قيادة الحركة الصهيونية انه حال دون خروج الدولة العثمانية من الحرب ، وكان هنري مورغنتو سفير الولايات المتحدة الامريكية قد نجح في اقناع الرئيس الامريكي ولسون بضرورة اخراج الدولة العثمانية من الحرب صلحا ، الا ان بريطانيا واليهود حالا دون ذلك[٩٣] ، لان خروجها من الحرب من دون الهزيمة الكاملة يضيع على الانكليز اقتسام ارث « الرجل المريض » ويضيع على اليهود استعمار فلسطين .

لعبت الجاسوسية اليهودية دورا مهما في رفد الحلف بالمعلومات عن حركات القطعات العثمانية خاصة في فلسطين ، فقد كان حاخام اليهود في مصر حاييم ناحوم عميلا للمخابرات البريطانية في الدولة العثمانية والولايات العربية[٩٤] ، كما كانت الجاسوسة اليهودية سوزي ليبرمان تعمل على جمع المعلومات من خلال الايقاع ببعض الضباط العثمانيين الشبان وبعض الجنود

---

(٩٢) عبدالقديم زلوم ، كيف هدمت الخلافة (د.م ، ١٩٦٢) ، ص ٧٤–٧٧ ؛ بني المرجة ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧–٢٧٨ .

(٩٣) التل ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٩٤) منصور ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

العرب الفلسطينيين ، بعد مقتل احد الضباط العثمانيين تم القاء القبض على الجاسوسة المذكورة مع والديها وقرابة (٢٠) شخصا وكان بين هؤلاء جاسوسان يهوديان هما (موسيس وهيرموت) وكانا ضابطين في الاستخبارات البريطانية[٩٥].

وفي مدن حيفا ويافا والناصرة وطبريا كان يقود صبكة التجسس اليهودية اليهودي الصهيوني (ارانسون) الذي عين واليا على القدس بعد الاحتلال الانكليزي ، وكان له مساعدان هما الجاسوسة (سيمي سيمون) والجاسوس (كامبيس) وكانت سيمي قد عقدت صداقات مع بعض ضباط القيادات العثمانية في فلسطين لذا فأنها كانت تتجول في مقرات الوحدات وتقوم بالتقاط المعلومات وتنقلها الى (ارانسون) ، الى ان القي القبض عليها وحكمت بالاعدام ثم ابدل بالنفي الى قونيه حيث ماتت هناك . كما القي القبض على جاسوسة يهودية اخرى تدعى (سارة) تعمل في حيفا ، وفي اثناء تسفيرها الى بلاد الشام لاجراء محاكمتها ، القت بنفسها من القطار وماتت تحت عجلاته . وكانت قرية (زمارين) مركز التجسس اليهودي الماسوني على الجيش العثماني والمتعاونين معه ، والقي القبض على مجموعة من الجواسيس ممن كانوا يعملون تحت امرة الجاسوسين اليهوديين الماسونيين (جوزيف توبين) و (نعمان بليكنت) واجريت لهم محاكمة وسيقوا الى ميدان (المرج) في الشام حيث تم اعدامهم[٩٦].

---

(٩٥) للتفاصيل ، انظر : جواد رفعت اتلخان ، مذكرات الجاسوسية اليهودية سوزي ليبرمان ، تعريب محمد طاهر توفيق ، (بغداد : دار البصري د.ت)

(٩٦) اتلخان ، الخطر ...، ص ١١٤-١١٩ .

استفاد اليهود والماسانيون من الخدمات التي قدموها للخلفاء حيث استطاعوا الحصول على وعد بلفور عام (١٩١٧) وما ان صدر الوعد المشؤوم حتى سارعت كل من المانيا والدولة العثمانية تعرضان وعدا منافسا للوعد البريطاني بغية الحصول على الدعم المادي والمعنوي ليهود العالم بعد ان بانت بداية النهاية والانهيار ، وقدمت عرضا بانشاء شركة بامتياز لمصالح اليهود الالمان الصهيونيين وتتمتع هذه الشركة بشكل محدود من الحكم الذاتي مع السماح بالهجرة اليهودية الى فلسطين وفي نهاية عام (١٩١٧) كان قادة الدولة العثمانية من الاتحاديين مستعدين لقبول هذا المشروع على هذه الاسس وقبل ان تصدر الموافقة النهائية كانت فلسطين قد اصبحت تحت الاحتلال الانكليزي[٩٧].

بعد الانهيار الشامل للدولة العثمانية بدأت الاعترافات بالاخطاء تتوالى، فها هو القائد العام للجيوش العثمانية الجنرال اركان حرب انور باشا يعترف لقائد جيش فلسطين جمال باشا في مقابلة بينهما بعد اندحار القوات العثمانية في فلسطين عام (١٩١٧) حيث قال : « ... اتعرف يا باشا ما هو ذنبنا الحقيقي ... اننا لم نعرف السلطان عبدالحميد ... فأصبحنا آلة بيد الصهيونية واستثمرتنا الماسونية العالمية ... اليم جدا ... ولكن نحن بذلنا جهودنا للصهيونيين ... فهذا هو ذنبنا الحقيقي ... » اما ايوب صبري قائد الجناح العسكري الاتحادي فقد قال : « لقد وقعنا في شرك اليهود ، عندما

---

(٩٧) نويهض ، المرجع السابق ، ص ١٠٣-١٠٤ .

نفذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية ، في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبدالحميد لتنفيذ مطالبهم الا انه لم يقبل بذلك »[٩٨].

بعد ان استنفذت الماسونية اغراضها من هؤلاء عملت على تنفيذ ما جاء في البروتوكول الخامس عشر :: « ... واما الجمعيات القائمة اليوم ، وهي معروفا لدينا ، وتعمل في خدمتنا كشأنها في الامس ، سنجردها من سلاحها ، ونطرح رجالها في المنافي ...»[٩٩] . حيث فر الثالوث الرهيب انور باشا وطلعت باشا وجمال باشا الى المنافي في اوربا وقتلوا هناك بين عامي (١٩٢١-١٩٢٢) وبفرار هؤلاء وانهيار الدولة العثمانية . انتهى فصل من المأساة ، لتبدأ الماسونية فصلا جديدا مع قادة جدد في التاريخي التركي المعاصر .

---

(٩٨) النعيمي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ؛ اتلخان ، الخطر ...، ص ١٤٨ ؛
Nuri Gun, A. G. E, S, 24.

(٩٩) نويهض ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦-٢٤٧ .

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين
((حفظه الله ورعاه))

((نظرة تحليلية))

دائرة العلوم الانسانية

توطئــــة :

يتضمن التقرير الذي كلف اعداده فرع التربية وعلم النفس في المجمــع العلمي جزأيــن :

الاول : تحليل محتوى وصايا الســيد الرئيس ومتطلبات تنمية الشــخصية المتكاملــة •

والثاني : توظيف ما جاء في التقرير واستثماره ليكون بمثابة دليــل عمـــل لمؤسسات المجتمع •

اولا : تحليل محتوى وصايا السيد الرئيس ومتطلبات تنمية الشخصية المتكاملة.

تعد القيم محددات السلوك الانساني الرئيسة ، فهي دوافــع تقف وراء السلوك وتحركه • ويمكن تعرّف هوية المجتمع بالرجوع الى قيمه • وعندمــا لا تتضح قيم المجتمع ، يقود ذلك الى الصراع بين الافراد والجماعات • وعلى هذا ، هناك علاقة بين تماسك بنية المجتمع والشركة في القيم • لقد اصبح مــن الصعب على الاسرة تحمل مسؤولية نقل القيم من الجيل السابق الى الجيــل اللاحق ، لذلك صار المجتمع يتحمل هذه المسؤولية •

وتأتي وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعـاه » لتصب في اطار تحمل المجتمع مسؤولية تعزيز قيم ابنائه . وتطمح الدراسة الحالية الى استلهام القيم من وصايا القائد لتكون نبراسا للجيل الجديد . فهي ثمرة خبرة انسان خبر الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخبر الناس من حوله ، فعركها واعتلى سنامها بعد نضال وكفاح مستمرين ، فكسب المعركة ، معركة الحياة . ولم تأت كل تلك الصفات نتيجة افكار آنية وسريعة المرور ، ولكنها متجسدة في اعماق السلوك .

لقد استأثرت وصايا القائد باهتمام واسع من الكثير من المفكرين والكتاب والسياسيين ومراكز العلم والتربية والتثقيف رسمية او شعبية ، وذلك لاسباب عديدة يأتي في مقدمتها سمو أهدافها ووضوح مقاصدها والحاجة اليها ونوع ومستوى المصدر الذي صدرت عنه ، فقد اشار الرئيس القائد الى :

١) انها قد تعين من هو بحاجة اليها لتزداد اشراقة المستقبل في روحه .

٢) إنها تعزيز قدرات الحاضر ليستزيد بما يقوي موقف الحق من الباطل .

وهي بهذه التوجهات إنما تعبر عن دعوة خيرة لتنمية قدرة الانسان الروحية ، واعانته على التمييز بين الحق والباطل ، ووقوفه الصلب مع الحق . ذلك ان السلوك الانساني بمجمله هو أشكال من الصراعات المختلفة المتراوحة بين الخير والشر من ناحية ، وبين الشر بمستوياته والخيربمستوياته ايضا ، مما دعا القائد الى الدعوة لما يقوي موقف الحق والخير والاستزادة منه ، وفي الوقت نفسه يزيد الفرد صبرا بحيث يصبح اكثر ثقة وتفاؤلا بالمستقبل وتشديدا لعزيمته ورفعةً لهمته ولروحه المعنوية . وتنبثق اهمية هذه الوصايا ، اضافة الى ذلك ، انها :

٣) تصدر من قائد البلاد ورئيسها ومفجر ثورتها ، فهي بهذا تمثل نصائح هادية لابناء شعبه ومرشدة لهم ، فهي تنهى وتحذر وتنذر ، ثم ، هي تبصر

وتعالج مواطن الضعف فتدعو الضعفاء ليكونوا اكثر قوة وتدعو الاقوياء لمساعدتهم ، في الوقت الذي تحذرهم من التدحرج الى اسفل .

٤) تصدر في وقت تشتد فيه الحاجة اليها والى ضرورتها ، ذلك ان الحصار الظالم ، وبعد مرور عشر سنوات عليه ، ترك آثارا سلبية لا يمكن تجاهل وجودها في شخصية العراقيين او في نظرتهم المستقبلية ، على الرغم من صمودهم العالي وايمانهم الكبير وتكيفهم الواسع للظروف المستجدة .

كما انها ، وفي الوقت نفسه ، تعبر عن مواقف حيوية ماضية معيشة ، وقد جاءت وصايا القائد ونصائحه لتغني التجربة وتزيد من الخبرة بخبرة ثرة وتجارب حيوية منبثقة من خبرة القائد ومعايشته الميدانية الطويلة والمتنوعة .

٥) احتوت نظرة فلسفية واستنتاجات نظرية من الواقع تشكل منبعا ثرا ومهما للباحثين والمفكرين والمؤرخين المعنيين بدراسة فلسفة القائد ورؤاه الفكرية وشخصيته القيادية وطريقة تفكيره . ويقينا ان هذه الوصايا بما حملته من حكم وتجارب ونظرات صائبة للحاضر والمستقبل ستزيد من إيمانهم وثقتهم بالفكر النير لسيادته ، ذلك انها تخاطب ذوي العقول الباحثين عن الحقيقة والرأي السديد .

٦) تتميز بالشمول والتكامل ، كما تتميز في الوقت ذاته بالاسلوب الرصين ، وتتسم بالايجاز والوضوح والصياغات المنوعة للعبارات ودقتها ، مما يجعلها سهلة الاستيعاب ، إذ تتسع فرص الافادة منها ، كما تتعمق آثارها عند تحويلها الى مبادىء يُهتدى بها ونماذج سلوكية نقتفي اثرها .

إن الباحث المحلل والمتأمل لوصايا السيد الرئيس القائد يجد انها تجسد في شموليتها اهتماما كبيرا بالانسان قيمة عليا ، وبكل جوانب شخصيته العقلية والاجتماعية والوجدانية والروحية . ذلك ان الانسان هو الوحدة الاساسية في المجتمع ، وهو باني الحضارات ، وهو الذي يبدع ويبتكر ويجاهد ، وهو

الذي يتميز بالفكر وسمو العقل والمدركات العقلية التي يهتدي بها للتعاون مع ابناء جنسه من البشر والانتماء الى المؤسسات الاجتماعية لتحقيق ذاته والشعور بوجوده .

ولاجل استلهام القيم من وصايا القائد ، تم مراجعة كل وصية على حدة وقراءتها بتأن للوصول الى القيم التي تتضمنها الوصية وتسميتها : وقد انتقل التحليل للقيم بعد ذلك الى تركيبها بشكل مكونات اكبر ، ونتج عن ذلك التصنيف الاتي للقيم بحسب مجالاتها :

١ ــ المجال العقلي .

٢ ــ المجال الوجداني .

٣ ــ المجال الاجتماعي .

٤ ــ المجال الروحي .

وفيما يأتي تحليل تفصيلي لكل مجال قيمي :

١ ــ المجال العقلي :

يزخر تراثنا العربي الاسلامي بالاهتمام بالعقل والتربية العقلية . فلقد اوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز في العشرات من آياته باستخدام العقل واعماله هدى للانسان نحو عمل الخير واتخاذ القرار السليم في التعامل مع النفس ومع الاخرين . فالعقل من اجل النعم التي انعم الله بها على الانسان ، وهو قبس من نور الله ، او كما قال حجة الاسلام الامام الغزالي انه « نموذج من نور الله » . لذا يعد إعمال العقل واجبا دينيا ، إضافة الى كون استخدام العقل الى اقصاه يعد اداة لسعادة الانسان ونجاحه في الحياة .

لذا يعد تربية العقل وتنمية القدرات العقلية ومهارات التفكير والاعتماد على العلم والاحكام العقلية والتفكير العلمي اداة في تقويم الاشياء والحكم عليها في ضوء الحقائق المتوفرة اساسا صلدا في تحقيق الحياة السعيدة المنتجة ،

ويسهم في تكوين الانسان الرشيد هدف الثورة واداتها ، مما يجسد اهمية التربية العقلية وضرورتها في زماننا هذا تعبيرا عن الاهتمام بالانسان بكل جوانب شخصيته • فالانسان هو الذي يبني وهو الذي يدمر وهو الذي ينشىء الحضارات ، ويبدع ويبتكر ، وفي عقله تنمو بذور الخير والسلام والبناء والجهاد • ولهذا كله ، يجد المتأمل والمحلل لوصايا الرئيس القائد ان اغلبها ، بل جميعها ، تسعى لمخاطبة عقل الانسان العراقي والعربي ، مما يعني اهتماما فائقا من سيادته بتربية الجانب العقلي من شخصية الانسان •

فالقائد في وصاياه الـ ٥٧ كلها ، يسعى الى انماء المعرفة والقوى العقلية والادراكية لدى الفرد ليحسن التفكير والتنظيم والتكيف والتأمل والتذكر ، ويدرك المفاهيم بحيث يستطيع التعامل مع الحياة المستقبلية بما تتطلبه من ضرورات التفكير العقلي تميزا واستقصاء واستكشافا وتبصرا وادراكا لطبيعة العلاقات والمواقف وتعاملا ناجحا مع الزمن والبشر •

ولاشك ان هذا الاتجاه العقلي المستجد في الوصايا هو المطلوب دائما لمثلها ، ذلك ان مخاطبة (ذوي الالباب) لابد ان تبدأ بمخاطبة عقولهم باسلوب علمي ومنطقي ، كما اوضح ذلك الرئيس القائد باسلوبه السهل الممتع من طرح للمشكلة او الظاهرة او الحالة ، ثم توجيه في الحل ، مما يثير التفكير ويدعو الى الاستنتاج والاستنباط والمقارنة والتدبر • وهي بهذا تدفع القارىء الحصيف الى الافادة منها وتمثلها في سلوكه ، وهي ما تهدف اليه الوصايا تماما •

ولعل ابرز ما نلاحظه في الجانب العقلي من وصايا القائد ، هو الدعوة الى استثمار القدرات العقلية الى اقصاها ، واستعمال العقل بديلا عن الحماقة ، وربط العقل بالضمير واللسان فتكون الحكمة والقرار الحكيم بعيدين عن الهوى والتهور •

ولعل ايضا من اولويات هذا التفكير العقلي الحكيم الاتجاه نحو التخطيط العام الشامل للجماعة وللفرد ، وهو امر لازم للحياة الناجحة ولرضا الله تعالى ، وذلك بخطوات متوالية ومنطقية تبدو في ثنايا الوصايا • ويأتي في مقدمتها ، تعرّف الواقع وما يدور فيه (لسان الناس كتاب على الارض ، فلا تهمل قراءته ، ولا تصدق كل ما تقرأه فيه « الوصية ٤٢ ») من دون الالتزام المطلق به ، ومن ثم الانطلاق نحو المستقبل بتفاؤل وثبات (اجعل قدمك على الارض في الوقت الذي يمتد بصرك الى الافق ولا تحرم نفسك من الصلة بالارض والسماء معاً « الوصية ٤٥ ») • يلي ذلك توفر النية والقدرة على تحقيق الاهداف المتوازنة مع ميل الى الجانب الروحي منها والتمسك بها وبما هو متوفر من قدرات الاغلبية مع عدم المجازفة في استخدام القدرات مرة واحدة ، مع الافادة من خبرات الاخرين ومتابعة إصلاح الخطأ حيثما وجد ، مع التجديد في الوسائل والتدابير والقدرات لتحقيق المبادىء مما يعد صحيحا ومشروعا ويمكن الوصول اليه وانجازه •

ويأتي الحذر والتوجس من القيم المتكررة في وصايا الرئيس القائد ، وتمثل تلك القيم اتجاها واضحا فيها بدءا من الحذر من الانحرافات الشخصية والغياب عن المكان (المشاركة) والحذر من نوايا العدو والغفلة عنه (اجعل عدوك امام عينك ، واسبقه ولا تدعه خلف ظهرك « الوصية ٣٥ ») ، والانتباه الى الصديق قبل الخصم ، وممن يعمل داخل الصف ويعمل لنفسه ، وعدم تقريب من يظنك انك تحتقره ، وعدم افشاء السر لمن لم تجربه ، وعدم الاستهانة بالقضايا الصغيرة البسيطة •

ويأتي الاتجاه الاخر في الجانب العقلي من خلال الدعوة الى تكافؤ الفرص وحسن الاختيار والتمييز بين من نتعامل معهم ، فالمطلوب عدم المساواة بين الجبناء والشجعان والنزهاء والمدنسين والصادقين والكاذبين ، واعطاء كل ذي حق حقه والحكم بالعدل وايلاء النخبة المؤتمنة مواقعها القيادية المناسبة •

ثم يأتي الحزم والمبادرة المحسوبة اتجاها واضحا اخر في وصايا الرئيس القائد ، فلطم الباطل وانفاذ الحق الى ميدانه ، والبعد عن التردد واظهار العدو على حقيقته والمبادءة ، كلها بين يديك فـ (لتكن الضربة الكبيرة منك والضربة الحاسمة لك « الوصية ٤ ») .

ان هذه القيم والاتجاهات يرتبط بعضها ببعض لتؤلف نسيجا متكامل الالوان والصفات ، ولتكون لوحة تصب في بناء الانسان العراقي والعربي ، ويفيد منها الفكر التربوي الانساني .

يبقى ان نتساءل بعد هذا عن صورة الانسان الذي توحي به هذه الوصايا من خلال القيم التي تفرزها(*) . ان التحليل القيمي يشير الى ان بناء الانسان على وفق هذه الوصايا يهدف الى ان يتحلى في الجانب العقلي بالخصال الاتية :

« حسن التخطيط والتدبير ، والتفكير العلمي ، والتفكير المنطقي ، والحكمة والحذر والتوجس والحرص وبعد النظر ، والتبصر ، والتحسب ، وحسن الاختيار ، والتجديد واليقظة ، والانتفاع من الفرص المشروعة ، والتنظيم والاعتدال والحزم وتقدير الموقف وحسن اتخاذ القرار » .

٢ ـ المجال الوجداني :

ويقصد بالوجدان المشاعر والاحاسيس والعواطف والانفعالات وتبادل المشاعر الايجابية وتنميتها ، وحب الجمال والفضيلة . ويعبر الانسان عادة عن الجانب الوجداني من شخصيته باشكال وصيغ متباينة من فرح وحزن وغضب وحالات مزاجية وغيرها من مشاعر تتلازم مع الوجود الانساني وتتداخل وتتفاعل فيما بينها . كما تتداخل وتتعارض في احيان اخرى مع دوافع الفرد مما يعطي الحياة الانسانية عمقها وحساسيتها ويمنحها ألوانها البهيجة والمأساوية على حد سواء .

---

* **انظر الملاحق .**

وعلى هذا ، يؤدي الوجدان دورا اساسيا في تحديد الشخصية فيطبعها بطابعه ويلونها بلونه بحيث تعد السمة الوجدانية وجها من وجوه الشخصية وليس مجرد عامل مكون لها فقط ، لذا يصبح الاهتمام بتنمية الوجدان وتهذيبه وتوجيهه ذا اهمية قصوى في بناء الشخصية السوية المنتجة • وهي بهذا تصبح قوة لا يستهان بها في تنظيم حياة الفرد والمجتمع ، ولهذا كله ، كان للجانب الوجداني مكان بارز في وصايا القائد الى ابناء شعبه •

وقد تجلى ذلك في بروز اتجاهين في الوصايا ، الاتجاه الاول : وفيه اعلاء للصفات الايجابية وتمجيدها والدعوة لها • والاتجاه الثاني : وفيه تحذير من مغبة الانجرار الى القيم وانماط السلوك المتدنية التي لا يرضاها الله ولا يرتضيها البشر وتتناقض مع الاعراف الاجتماعية ويحكمها الهوى وحب الدنيا على حساب الاخرة ، والميل للاستجابة الى نزعات الشيطان •

ففي الاتجاه الاول تعبر الوصايا عن الدعوة الى جملة من الصفات والقيم العليا التي تقرها القيم العربية الاسلامية ويرفع المجتمع من شأنها • ويأتي في مقدمتها المحبة وسيادة العلاقات الانسانية وتحكم الضمير والحفاظ على اسرار الناس والغضب من الباطل ، والنصح • وتتجسد في الاتجاه الثاني الدعوة الى تجنب الشر • ويذكر سيادته بدور الشيطان في التشجيع على الشر لدى اولئك الذين تسيرهم اهواؤهم وامزجتهم • (فالشيطان ينزغ الى القلوب الضعيفة ويعشعش داخل الصدور الخالية من الايمان « الوصية ٥٣ ») • وفي الاتجاه نفسه ، يحذر القائد مما يمكن ان يجلبه الاندفاع العاطفي غير العقلاني والمتمثل بالحماقة والتهور والتسرع والعجلة والنزعات الانفعالية غير المنضبطة مما قد يؤدي الى الغضب غير المبرر والتجافي والكراهية وإضعاف النسيج الاجتماعي للعائلة وللمجتمع بكل مستوياته •

ولا يكتفي الرئيس القائد باعلاء شأن القيم الخيرة والدعوة الى قمع كل ما هو غير اخلاقي في السلوك ، بل يضع كل قيمة خيرة سبيلا للابتعاد عما

يناقضها من قيم شريرة او سلوك خاطىء (الوصل امام التجافي والعفو سبيلك امام الانتقام والمحبة سبيلك امام البغض واذا ما اضطررت الى اختيار بين سبيلين متناقضين ، فاجعل الوسط بينهما حالة طارئة « الوصية ٢٥ ») .

كما يضع سيادته ضوابط لتنظيم الجوانب الوجدانية ، ويأتي في مقدمتها ضمير الفرد وعقله (ضميرك وعقلك سلطانك وليس لسانك وهواك ، فاربط لسانك بعقلك واجعل ضميرك رقيب هواك « الوصية ١٤ ») . كما يدعو الى اعتماد معاني الصداقة وحقوقها محكات لتصرف الفرد ازاء صديقه ، ويدعو الى تصحيح الخطأ ، واعداد لكل حال ما يستوجب .

إن الاخذ بهذه القيم الايجابية والنماذج السلوكية ، الى جانب الاعتراف بالطبيعة الانسانية في ضعفها وقوتها وفي انفعالاتها وصراعاتها ودوافعها ، يتطلب من الفرد ان يكيف ويهذب الكثير من تعبيراته الوجدانية ويسعى الى (أن يتوازن في نظرته وتصرفه إزاء الحياة « الوصية ٤٠ ») وتلك هي القضية الاساسية في الوجدان .

إن بناء الانسان وجدانيا ، وكما تدل عليه الوصايا ، يتطلب ان تنمى لديه قيم كثيرة تربط الجانبين الوجداني والاخلاقي ، بل الروحي والاجتماعي ايضا . واهم هذه القيم : المحبة وسيادة العلاقات الطيبة ، وعمل الخير والكتمان والنصيحة والكره للاعمال المستقبحة ورفض الظلم ، وعدم الانجرار الى الهوى والتوازن في العواطف ، وتجنب الاغتياب والتجسس والابتعاد عن التهور والاتزان العاطفي والجرأة والتأني والمودة والتفاؤل والرحمة والخجل من عمل السيئات . ويؤطر هذه القيم كلها وازع ايماني روحي .

٣ ـ المجال الاجتماعي :

ويقصد به توجيه الافراد وتنشئتهم على وفق الاهداف التي تسعى اليها الجماعة ، من حيث صلة الفرد باسرته ومجتمعه ، واكسابه انماط السلوك والمهارات والقيم والاتجاهات التي تساعده على التفاعل مع البيئة الاجتماعية

بنجاح ، بحيث يستطيع مواجهة التغيرات الاجتماعية ، وتنمو لديه الاتجاهات الايجابية نحو العناصر المشتركة في البناء الاجتماعي ، ليتمكن من اداء دوره في التفاعل الاجتماعي ، ويتحمل المسؤولية الاجتماعية تجاه نفسه ومجتمعه • إن ذلك يعني ان الفرد كائن اجتماعي ، وعندما تتسم الحياة الاجتماعية باليسر والسهولة والتنظيم والانصياع الايجابي للقيم ، فهناك احتمال كبير في ان يعيش الفرد اجتماعيا بأمان واطمئنان • وعندما تضطرب الحياة الاجتماعية ، ويفقد الناس ثقتهم بمؤسساتهم الاجتماعية ، فهناك احتمال كبير في تعرضهم الى حالات القلق والاضطراب الانفعالي •

ومن المعلوم ان المؤسسات الاجتماعية اوجدها المجتمع لكي تنظم حياة الناس اجتماعيا • وقد يقبل الناس ذلك طواعية • اذ لولاها ما كان هناك وجود لما يسمى بالمجتمع • ان هذه المؤسسات يعرف تأثيرها بمقدار ما تبثه من قيم بين افرادها كما ونوعا • وتكون الحاجة اليها اكثر في اوقات الشدة والازمات ، إذ تشتد الحاجة الى التمسك بالقيم التي ارتضاها الناس ، خشية ان يصاب المجتمع بالتفكك •

لقد عانت مجتمعات كثيرة الاحداث الجسيمة ، ولعل المعاناة كانت اشد عندما اصيبت قيمهم بالتفكك والانحلال ، ونتج عن ذلك كثير من مظاهر الانحراف الاجتماعي •

ومع التسليم باحتمالية حصول التفكك في المجتمعات كافة ، الا انه ليس قدرا مقدرا عليها • صحيح ان المجتمعات التي تتعرض الى الاحداث الجسيمة يتأثر كيانها الاجتماعي القيمي نتيجة هذا التعرض ، الا ان ذلك مرهون بقوة المؤسسات الاجتماعية وتماسكها وبقوة منظومتها القيمية • وتكاد الاسرة تكون احدى هذه المؤسسات الاجتماعية الاكثر مقاومة لعوامل التفكك ، والاقدر على استرجاع هيبتها في اول فرصة تسنح لها • لكنها عندما تستعيد نشاطها تبدأ بمقاسمة المؤسسات الاجتماعية الاخرى مسؤولية الحراسة القيمية•

ان التحليل القيمي لوصايا الرئيس القائد في المجال الاجتماعي يكشف عن عمق نظرته الى الحياة الاجتماعية ، ولا تتحقق هذه النظرة الا بالخبرة والتجربة الطويلة • ومع تأكيد وصايا السيد الرئيس اهمية الجانب العقلي لشخصية الفرد ، الا انه لم يهمل الجانب الاجتماعي والنظام القيمي في كيفية التعامل مع الناس وتكوين علاقات اجتماعية طيبة ، من حيث ممارسة الحقوق والواجبات والالتزام بالعدل والمساواة بين الناس وتجنب الهوى واحترام آراء الناس ، واستنفار قدرة ورأي الاغلبية وتفضيلها على رأي الاقلية •

ان نظرة الرئيس القائد الى الانسان اجتماعيا تتسم بالموضوعية • فهو ، اي الانسان ، وكما يبدو من التحليل ، يتصرف اجتماعيا على وفق حاجاته النفسية ، فهو يقترب او يبتعد عن الاخرين بناء على حركة منظومة الحاجات لديه • وقد تطغى هذه الحاجات على حساب حاجات الاخرين ، فتسبب الاذى النفسي والاجتماعي ، ويصبح هوى النفس هو السائد • من اجل ذلك يكون من الانفع للجماعة ان تعتمد قدرة الاغلبية ، وان تستنفر هذه القدرة الى اقصاها • وتؤكد وصايا الرئيس القائد في المجال الاجتماعي واجبات المسؤول عن الناس ، فلقد اهتمت بالرحمة وحسبتها تاج العدالة ، ولكنها لم تدع المجرمين الذين لا يرجى صلاحهم يعبثون في الارض • ومن واجباب المسؤول ان يعطي كل انسان استحقاقه ، وان لا يعتمد الظلم سبيلا لعلاج المشكلات الاجتماعية ، وان يميز بين المخلص لمجتمعه والمضحي له وبين من يسعى لتحقيق اهدافه الشخصية • وان يكون المسؤول ذا قرار حصيف ، وعندما يتخذ القرار عليه ان لا يتراجع عنه • وعليه ان يؤكد عمل الجماعة فهو الارقى مرتبة ونوعا والاعلى قدرة ، وان يد الله مع الجماعة ويد الشيطان مع المنعزلين عنها والذين يستأثرون ويستغنون عن محيطهم • وعلى المسؤول ان يهتم بالعلاقات الانسانية بينه وبين مرؤوسيه ، وان يعطي هذه العلاقة سمة الثبات والديمومة ، وان يؤكد في علاقته بالناس المبادىء ، وعليه ان لا يهبط بها الى وسائل متدنية•

ان عليه ان يهتم باهل التجربة والخبرة ، وان لا يحرم من ينبغي تجربتهم من امر او ميدان جديد ، وان عليه ان يولي على امور الناس (القوي الصادق الامين « الوصية ٤١ ») الذي يخشى الله غير حقير الوزن وغير الذي يداري شهرته بالمال وغير الذي يغدر في ظلام ، والذي هو من المعدن الاصيل الطيب ، والذي يستحي من النقيصة ، وان يكون صاحب عدل ، ذا صدر مملوء بالايمان ، غير متنصل من مسؤوليته عندما يصاب بالاخفاق والفشل في عمل يتولاه ، وغير الذي ينتظر المنصب ليكون به (افضل على حساب الشعب والامة ومصالحها « الوصية ٥٦ ») .

نستخلص مما سبق ، ان السيد الرئيس القائد يدعو في وصاياه ، في مجال البناء الاجتماعي للانسان ، الى سيادة العلاقات الاجتماعية الانسانية الطيبة ، والعدل ، والمساواة ، وممارسة الحقوق والواجبات ، واحترام اراء الناس ، والابتعاد عن الهوى في التعامل مع الاخرين ، واستثمار القدرة الى اقصاها ، واعتماد الرحمة والتمييز بين الناس على اساس قيمهم وسلوكهم ، وتأكيد القدوة الحسنة ، وحسن التقدير والتدبير ، وتكاملية السلوك ، وتأكيد العمل الجماعي .

٤ ـ المجال الروحي :

تهتم المجتمعات قديمها وحديثها بغرس القيم الروحية في نفوس الناشئة وفي نفوس الكبار ، جنبا الى جنب ، لايمانها بان كل القيم اخلاقية ذات صلة بما يقرب الانسان الى ما يؤمن به ، وهي في الاخر تبني الشخصية على اسس قويمة . ان بالانسان حاجة الى القيم التي تقوي الرابطة بينه وبين اخوته في الايمان ، وهي جميعا ذات صلة بمجالات الحياة المختلفة ، ويبقى بالانسان حاجة الى ما يقوي من توجهه الى الايمان والاطمئنان .

وهناك امثلة عديدة لمجتمعات قديمة ومعاصرة استطاعت ان تهب الى الوجود ناشئة وشبابا اندفعوا الى بناء حضارات استطاعت ان تقف امام

اعاصير الهدم والهمجية • من اجل ذلك نجد ان المجتمع العربي في ظرفه الحاضر به حاجة ماسة الى ما يقوي صلته برسالات السماء داعما قوى الايمان والاطمئنان في قلبه وفي عقله •

إن نظرة ثاقبة الى وصايا القائد «حفظه الله ورعاه» تعطي البرهان على وجود قيم روحية في كل وصية منها • بمعنى آخر ان سيادته يرى الا قيمة لوصية لانسان ما لم تكن محملة بالتوجه الروحي • ذلك لانه يحول القيم من معناها الراكد الى معنى فعال ديناميكي • لقد كان سيادته حريصا على ان يعطي الشخصية العربية زخما من الروح لتكون اقدر على مواجهة إفرازات الحاضر بقوة وشجاعة • إن النظرة التحليلية لهذه الوصايا القيمة في جانبها الروحي تعطي الصورة الاتية للشخصية العربية :

في كل نشاط من نشاطات الحياة اليومية لابد للانسان العربي المؤمن ان يقرن هذا النشاط بالتوكل على الله قولا وفعلا ، وليضع نصب عينيه انه موجود وهو اقرب اليه من حبل الوريد • ذلك يعني ان كل نشاط خال من النفع للانسان ولاخوته في الايمان يجب ان يستبعد لان الله عز وجل لا يكون موجودا فيه •

ان هذا الانسان المؤمن قد منح القدرة على التفاعل مع الاخرين في نشاطاته اليومية ومن دون هذا التفاعل لا يكون لوجوده قيمة • ان هذا التفاعل قد يتطلب في كثير من جوانبه ان يقدم الخير الى الاخرين ، واذا ما تحقق ذلك فليكن مقدم الخير سراعا اليه غير متردد ، واذا كان فعل الخير يتطلب السرعة فان احتمال وقوع الضرر بالاخرين يتطلب من الفرد التأني • وعندما يلحق الضرر بالاخرين فلا يجوز ان يسكت الانسان على هذا الضرر ، بل عليه ان يقول الحق وان يفعله حتى لا يقع ظلم على هذا الانسان •

إن هذا التفاعل مع الاخرين سوف يمكن الفرد من الوصول الى تمييز بين الناس وهم يتفاعلون ، وهؤلاء الناس لا يتساوون فيما لديهم ، ولا يجوز للشخصية المؤمنة ان تكافىء بينهم ، ففيهم الجبان وفيهم الشجاع وفيهم المخلص والمسيء وفيهم الصادق والكاذب وفيهم من يمتلك ناصية القيم الرفيعة وفيهم المدنس ، وعليه فان الشخصية مطالبة بان تكون على وعي وتفريق بين هؤلاء ، فتعزز في هؤلاء قيمهم الرفيعة ، وتبذل ما تستطيع لردع اولئك عن الانحراف في القيم .

واذا ما خيرت الشخصية بين المادة والروح فلابد ان تغلب القيم الروحية والاعتبارية قيم المادة ، لانها الادوم في النفس ولانها الانفع والاعلى منزلة . لكن الروح قد تصدأ بمرور الزمن ما لم تعزز بين الحين والاخر بما يقويها ويسندها ، بمعنى ان مصدر القوة لدى الانسان هو الروح وليس ما يمتلكه من قوى المادة وهي قد تؤول الى زوال .

وعندما تجد الشخصية نفسها قد ارتكبت ما لا يجب ان ترتكبه ، فليكن الندم ضرورة ، ومن دونه قد تستمرىء الشخصية فعل السوء . ولكن تكرار الندم وكثرته قد يرهق النفس ، فلابد بعد هذا التراكم الكمي من الندم ان تنفرز الحكمة ، فاذا ما انفرزت بلغ الانسان قمة الروح ، لان سلاح الروح هو الحكمة .

وبعد ان تتشكل الحكمة يتشكل الانسان الصادق الامين الذي يخشى الله ولا يغدر في ظلام ويتجنب الشر ويدرأ بالحسنى والمستحي من اي نقيصة ، والذي لا ينزع الشيطان الى قلبه فيعشعش فيه ، والذي يجعل الرحمة اساس العدالة ، والذي يربط لسانه بعقله ويجعل ضميره رقيب هواه ، والذي يحافظ على اسرار الناس ولا يضعها في افواه الاخرين ، والذي اذا ما اكتشف الخطأ فلا يتردد في اصلاحه ، والذي ، بعد كل هذا ، لا يحرم نفسه من التواصل بالارض والسماء معا ، اذ ليس اي منهما وحده بديلا كافيا في الحياة .

ثانيا : توظيف ما جاء في التقرير واستثماره ليكون بمثابة دليل عمل لمؤسسات المجتمع :

في ضوء تحليل السمات العامة لوصايا القائد ، ولما عالجته في مجال بناء شخصية الانسان العقلية والوجدانية والاجتماعية والروحية ، يمكن تحويل متضمنات هذه الوصايا الى مبادىء واهداف تربوية تحول الى انماط سلوكية تسعى المنظمات والمؤسسات السياسية والاجتماعية والتربوية الى غرسها في نفوس ابناء شعبنا كبارا وصغارا بهدف بناء مجتمع حضاري متطور قادر على اداء رسالة الامة العربية .

ان ذلك يتطلب التوجه الى المؤسسات التي مهمتها بناء الانسان ، لترجمة هذه الوصايا الى سلوكيات ومنهج عمل . ومن اهم هذه المؤسسات الاتي :

١ ـ وزارة التربية ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي : ويمكنها توظيف الوصايا في الجوانب الاتية :

أ ـ اعادة النظر بالاهداف التربوية في ضوء الاتجاهات العامة للوصايا وبما يحقق المزيد من تأكيد الجانب العقلي والروحي والاخلاقي والاجتماعي .

ب ـ استثمار القيم المنبثقة عن الوصايا والمشار اليها في التقرير في تطوير المناهج الدراسية .

ج ـ تثقيف الهيئات التدريسية ضمن برامج التدريب بما يؤدي الى تنمية قدراتهم الفكرية واساليب تعاملهم مع الطلبة .

د ـ السعي الى اعادة النظر ببعض التعليمات وقواعد العمل الاداري والفني لتطوير اساليب اختيار القيادات الادارية وتدريبها في ضوء الوصايا .

٢ ــ وزارة الثقافة والاعلام : لترجمة محتويات وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة في ضوء المنطلقات الاساسية للوصايا ، وبما يحقق بناء الانسان الذي تسعى اليه الثورة .

٣ ــ وزارة الاوقاف والشؤون الدينية : ويكون هدفها توعية الجماهير بالجوانب الاخلاقية والروحية التي احتوتها الوصايا . ويمكن القول ان بالامكان الاستنتاج من كل وصية من وصايا السيد الرئيس القائد قيمة اخلاقية وقيمة روحية .

٤ ــ المنظمات الحزبية والجماهيرية والمهنية : لتثقيف منتسبيها وتوعيتهم بمضامين الوصايا .

٥ ــ هيئة الشباب للتعريف بما جاء في التقرير من وصايا وتوظيفها في توجيه الشباب وتوعيتهم .

٦ ــ مدرسة الاعداد الحزبي : لمناقشة التقرير الحالي بموضوعية ليكون ثقافة حزبية خاصة وثقافة عامة .

ومرفق بالتقرير ملحق يتضمن ثلاثة حقول هي :

١ ــ نص الوصايا كما جاءت في خطاب السيد الرئيس .

٢ ــ القيم المستنبطة من كل وصية .

٣ ــ الجوانب المكونة للشخصية لكل وصية .

هذا والله من وراء القصد

فرع التربية وعلم النفس في المجمع العلمي

الملحق

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله ورعاه»	القيم المستنبطة	المكونات
١ ـ لا تستفز الافعى قبل ان تبيت النية والقدرة على قطع راسها . ولن يفيدك القول انك لم تبتدىء ان هي فاجأتك بالهجوم عليك ، واعد لكل حال ما يستوجب ، وتوكل على الله .	التفكير / الحكمة / الاتزان / الايمان اتخاذ القرار بعد تمحيصه	العقلي والروحي
٢ ـ لا تقرب اليك من يظنك تحتقره .	التقويم / الحذر / التوجس /	العقلي والوجداني
٣ ـ لا ترتب لمن لا دالة لهم عليك ما هو اكثر من استحقاقهم ، لانك ان فعلت ذلك من اجل فضيلة ، توهموا انها استحقاقهم ، فان قصر فعلك عن مستواه لاحقا ، عدوه تقصيرا منك ، او موقفا لا يحمل كامل المودة ، وبذلك تخسر من تبره ، بدلا من ان تكسبه .	الحرص / بعد النظر / الحكم على الاشخاص	العقلي والاجتماعي
٤ ـ اذا لم تقتصد الذهاب الى كامل المدى ، عليك ان تبصر عدوك بعواقب الامور ، عندما يكون قصدك ان تتفادى الصراع معه ، اذ ربما لا يكون قد قرر الذهاب بالصراع الى كامل المدى ، وما فعله الذي اوحى لك بانه يقصد الصراع لكل مداه الا حماقة حجبت عنه امكانية ان يبصر عواقب الامور ، وقد يكون تبصيرك اياه مما يبعده عن ان يتوغل في مداه ، واذا ما قررت ان تصطرع مع عدوك ، فاظهره على حقيقته كمعتد ، ولتكن الضربة الكبيرة منك ، والضربة الحاسمة لك .	التبصر / الجراة / الاقدام / التحسب	العقلي والوجداني

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله ورعاه»	القيم المستنبطة	المكونات
٥ ـ أسرع ، وعجل في الخير ، وتريث ، وتأن في ما يلحق ضررا باخرين . ولا تتردد في إنفاذ الحق الى ميدانه ، والطم الباطل ، حيث ما ذر قرنه .	الخير / العدالة / التريث	العقلي والروحي
٦ ـ لا تساوي بين الجبناء والشجعان ، ولا بين المخلصين ومن لم يستقروا بعد على موقف واضح ، ولا بين النزهاء والمدنسين ، ولا بين الصادقين والكاذبين ، ولا بين القمم ومجرد مثابات دالة فوق ارض مستوية .	التميز / الصدق / السمو والعلا	العقلي والوجداني والروحي
٧ ـ ان حكمت ، فاحكم بالعدل ، ولا تدخل الهوى في ما يثقل حكما ، او يدع مجرما لا يرجى اصلاحه يفلت من عقاب .	العدل / اللا انفعالية / الصلاح	العقلي والاجتماعي
٨ ـ عندما لا تحضر ميدان العمل والقتال لسبب مسوغ ، لا تدع ظلك يغيب عن المكان ، او لا يكون صوتك مسموعا .	المهابة / ترك الاثر الحسن / المشاركة	الاجتماعي
٩ ـ ارسم خططك العامة على قدرة الاغلبية واستنفرها على ما هو اعلى ، واجعل النخبة حداتها الى حيث صعودها الدائم بالعمل القيادي ، واجعل اول القوم يرى اخرهم ، واخرهم يرى اولهم .	التخطيط / التحفيز / القدوة	العقلي والاجتماعي
١٠ـ اجعل الرحمة تاج العدالة ، والحزم بديلا عن التردد والتأني بديلا عن التسرع ، والحكمة بديلا عن التهور ، والعقل بديلا عن الحماقة ، ولا تعط عدوك فرصة عليك .	الرحمة / العدالة / الحزم / اللاتردد / الحكمة / الحذر	العقلي والاجتماعي
١١ـ لا تجعل عدوك يطمع في صفحك ، ولا صديقك ييأس منه.	اللاطمع / الصفح المتزن / الحلم / الحذر	العقلي والاجتماعي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
١٢ـ إذا رأيت ان غضبك قد يفضي الى قرار تندم عليه تريث ، لتتخذ قرارك في ظرف لا يداخله الهوى فيحرفه عن مقصده ، أو يسد طريق الرحمة في قلبك اليه .	التريث / الاتزان الانفعالي / الرحمة	العقلي والوجداني والاجتماعي
١٣ـ لا تساو بين صديقك وعدوك ، حتى لو حصل صلح مع الاخير ، لكي لا يستهين عدوك بك ، ويستخف صديقك بمعاني الصداقة وحقوقها واعط كل واحد استحقاقه على اساس وصفه .	تحديد المواقف / عدم الاستهانة/ التحسب	العقلي والوجداني والاجتماعي
١٤ـ ضميرك وعقلك سلطانك ، وليس لسانك وهواك ، فاربط لسانك بعقلك واجعل ضميرك رقيب هواك .	التعقل / التفكير المنطقي	العقلي والوجداني
١٥ـ احرص على ان لا تظلم احدا ، فخير لك ان يفلت منك من يستحق عقابا ، فتلوم النفس ، من ان تظلم انسانا فتعنفها .	العدل / اللا ظلم	العقلي والوجداني والاجتماعي
١٦ـ ائتمن من يكون امامك في الملمات ، ولا يتحدث عن نفسه ، واحذر من يكون ضمن صفوفك ، ويعمل لنفسه حسب .	الائتمان الموضوعي	العقلي والوجداني والاجتماعي
١٧ـ احرص على سرك ، ولا تفرط به ، واودع ما ترى انه ضروري منه لدى من اختبرته بما هو مثله ، ولا تجعل سرك رسم ، او مفتاح البداية لمن تختبر لسانه وولاءه .	الكتمان والحذر	العقلي
١٨ـ لا تستهين بالبسيط الذي يصيب سمعتك ، اذ كم من حصاة صغيرة حطمت زجاجا كبيرا .	تقدير المواقف	العقلي
١٩ـ حافظ على اسرار الناس ، ولا تضعها في افواه الاخرين ، او تستخدم سر صديق عليه .	الحفاظ على الاسرار / الكتمان	العقلي والاجتماعي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
٢٠ـ عندما تقرر ، لا تندم ، وعندما تكتشف الخطأ ، لا تتردد في اصلاحه ، ولا تغوينك السبل السهلة ، عندما تكون السبل التي تدمي قدميك عنوان الذرى او الخيار الذي بدونه لا تصعد الحياة الى ما ينبغي .	اتخاذ القرار / الاصلاح / الاقدام	العقلي والاجتماعي
٢١ ـ اعتمد الرجال الذين لا يترددون امام واجبات صعبة ، تبدو لك ، لاول وهلة ، انها اعلى من قدراتهم ، وليس اولئك الذين يختارون منها ماهو اقل من قدراتهم .	حسن الاختيار / حسن التقدير	العقلي والاجتماعي
٢٢ـ لا يكن مدخلك الى من تعتمد عليه ، او تهمل اختباره ، صفة واحدة فيه ، ولا تدع الفرع بديلا عن الاساس ، واحفظ لكل دوره ، على اساس صفاته وموقفه .	حسن التقدير / التوازن / تكاملية السلوك	العقلي والاجتماعي
٢٣ـ اجعل صور تعامل المرء في الحياة الاعتيادية امامك ، واجعل صورته في الظروف الصعبة حاسمة في تقرير درجة الميل في ذراع الموازنة .	حسن التقدير / التوازن	العقلي والاجتماعي
٢٤ـ لسانك موقفك ، فلا تهنه ، ولا تكثر في وعد لا تستطيع الوفاء به ، او وعيد لا يجد ما يدعمه في قدرتك .	الالتزام / الوفاء / صدق الكلمة	العقلي
٢٥ـ اجعل الكرم سبيلك امام البخل ، والاقتصاد سبيلك امام التبذير ، والوصل سبيلك امام التجافي ، والعفو سبيلك امام الانتقام ، والمحبة سبيلك امام البغض ، واذا ما اضطرت الى اختيار بين سبيلين متناقضين ، فاجعل الوسط بينهما حالة طارئة ، تمر بها ، من غير ان تعتمدها قانونا دائما في حياتك وتعاملك .	الكرم / الاقتصاد / الوصل / العفو / المحبة / الوسيطية	العقلي والوجداني والاجتماعي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
٢٦ــ لا تستخدم كل قدراتك مبادئا بهجوم في صراع مع العدو ، لا تقدر انك باستخدامك اياها تحصل على نتيجة حاسمة، اذ ان استخدامك اياها من غير ذلك ، قد يحول نتائج الصراع عليك ، ويكون عدوك غالبك .	حسن التقدير / التخطيط	العقلي
٢٧ــ لا تجعل من خط البداية لقدراتك ووسائلك في امر صراع مع عدو وكأنها صورتك النهائية امامه في الزمن اللاحق ، اذ ان الثبات على هذا جمود ، وحركة عدوك فيه ميزة فيها عليك ، فجدد في وسائلك وتدابيرك وقدراتك بما يزيدها ويغنيها ان اردت الغلبة .	الثبات / التجديد / التدبير / التقدير	العقلي
٢٨ــ لا تنظر الى قدرتك على اساس ما هو داخل نفسك فحسب ، وانما على اساسه ، واساس تأثيرك في غيرك ايضا ، واذا ضعف من يهمك امره ، او يشاركك في فعل جمعي ، لا تبن مجدك على اشلائه ، او ضعفه ، وحاول ان تغير ضعفه الى قوة ، باسناده وحمايته من ضعف نفسه ، بما تمنحه من تشجيع وحماية وتبصير وقوة ، واعلم ان عمل الجماعة ، حيثما تأسس الفعل عليه ، واستوجبه الحال ، ارقى مرتبة ونوعا ، وان يد الله مع الجماعة ويد الشيطان مع المنعزلين عنها ، ومن يستأثرون مستغنين عن محيطهم .	التأثير / التشجيع / العمل الجماعي	الوجداني والاجتماعي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله ورعاه»	القيم المستنبطة	المكونات
٢٩ـ اعلم بأنه ليس هناك ما هو افضل من تجديد الامل في النصر ، وان في العلاقة الانسانية بين الرئيس والمرؤوس ما يحيي التفاؤل في النفس ، ويعطيها الثبات ، للمضي في طريقها ، في ظروف حرب او صراع ، تكون الغلبة فيه للمطاولة والصبر والعزيمة .	الامل / العلاقات الانسانية / المطاولة / الصبر / الثبات / العزم	العقلي والوجداني والاجتماعي
٣٠ـ المبادىء ليست سبيل الحياة لترتقي حسب ، وانما هي تاجها فلا تهبط بالمبادىء الى مستوى وسائل متدنية ، ولا تدعها معلقة من غير سند يعطيها الحيوية وقدرة التجديد بصلتها بالحياة .	المبدئية / التجديد / التفاعل مع الحياة / تجسيد المبادىء علميا	العقلي والاجتماعي
٣١ـ لا تجعل المادة قاعدة ومرجع المعاني الروحية والاعتبارية في نفسك ، ولا تدع هذه المعاني من غير قدرة ملموسة تردفها وتباريها ، واذا ما وضعت امام اختيار ، فاختر ما يرضي روحك ، مصدر قدرتك .	حسن الاختيار / الجانب الروحي	الروحي
٣٢ـ لا تستخدم الا مجربا في امر ليس بامكانك استكشاف مداه كله عند خط البداية . ولا تحرم من ينبغي تجربتهم من امر او ميدان جديد .	التجريب / اعتماد الخبرة / فسح المجال لاكتساب الخبرة من الجيل الجديد	العقلي والاجتماعي
٣٣ـ لا تجرح روح صديق بنصيحة ، ولا تحرمه منها ، ليعرف خطأه .	النصيحة / الكلمة الطيبة	الوجداني
٣٤ـ الطريق المجرب ليس هو الافضل دائما . والحكمة ليست في اهماله دائما .	الحكمة / الاصالة / المعاصرة	العقلي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
٣٥ـ اجعل عدوك امام عينك واسبقه ولا تدعه خلف ظهرك .	التجريب / الحكمة / التحسب / الحرص والحذر / اليقظة	العقلي
٣٦ـ اجعل اهتمامك بالفرصة التي تنتزعها ، وليس في الفرصة التي تمنح لك .	الانتفاع من الفرص / بذل الجهد / الاعتماد على النفس	العقلي
٣٧ـ لا تكن فرصتك على حساب نفسك فتخسر نفسك واكسب نفسك اذا ما اجبرت على خسارة فرصتك .	الكسب / الاستقامة / التوازن بين الموضوعية والذاتية	العقلي
٣٨ـ الفرصة الحقيقية هي التي تغتنمها ، لا التي تتصورها ممكنة حسب .	التنظيم / اغتنام الفرص	العقلي
٣٩ـ ادرأ الندم بالحكمة ، لكي لا يكون الندم حقيقة تنوء بحملها .	الحكمة / التحمل / الصبر	العقلي والروحي
٤٠ـ الشره في الطعام والشراب شره في الحياة . ومع ان للشرهين بوجه عام ، قلوبا كقلب سمكة ، فلا تجعل لهم سلطانا كبيرا على الناس ، لان قيادة الناس بحاجة الى من له قلب انسان ، يحب الناس ، ويكره الافعال المكروهة ، يغضب ويرضى ، يثور ويهدأ ، يقطب ما بين حاجبيه ويبتسم ، يرجف شاربه لامر مرفوض ، او يزهو لما يريح النفس ، وان يتوازن في نظرته وتصرفه ازاء الحياة ، وان يعتدل في الطعام والشراب ولا يفرط فيهما .	القناعة / الحب / التوازن / الاعتدال / التكامل	العقلي والوجداني والاجتماعي الجسمي والصحي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله ورعاه»	القيم المستنبطة	المكونات
٤١ـ لا تجعل لمن يداري شهرته بالمال ، او يجعله الاساس فيها ، سلطانا على مال للدولة ، ولا لمن يداريها بالاظهار سلطانا على اجهزة دعاية واعلام ، ولا لمن يداريها بالفتوحات ، بغض النظر عن وصفها ، ومقدار الحق والباطل فيها ، سلطانا على جيش ، ولا تولي حقير الوزن والتأثير والموقف على الناس ، ولا لمن يغدر في ظلام ، او لا يخشى الله ، سلطانا على اجهزة الامن القومي ، وول على كل عنوان ، واي عنوان ، القوي الصادق الامين .	التظاهر / الخشية من الله / حسن الاختيار	العقلي والوجداني والاجتماعي والروحي
٤٢ـ لسان الناس كتاب على الارض ، فلا تهمل قراءته ، ولا تصدق كل ما تقرأه فيه .	الصدق / التمييز / سماع راي الاخرين	العقلي
٤٣ـ من مدح نفسه امامك ، ولم يسبقها بما هو حق عن فعل الاخرين ، صار شاهدا على ذمها ، اذا كان عدم إظهاره لها لا يسبب له حرجا فاعرف ذلك ، واعرفه .	التمييز / نكران الذات / اعطاء كل ذي حق حقه	العقلي والوجداني
٤٤ـ لا تستهن بالبسيط الذي يبني سمعة طيبة ، ولا بالبسيط الذي يُسيء الى سمعتك ، وعلم ان اساس كل حريق شرارة ، وقطرة من عطر تملأ باحة باريجها .	حسن التقدير / عدم اهمال صغائر الامور	العقلي
٤٥ـ إجعل قدمك على الارض ، في الوقت الذي يمتد بصرك الى الافق ، ولا تحرم نفسك من الصلة بالارض والسماء معا ، إذ ليس اي منهما لوحده بديلا كافيا في الحياة .	بعد النظر / الواقع والطموح	العقلي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
٤٦ـ استفد من دروس غيرك ، قبل ان تدفع ثمنها ، فان لم تستطع فمن دروسك ، قبل ان يثقلك ثمن ما تدفعه عن التراكم منها ، فتغرق ، وان لم تستطع ، اخشى ان توصف بالغباء والحمق ، او ان يكون مصيرك التعاسة ، او الهلاك .	العبر / الاتعاظ	العقلي
٤٧ـ تجنب الشر ، ولا تكسبه ، وادرأه بالحسنى ، كلما وجدت الى ذلك سبيلا ومن غير ان يكون لذلك ثمن منك لمصدر الشر ، ولكن عليك ان تتحسب له . واذا ما غشاك فلا تلتو امامه ، وواجهه بما يستحق ، واطرد شيطان الضعف من نفسك ، وذلك لان الله يحب الشجعان ، ويخشاهم الشيطان ، ولان الشر شيطان الحمقى المتجبرين والضعف شيطانه اخر ، فاطرد الشياطين بالاقتدار المؤمن الفعال من نفسك ، وفي ساحة المنازلة ، وحطم نواميسهم على سندان قدرتك بعد الاتكال على الله .	تجنب الشر / الحسنى / التعقل / الصلابة / الثقة بالنفس / الابتعاد عن الهوى	العقلي والوجداني والروحي
٤٨ـ لا تجعل ماضيك كل ما تستند اليه كمصدر لقدرتك وتأثير فعلك ، اذ انك بهذا تكون قد اتكأت عليه حسب ، وانما اجعله جذر قوتك وفعلك ، وكن حيويا ومؤثرا وسط الحاضر ، في الوقت الذي تمتد ببصرك ، وطموح فكرك ، الى المستقبل كله .	الحيوية / التأثر في الاخرين / عدم اجترار الماضي / الطموح	العقلي والاجتماعي والروحي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين «حفظه الله ورعاه»	القيم المستنبطة	المكونات
٤٩ـ احذر من نفسك قبل عدوك وانتبه الى صديقك قبل خصمك .	السيطرة على النفس / الحذر	العقلي
٥٠ـ اساس المعدن الاصيل الطيب للرجال ، ان يستحوا من اي نقيصة ، فمن لا ترى انه يستحي من ذلك ، فلا تعتمده في مهمة خير ، واجعله يجادل خصومك واعداءك حسب .	حسن التقدير / الاخلاق / الحياء	العقلي والاجتماعي والروحي
٥١ـ لا تعمل كل ما انت قادر على القيام به ، وانما ما يعد صحيحا ومشروعا على اساس المبادىء التي تؤمن بها ، بعد الاتكال على الله .	التقدير / الالتزام / التوكل	العقلي والروحي
٥٢ـ لا تطالب بما هو ليس حقا لك ، ولا تتنازل عنه الا لمن هو احق منك به ، ووازن بين حق وما يقابله من واجب ، او التزام ، لان من يسعى الى الحق من غير واجب او التزام يقابله ، عالة على غيره ، ومن يقوم بواجب او التزام من غير حق يضع نفسه موضع المستغل الضعيف ، واي منهما ليس من صفات العراقي والعربي الاصيل المؤمن .	لا تطالب / الالتزام / معرفة الذات	العقلي والوجداني والروحي
٥٣ـ اذا اردت ان تجعل خطأك باقل ما يمكن ، وان تكون صاحب عدل الى اقصى ما يمكن في ذلك ، تذكر ان الشيطان ينزغ القلوب الضعيفة ، ويعشعش داخل الصدور الخالية من الايمان ، واجعل نفسك مكان	معرفة الحق / الايمان / العدل / الانصاف	العقلي والاجتماعي والروحي

وصايا السيد الرئيس القائد صدام حسين « حفظه الله ورعاه »	القيم المستنبطة	المكونات
غريمك او خصمك لتعرف هل ان الحق لك ، او ان حق خصمك وغريمك يعلو عليك .		
٥٤ـ تذكر دوما انك قد تندم على تصرف او قول ينفلت الى ميدانه قبل اوانه ، او في غير مادقة بحق من قصدته فيه ، ولكنك لن تندم على صبر لطول مداه ، اذا كان في اساسه تصميم فعل يقضي ذلك .	حسن التصرف / الصبر / التدبر	العقلي والروحي
٥٥ـ لا تختر في موقع القيادة اولئك الذين يشيرون الى ماهو أعلى من دورهم في النجاح او النصر ، ويتنصلون عن مسؤولياتهم في الاخفاق او الفشل .	حسن التقدير / الشخص المناسب في المكان المناسب	العقلي والاجتماعي
٥٦ـ اختر للعناوين الرفيعة من اعد نفسه ليمنحها قدرة لتكون افضل في خدمة قضية الشعب والامة ، لا اولئك الذين ينظرون اليها على انها وسيلة فرصتهم ، ليكونوا بها افضل على حساب الشعب والامة ومصالحها .	الغاية قبل الوسيلة / حسن اختيار الادوار	العقلي والاجتماعي
٥٧ـ ايها الشباب ، اذا سبقكم من ترون انه سابق لكم بما هو مادي او مظهري ، فلا تعقبوا اثره ، واختاروا طريقكم الخاص المشرف ، اذا كان طريق من سبقكم على غير هذا الوصف ، واسبقوه الى ما هو روحي واعتيادي ، وبالثقافة والموقف ، والتحصيل الدراسي والعمل الشريف المشروع ، اذا ان موقفكم على هذا هو الاعمق اثرا والاكثر رسوخا ، والاعلى منزلة ، وغيره قد يكون الى زوال .	الاستقلالية / حسن الاختيار / الثقافة / التحصيل / العمل / الاعتبارية / الروحية	العقلي والاجتماعي والروحي

التقرير الختامي لعام ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

استمر المجمع العلمي خلال عام ٢٠٠٠ في تنفيذ قانونه ذي الرقم (٣) لسنة ١٩٩٥م وانجاز الخطة التي اقرتها هيئته العامة ، واستطاع ان ينفذ تلك الخطط بنسبة عالية بفضل ما قدمه اعضاؤه والباحثون في مختلف صنوف العلم والثقافة والفنون . وقد بلغ عدد الندوات (١٥) ندوة قدم فيها (١٠٩) بحوث في موضوعات تتعلق بقضايا تنسجم مع اهداف المجمع بمواكبة التطور العلمي والتقني والاهتمام باحياء التراث العربي والاسلامي في العلوم والاداب والفنون والمحافظة على سلامة اللغة العربية .

وبلغ عدد الحلقات النقاشية (١١) حلقة نوقش فيها كثير من القضايا المتصلة بالموضوعات الساخنة التي تحتاج الى مناقشة واستخلاص مقترحات تنفع المجتمع والجهات ذات الصلة بالموضوع .

والقيت (٢٦) محاضرة في موضوعات تتصل بمهام المجمع العلمي خاصة والثقافة عامة .

وكان اكبر انجاز للمجمع في عام ٢٠٠٠م هو مؤتمره تحت عنوان « العراق وتحديات القرن الحادي والعشرين » الذي عقد برعاية السيد الرئيس القائد المنصور بالله صدام حسين ـ حفظه الله ورعاه ـ للمدة ١٧ـ٢٠ شعبان ١٤٢١هـ ـ الموافق ١٣ـ١٦ تشرين الثاني ٢٠٠٠م وحضره عدد كبير من المسؤولين والمدعوين .

وفي جلسة الافتتاح قدمت جائزتا المجمع لعام ٢٠٠٠م الاولى الى الاستاذ الدكتور عبدالعزيز البسام تقديرا لجهوده في الدراسات التربوية والادارية واسهامه في نشاط المجمع .

وقدمت الجائزة الثانية الى الاستاذ الدكتور جميل الملائكة تثميناً لما بذل من جهد في العلوم والمصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية .

وقدم في المؤتمر ٤٠ بحثا في ثلاثة محاور :

الاول : محور الغزو الثقافي .

الثاني : محور العلم والتقانة .

الثالث : محور ازمة المياه والامن الغذائي .

وكان الاقبال على المؤتمر كبيرا ، إذ شارك فيه عدد من رؤساء الجامعات والاساتذة والباحثين من داخل بغداد وخارجها وقدموا بحوثا ، فضلا عن الذين حضروا الجلسات وأسهموا في النقاش والحوار .

واصدر المؤتمر بيانا ختاميا وتوصيات سينشران في كتاب « وقائع المؤتمر » ليكونا دليل متابعة جادة وعمل بناء .

إن المجمع العلمي إذ يوثق نشاطه خلال عام ٢٠٠٠م بالارقام والفعاليات ، يأمل ان يكون التوثيق سجلا للباحثين والدارسين ، وعونا للمجمع في رسم خطواته القادمة . وهو إذ يستقبل عاما جديدا يطمح الى ان يظل مركز اشعاع فكري وعلمي ، وان يحقق ما تصبو اليه الامة والوطن .

ومن الله التوفيق

الدكتور ناجح الراوي
رئيس المجمع العلمي
كانون الثاني ٢٠٠١م

خلاصة إنجازات المجمع الثقافية لعام ٢٠٠٠م

التسلسل	النشاط	المنفذ ١٩٩٧	المنفذ ١٩٩٨	المنفذ ١٩٩٩	عام ٢٠٠٠م المخطط	المنفذ	نسبة التنفيذ	الملاحظات
١ـ	المؤتمرات	١	١	٠	١	١	١٠٠٪	(٤٠) بحثا
٢ـ	الندوات	١٣	١٥	٣	١٩	١٥	٧٩ ٪	(١٠٩) بحوث
٣ـ	الحلقات النقاشية	٣	١٣	٩	١٥	١١+٤	١٠٠٪	(١٥) حلقة
٤ـ	المحاضرات العامة	٢٢	١٨	٢٥	٣٠	٢٦	٨٧٪	(٢٦) محاضرة
٥ـ	مجلة المجمع	٤	٥	٥	٦	٤	٦٧ ٪	(٤٠) بحثا
٦ـ	اوراق مجمعية	ـ	٨	١٢	١٢	١٢	١٠٠٪	
٧ـ	الكتب المطبوعة	٦	٩	٢٣	ـ	١٣		
٨ـ	المصطلحات المقرة	١١٠٠	٦٣٤٦	١٩٠٠		٤١٦٦		